الدوحة
2010
عاصمة الثقافة العربية
Doha Capital of Arab Culture

اللغــة والثقافة

تأليف
كلير كرامش

ترجمة
د. أحمد الشيمي

مراجعة
عبد الودود العمراني

اللغـــة والثقافة

يبحث كتاب "اللغة والثقافة" في العلاقة الوطيدة بين اللغة والثقافة. وتُقدّم لنا الكاتبة كلير كرامش تعريفات لأهم المفاهيم مثل السياق الاجتماعي، والأصالة الثقافية. وهي تستخدم نتائج الأبحاث المختلفة في مجالات اللسانيات وعلم الاجتماع والدراسات الثقافية.

دولة قطر
وزارة الثقافة والفنون والتراث

منشورات وزارة الثقافة والفنون والتراث
إدارة البحوث والدراسات الثقافية

14

اللغـــة والثقــافة

تأليف

كلير كرامش

ترجمة: د. أحمد الشيمي

مراجعة: عبدالودود العمراني

الناشر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر

قسم الترجمة، إدارة البحوث والدراسات الثقافية

الدوحة ص. ب. 23700 قطر

هاتف: 4670696 974+

فاكس: 4653925 974+

الطبعة العربية: الأولى/2010

رقم الإيداع : 145 - 2010

الترقيم الدولي: 9 - 70 - 82 - 99921

العنوان: "اللغة والثقافة"

تأليف: كلير كرامش

ترجمة: د. أحمد الشيمي

العنوان الأصلي للكتاب:

Language and Culture

Claire Kramsch.

Third edition, 2009

التقديم

يسرّ إدارة البحوث والدراسات الثقافية تقديم هذا الكتاب للقرّاء العرب بهدف توفير مادة مفيدة للدارسين والباحثين وللجمهور العريض على السواء.

تتّخذ الدراسات المعمقة في مجال اللغة واللسانيات أهمية متزايدة اليوم، ولا سيما في عصرنا المعولم الذي تتفاعل فيه اللغات والثقافات بعضها مع البعض من خلال الاستعارة والتبنّي والاستخدام اليومي لمنتجات أنتجها البعض (الغرب بوجه خاص) ويستخدمها الجميع.

والواقع أنّ الفائدة الرئيسية من هذا الكتاب ليست في دراسته لآليات اللغة بقدر ما هي في تمهيده لتلك الدراسات. فهو يشكّل بالفعل "أرضية تمهيدية لمثل هذه الدراسات المتخصصة". وتحتاج بشدة الساحة الثقافية العربية بوجه خاص إلى هذا الصنف من الدراسات. فقد تبيّنت العلاقة الجوهرية بين اللغة والثقافة منذ فرضية سابير ولف وما أُطلق عليه "نظرية النسبية اللغوية" التي تحاجّ بأنّ المفاهيم والتصنيفات الثقافية المختلفة الكامنة في لغة معيّنة، تؤثّر على إدراكنا للعالم المحيط بنا، وعلى هذا الأساس – وفق سابير ولف – إنّ المتحدثين بلغات مختلفة يُفكّرون ويتصرّفون وفق أنماط مختلفة. ليس المجال أن نقارع النظرية أو نثبتها، بل الأهمّ من وجهة نظرنا أن نوفّر للباحثين والدارسين والأكاديميين العرب خريطة واضحة المعالم للمسألة الرئيسية المتعلقة بصلة اللغة بالثقافة.

وهي دعوة للبحث والتمحيص موجّهة للمهتمين بهذه المسائل، راجين أن يجدوا في هذا الكتاب المتعة والمنفعة، والله من وراء القصد.

الدوحة مارس 2010

د. مرزوق بشير مرزوق

مدير إدارة البحوث والدراسات الثقافية

فهرس المحتويات

الجزء الأول: نظرة عامة

الفصل الأول

علاقة اللغة بالثقافة

الفصل الثاني

المعنى بوصفه علامة

الفصل الثالث

المعنى بوصفه فعلاً

الفصل الرابع

اللغة المنطوقة والثقافة الشفهية

الفصل الخامس

اللغة المطبوعة والثقافة الكتابية

الفصل السادس

اللغة والهوية الثقافية

الفصل السابع

قضايا متداولة

الجزء الثاني

الجزء الثالث

تصـدير

بقلم المحـرر

حظي علم اللغة بالكثير من النصوص التي قدمت اللغة إلى القارئ: وهي نصوص شارحة ومفسرة، وشاملة، وجديرة بالثقة، ووافية بالغرض، وممتازة في طريقة عرضها للموضوع. وهي في ذات الوقت نصوص تتسم بالأكاديمية؛ أي تهدف إلى التعمق في علم اللغة، ولذلك تتصف بالإطالة. وكل هذه سمات تتسق وطبيعتها وتناسب أغراضها. ولكن من ناحية أخرى نجد أن هذه النصوص ترهب المبتدئ، وتنفره من دراسة اللغة ولا تشجعه. لذا فنحن نحتاج لمقدمة شاملة تتسم بالتدرج لفهم اللغة؛ أي نحتاج إلى نصوص انتقالية تعين الناس على فهم الأفكار المعقدة. وهذه السلسلة من الدراسات التمهيدية إنما أُخرجت خصيصاً كي تفي بهذه الحاجة.

من هنا لم يكن الهدف من هذه السلسلة هو إيجاد البديل عن الدراسات المتعمقة التي تختص بدراسة اللغة من الناحية الأكاديمية المتخصصة؛ وإنما كان الهدف هو التمهيد بمعنى إعداد الأرضية المفاهيمية لمثل هذه الدراسات المتخصصة. كان دافعنا إلى ذلك اعتقادنا أن المنفعة لابد أن تتحقق إذا حصلنا على خريطة واضحة تحدد معالم المنطقة التي وضعنا خطوطها العامة قبل أن يبدأ الباحث في دراسة ملامحها الدقيقة: مخطط عام يضفي المعنى فيما بعد على التفاصيل الدقيقة. ففي كثير من الأحيان يجد الطلاب والباحثون أنفسهم وقد انغمسوا في النظر في التفاصيل دون الإلمام المطلوب بالموضوع الأساس الذي خاضوا فيه. ومن المعروف أن الإلمام العام بالأفكار لا يكفي؛ لأنه لا يغني عن المعرفة المتخصصة بها. ولكن المعرفة المتخصصة أيضاً قد

تكون سبباً في فقدان القدرة على التمييز، ولا معنى لها إذ لم تكن متصلة الوشائج بالنظرة الشاملة للموضوع. نستطيع القول إن شرط الدراسة الأكثر تعمقاً هو الوعي بما نقصده بالمصطلحات الأولية. وهذا الكتاب وغيره من كتب هذه السلسلة إنما يهدف إلى تزويد الباحث بهذه النظرة الشاملة في كل حقل من حقول الدرس اللغوي. ومن هذا المنطلق تصبح الدراسات التي تصدر عن هذه السلسلة بمثابة التمهيد (أو الشرط المسبق) لدراسات أكثر عمقاً وتخصصاً لمن ينوي من طلاب اللغويات القيام بها.

وليس الهدف من هذه السلسلة من الكتب أن تكون عوناً لدارسي اللغويات فحسب؛ فمن الناس من يهتم باللغة دون أن تكون اللغة تخصصه الأكاديمي، ويدرك أهمية اللغة بالنسبة لمجال تخصصه، أو يعرف أنها قد تزيد وعيه بشيء يعده من الأمور المهمة في حياته اليومية. وإذا كان لدى اللغويين ما يقولونه عن اللغة: أشياء كاشفة وذات صلة بالموضوع، فإن هناك آخرين في مجالات أخرى غير اللغويات يمكنهم أن يدلوا بدلوهم. لقد أردنا لهذه الكتب أن تتسع لأولئك وهؤلاء جميعاً؛ وأن تقدم اللغة لغير المتخصصين، فضلاً عمن يسعون إلى اتخاذ اللغويات تخصصاً ومنهجاً.

لقد أردنا إظهار بعض المصطلحات في فصول الكتاب فأبرزناها باللون الأسود في ثنايا الصفحات، وهذه المصطلحات هي ما يستخدمه علماء اللغة استخداماً خاصاً أو فنياً في منهجهم. ألقينا الضوء على هذه المصطلحات أثناء المناقشة، وقمنا كذلك بشرحها في مسرد خصصناه لهذا الغرض في آخر الكتاب.

هـ. د. وديسن

كلمة شكر

بقلـم المؤلفـة

ازداد اهتمامي بالعلاقة المتشابكة بين اللغة والثقافة بفضل طلاب الدراسات العليا بقسم اللغات التطبيقية بمدرسة التعليم العالي بجامعة كاليفورنيا فرع بيركلي، وكذلك بفضل الكثير من الباحثين ومدرسي اللغات في جميع أنحاء العالم. فأود أن أخص بالشكر من راجعوا مسودات هذا الكتاب وهم لندا فون هون وإيفا لام ومارجريت بيرو وستيف ثورن وجريتا فولمر وأشكر كذلك بت فاراجيو وثريا سابلو اللتين أمدتاني بمادة علمية استفدت منها في الفصل الأول. وأريد أن أشكر العاملين في مطبعة جامعة أكسفورد لتعاونهم وصبرهم.

و لم يكن هذا الكتاب ليظهر إلى النور لولا تشجيع هنرى وديسن وتوجيهه، لذا أخصه بأعمق معاني العرفان بالجميل إذ ساعدني في التركيز على وجهة النظر الشخصية جداً التي أقدمها هنا حول العلاقة بين اللغة والثقافة في الدراسات اللغوية. كما أهدي هذا الكتاب إلى أول أحفادي الذي ولد في بيت تتلاقى فيه سبع لغات وسبع ثقافات.

كلير كرامش
أستاذة اللغة الألمانية واكتساب اللغة
جامعة كاليفورنيا – فرع بركلي

الجــــزء الأول
نظـرة عـامة

الفصل الأول
علاقة اللغة بالثقافة

اللغة هي الوسيلة الرئيسة التي ندير بها حياتنا الاجتماعية، وعندما تُستَخدَم اللغة في سياقات التواصل تنعقد الصلة بينها وبين الثقافة في نواح كثيرة ومتشابكة.

يحسن بنا في البداية أن نقول إن الكلمات التي ينطق بها الناس تشير إلى خبرة مشتركة. وتستخدم هذه الكلمات في شرح وقائع أو أفكار أو أحداث قابلة للنقل؛ لأنها تشير إلى مخزون من المعرفة بهذا العالم يشترك فيه آخرون. تعكس الكلمات أيضاً مواقف كتابها ومعتقداتهم ووجهات نظرهم التي قد يشاركهم فيها آخرون أيضاً. تضطلع اللغة في الحالتين بالتعبير عن واقع ثقافي.

ولكن أعضاء مجتمع ما أو جماعة اجتماعية ما لا يكتفون بالتعبير عن خبراتهم، ولكنهم يقدمون خبراتهم للعالم حين يبعثون فيها الحياة من خلال اللغة؛ فهم ينقلون خبراتهم من خلال الوسيلة التي يختارونها من أجل التواصل بينهم عبر الهاتف – على سبيل المثال – أو من خلال الحديث المباشر أو بإرسال رسالة عبر البريد العادي أو الإلكتروني أو عند قراءة جريدة أو تفسير رسم بياني. إن الطريقة التي يستخدم بها الناس اللغة – منطوقة كانت أو مسموعة أو مكتوبة أو مرئية – تنشئ معانٍ يفهمها أعضاء الجماعة التي ينتمون إليها من خلال أسلوب المتحدث، مثلاً، ونبرة صوته وطريقته في المحادثة وإيماءاته وتعبيرات وجهه. إذن تجسد اللغة واقعاً ثقافياً من خلال جميع مظاهرها اللفظية وغير اللفظية.

في النهاية نقول: إن اللغة نسق من العلامات signs نعده ذا قيمة ثقافية لأن المتحدثين يعبرون عن هويتهم وهوية الآخرين من خلال استخدامهم لها. فهم يرون أن استخدامهم للغتهم رمزٌ لهويتهم الاجتماعية، ومنع استخدامها رفضٌ لهويتهم الاجتماعية وثقافتهم. وعليه يمكننا القول: إن اللغة ترمز إلى واقع ثقافي.

سنتناول في هذا الكتاب هذه المظاهر الثلاثة للغة والثقافة. ويحسن بنا في البداية أن نوضح ما نقصده بالثقافة؛ وقد يعيننا على توضيح هذا القصد النظر في القصيدة التالية لإملي دكنسون Emily Dickinson:

Essential Oils – are wrung –
The Attar from the Rose
Be not expressed by Suns – alone –
It is the gift of Screws –
The General Rose – decay –
But this – in Lady's Drawer
Make Summer – When the Lady lie
In Ceaseless Rosemary –

إننا نعصر الورد – كي نخرج العطر منه –
فالعطر الذي يخرج
ليس من هبة الشموس – وحدها –
إنه جهد الآلات أيضاً –
الورد – وحده قد يضيع –
ولكنه – في خزانة الحسناء
يصنع الربيع – بينما هي في سباتها
وكأن الورد حولها دائماً من كل نوع –

الطبيعة والثقافة واللغة

من الوسائل التي نستعين بها على فهم الثقافة culture مقارنتها بالطبيعة nature. فالطبيعة تحمل معنى الشيء الذي يولد وينمو من الناحية العضوية (وهي كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية nascere أي يولد)؛ كما تشير كلمة ثقافة إلى كل ما ينمو بعد الصقل (وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية colere التي تعني يصقل). ومن ثم تثير كلمة ثقافة الجدل التقليدي بين الطبيعة والتربية: هل تقوم الطبيعة بتقرير هوية البشر منذ لحظة الميلاد، أم أن الثقافة تلعب الدور الأهم في تحديد هويتهم من خلال التنشئة الاجتماعية [1] socialization والتعليم؟

إن قصيدة إملي دكنسون تعبر تعبيراً قوياً - بطريقتها الخاصة - عن العلاقة بين الطبيعة والثقافة واللغة. تقول القصيدة إن الوردة في أصلها ظاهرة من ظواهر الطبيعة، فهي "شيء عام general". إنها جميلة حقاً ولكن لا ماهية لها ولا اسم بين أخريات مثلها من جنسها، فهي فانية معرضة للنسيان. أما الطبيعة وحدها فلا تكشف ولا تحافظ على الجمال الخاص لوردة بعينها في وقت معين من الزمن. والوردة عاجزة عن أن تدفع عن نفسها الفناء البيولوجي والموت النهائي الذي هو المصير المحتوم للورود والحسان أيضاً. وكل ما تستطيع الطبيعة أن تفعله هو أن تحدث الربيع عندما يحين وقته. أما الثقافة، في المقابل، فليست مقيدة بوقت بيولوجي، إذ أنها هبة كالطبيعة سواء بسواء ولكنها هبة من نوع مختلف. الثقافة تجبر الطبيعة على أن تكشف عن إمكانياتها من خلال إجراء تكنولوجي معقد معد خصيصاً من أجل استخلاص الرحيق من الورود. إن كلمة screws توحي بأن هذه العملية لا تتم إلا بجهد شاق. جزء من الوردة يضيع عند عصر البتلات، وهذا الجزء فاقد لابد منه للحصول على رحيقها. فالتقانة التي يستخدمها البشر هي

التي تُخضِع وفرة الطبيعة وغزارتها للتقنين. وفي المقابل هناك تقانة الكلمة، أو تقانة التركيب اللغوي أو المفردات المطبوعة على الورق، فهي تختار من بين المعاني الكثيرة التي قد تحملها الوردة تلك المعاني التي تعبر أحسن تعبير عن أعمق خصائصها وتسكت عن الخصائص الأخرى. أي أن الثقافة تصنع من بتلات الورود عطراً نادراً يباع بثمن غال من أجل الاستخدام الشخصي النادر لحسناء نادرة. قد تفنى السيدة ولكن عبير الوردة الذي استخدمته قد يمنحها الخلود، مثلما تفعل لغة القصيدة بالوردة والحسناء كليهما. إن لغة القصيدة تمنح الخلود للوردة والسيدة وتعيدهما للحياة في خيال القراء. وفي الواقع فإن هذه القصيدة التي تركتها مؤلفتها في درج مكتبها لقارئ المستقبل يمكن أن تجلب "الربيع" للقراء حتى بعد فناء الشاعرة نفسها. لقد منحت الكلمة وتقانة الكلمة الخلود للطبيعة.

وتعد القصيدة نفسها دليلاً على أن الطبيعة والثقافة لا غنى لإحداهما عن الآخر. فما كان للقصيدة أن توجد من الأصل لولا وجود الورد في الطبيعة، وما كان لأحد أن يفهم القصيدة لو لم تشارك قراءها بعض الفرضيات والآمال المشتركة عن حدائق الزهور، والمنجزات التكنولوجية، والخواطر الهامة الخاصة بالحسان والورد والعطور، وذكريات مشتركة عن مواسم الربيع الماضية، ولحظات من الحنين المشترك للخلود، ومعرفة مشتركة بالكلمة المطبوعة، واستخدامات اللغة الإنكليزية على المستوى الشعبي والأدبي. إن هذه الآمال الجماعية المشتركة، شأنها في ذلك شأن التقانة التي أدت إلى استخراج العطر من بتلات الورود، يمكنها أن تحرر الوردة من قيود الطبيعة؛ لأنها تهب المعنى الخاص للوردة الرمز من خلال فرض بنية محددة على الطبيعة، إذا جاز لنا القول. ولكن هذه الآمال المشتركة نفسها يمكن أن تكون مصدراً لقيود تجلبها معها؛ فالجماعة اللغوية speech community تتبنى معانٍ محددة تفرضها على أعضاءها الذين يجدون بدورهم صعوبة، بعد ذلك، في الشعور

بشيء جديد عن الورود، أي شيء لا يعتمد، في تصورهم، على فرضيات الجماعة اللغوية التي ينتمون إليها. ولنضرب لذلك مثلاً بباقة الورد: فبعد أن استخدمتها الجماعة اللغوية علامة على التعبير عن الحب أصبح الأمر مثار خلاف أو أصبح ينطوي على مجازفة بالنسبة للعاشقين حين يعبرون عن عشقهم دون الرجوع إلى الرموز التي فرضها عليهم مجتمعهم، وحين يهدي الواحد منهم الآخر - كعلامة على الحب مثلاً - زهرة الأقحوان التي يدخرها الألمان - على سبيل المثال - للتعبير عن الفقد والموت. إن الثقافات الشفاهية والثقافات الكتابية تمتلك وسائلها الخاصة التي تستخدمها في تحرير أو تقييد أعضاء تلك الثقافات. وسوف نتناول تلك الاختلافات بين الثقافة الشفاهية والثقافة الكتابية فيما يلي من فصول.

تتوازى القيود التي تفرضها اللغة والثقافة على الطبيعة مع أشكال مختلفة من التنشئة الاجتماعية أو المثاقفة acculturation، ويتشكل سلوك الفرد أيضاً - وهو ينشأ على الآداب الاجتماعية واللغة المهذبة - من خلال الأوامر والنواهي التي يقرها المجتمع ويتعلمها الطفل في بيته، والطالب في مدرسته، والعامل في محل عمله. وتؤثر الثقافة بدورها على استخدام اللغة المطبوعة؛ فهي التي تمنح اللغة المطبوعة بعداً اجتماعياً. وتمنح الأعراف الثقافية النص جواز المرور إلى القارئ؛ فالمهم ليس ما نكتبه أو لمن أوفي أية ظروف، ولكن المهم هو نوع النص الذي نقدمه (كأن يكون استمارة تقديم، أو رسالة تجارية، أو مذكرة سياسية) أي نص تسمح به الأعراف الثقافية للمجتمع. وهذه الأشكال التي تتم داخل اللغة، أو التي نسميها أشكال التفاعل والتفسير، إنما تشكل جزءاً من الطقس اللامرئي الذي تفرضه الثقافة على مستخدمي اللغة. هذه هي طريقة الثقافة في إسباغ النظام على استخدام اللغة والتنبؤ بهذا الاستخدام.

مجتمعات مستخدمي اللغة

كان من ثمار مجتمعات مستخدمي اللغة ظهور أعراف ومعايير المواءمة الاجتماعية social appropriateness. وفي قصيدة دكنسون نجد أن الشعراء، والقراء، وبائعي الورود، والعاشقين، وعلماء البساتين، ومصانع استخراج العطور من الورد، وصانعي العطور، ومستخدمي العطور ينتجون المعاني من خلال كلماتهم وأفعالهم. الثقافة إذن تخلص الناس من لاذاتية الطبيعة وعفويتها وفوضويتها، أو لنقل تخلصهم من إحساسهم بتجاهل الطبيعة لوجودهم، وتقيدهم في الوقت نفسه حين تفرض عليهم نظاماً و قواعد انتقاء. ويتبدى هذا التأثير المزدوج للثقافة على الفرد – وهو تأثير يساعد على تحرره وتقييده في الوقت نفسه – على الأصعدة الاجتماعية والتاريخية والرمزية. والآن لنقم بدراسة هذه الأصعدة كلٍ على حدة.

ينتمي بعض الناس إلى جماعة اجتماعية بعينها (أسرة أو جوار أو جماعة عرقية أو مهنية أو حتى أمة) وهؤلاء الأعضاء في الجماعة الاجتماعية المعينة يكتسبون وجهات نظر مشتركة نحو العالم من خلال تفاعلهم مع أعضاء آخرين من الجماعة نفسها. وتزداد وجهات النظر هذه قوة من خلال مؤسسات اجتماعية معينة مثل: الأسرة، والمدرسة، ومحل العمل، ودور العبادة، والحكومة، والمواقع الاجتماعية الأخرى في جميع مراحل الحياة. يعكس استعمال أعضاء الجماعة الاجتماعية للغة مواقفهم ومعتقداتهم وقيمهم المشتركة، ويتجلى ذلك فيما يتفقون على قوله أو ما يرغبون عن الإفصاح عنه، وكذلك في الكيفية التي ينجزون بها حديثهم. ومن ثم، فبالإضافة إلى فكرة الجماعة اللغوية التي تتألف من أفراد يشتركون في استخدام شفرة لغوية واحدة، بوسعنا أن نطرح فكرة مجتمعات الخطاب discourse communities للإشارة إلى الأساليب المشتركة التي تميز استخدام أعضاء جماعة اجتماعية واحدة للغة بالشكل

الذي يفي بحاجاتهم الاجتماعية. وليس ما يميز استخدامهم للغة عن غيرهم هو الملامح النحوية والمعجمية والصوتية للغتهم فحسب (كما الشأن في خطاب المراهقين ولغة المهنيين ولغة السياسيين)، ولكن ما يميز استخدامهم للغة عن غيرهم هو اختيارهم للموضوعات التي يتناولونها في حديثهم، والطريقة التي يقدمون بها هذه المعلومات، والأسلوب الذي من خلاله يتفاعلون، وباختصار كل ما يمكن أن نسميه لُكْنة الخطاب discourse accent. ولنضرب لذلك مثلاً الفرق بين الأمريكيين والفرنسيين في استخدامهم لعبارة "شكراً لك،" حيث يستخدمها الأمريكيون للرد على أية تحية أو مجاملة أو إطراء وكأنهم يعبرون عن امتنانهم لشخص منحهم شيئاً؛ فيقول أحدهم للآخر: يعجبني قميصك! فيرد ذلك الآخر بقوله: "أوه، شكراً لك!" أما الفرنسي الذي ينزع إلى أن يرى في مثل هذه المجاملة تعدياً على حريته الشخصية فإنه يعمل على التقليل من شأن المجاملة ويسعى للحط من قيمتها فيكون رده: "أوه حقاً؟ إنه قديم جداً!" وينشأ رد الفعل عند الجماعتين من اختلاف درجة أهمية المجاملة بالنسبة للناس في كلتا الثقافتين ودرجة الارتباك التي تسببها مثل هذه التعليقات الشخصية عند كلم منهما.

يحسن بنا أن ننظر إلى الثقافة من منظور آخر أكثر صلة بالتاريخ. فالاتجاهات الثقافية التي يمكن تحديدها في وقت معين قد نمت ورسخت مع الزمن، وهذا ما يجعلها تتخذ شكل السلوك الطبيعي. ولقد رسخت في وجدان أعضاء الجماعة الاجتماعية الذين سمعوها ومارسوها في البداية وأورثوها لأجيال تالية من خلال الحديث أو الكتابة عنها. فعندما تشير إملي دكنسون على سبيل المثال إلى الحياة بعد الموت إنما تتأسس إحالتها على الأمل في أن أجيال المستقبل من القراء سوف تفهم القيمة الاجتماعية لعطر الورد والطقس الجنائزي الذي يقضي بأن يحاط الميت بالنباتات العطرية. وتفضي ثقافة الممارسات اليومية في النهاية إلى ثقافة التاريخ المشترك والعادات المشتركة؛

فالناس ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أعضاء في جماعة اجتماعية ومن حقهم أن يتخذوا لأنفسهم مكاناً في تاريخ هذا المجتمع، كما أنهم يتفقون على الطريقة التي يتذكر بها هذا المجتمع ماضيه، ويحول بها انتباهه إلى الحاضر، ويستشرف بها المستقبل. تتألف الثقافة بالضبط من هذا البعد التاريخي في هوية الجماعة. وتنصب هذه النظرة التاريخية للثقافة على الطريقة التي تقدم بها جماعة اجتماعية ما نفسها والآخرين من خلال ما تنتجه عبر الزمن من تقانة وآثار فنية وثقافة شعبية مما يؤكد تطور هويتها التاريخية. وتعمل الآليات المؤسساتية التي هي أيضاً جزء من الثقافة على إعادة إنتاج هذه الثقافة المادية والمحافظة عليها، ومن هذه الآليات المتاحف والمدارس والمكتبات العامة والحكومات والنقابات ووسائل الإعلام؛ فبرج إيفل ولوحة الموناليزا موجودان في الواقع بوصفهما أعمالاً فنية مادية ولكن الذي أبقى عليهما إلى الآن ومنحهما الشهرة في السوق الثقافية هو ما يقوم به الفنانون وهواة جمع اللوحات الفنية والشعراء وكتاب الرواية وشركات السياحة والمرشدون السياحيون. فاللغة شفرة لا يمكن فك طلسمها بعيداً عن الثقافة؛ لأنها ليست مقطوعة الصلة عن طريقة تفكير الناس وتصرفاتهم، ولكنها تلعب الدور الأهم في تخليد ثقافة المجتمع بالأخص في شكلها المكتوب.

المجتمعات المتخيلة

يطلق على البعدين: الاجتماعي (الآني) والاجتماعي التاريخي (التعاقبي)[2] للثقافة اسم السياق الاجتماعي الثقافي sociocultural context لدراسة اللغة. وبالإضافة إلى هذين البعدين يوجد بعد ثالث جوهري هو ما نطلق عليه الخيال أو التصور. فمجتمعات اللغة لا تتمايز بما تنتجه من أعمال فنية وصناعية فحسب، وإنما تتمايز بالأحلام المشتركة أيضاً، وبما تحققه هذه المجتمعات

وما لم تحققه من تصوراتها حول الحاضر والمستقبل. وهي تصورات نقلتها اللغة التي تعمل على صياغة الواقع الثقافي لتلك المجتمعات وتعكسه وتصبح رمزاً له. فمدينة لندن على سبيل المثال ليست منقطعة الصلة – على صعيد التصور الثقافي لقاطنيها – عن شكسبير ودكنز. ولقد اكتسب النصب التذكاري للرئيس لنكولن في واشنطن معانٍ إضافية عندما وقف مارتن لوثر كنج عام 1963 بين يديه، وألقى كلمته الشهيرة التي استهلها بقوله: "لدي حلم... ". أما ورد الحدائق فقد نال الخلود في وجدان الفرنسيين بفضل قصائد الشاعر رونسار.[3] وليست اللغة وثيقة الصلة بثقافة الحاضر وثقافة الماضي فقط، وإنما تتصل أيضاً بثقافة الخيال أو أعمال الخيال التي تحكم قرارات الناس وأفعالهم تجاه المستقبل بطريقة تفوق التصور.

المواطنون / الدخلاء

ولكي يحدد الناس هوياتهم كأعضاء في مجتمع ما فإنهم يصفون أنفسهم بالمواطنين للتمييز بينهم وبين الآخرين الذين يصفونهم بالدخلاء أو الأجانب. وتستوجب الثقافة دائماً – بوصفها عملية إقصاء واستقطاب في الوقت نفسه – ممارسة قوة وضبط. فمعصرة الورد في قصيدة دكنسون تُخْرِج لنا عطراً ذكياً ولكن بعد جهد كبير. فلا تنتهي العملية عند التخلص من السيقان والبتلات، وإنما الغني القادر فحسب هو الذي يستطيع شراء العطر. ومن ثم يمكننا القول بأن القوي القادر فقط هو الذي يقرر القيم والمعتقدات التي يجب أن تسود في جماعة ما، والأحداث التاريخية التي تستحق الاحتفال بها، وكذا المستقبل الذي يستحق أن تتصوره هذه الجماعة وتحلم به. إن الثقافات – ولاسيما الثقافات القومية – تُرَجِّع صدى أصوات الأقوياء وتمتلئ بصمت العجزة. الأقوياء والصامتون يساهمون في تشكيل ثقافتهم وثقافة الآخرين.

ويصف إدوارد سعيد كيف كوَّن الفرنسيون لأنفسهم رؤية خاصة بثقافة الشرق استقوها مباشرة من كتابات شاتوبريان ونرفال وفلوبير وغيرهم وهي كتابات تصب – كما يقول – في مجرى تعزيز الإحساس بتفوق الثقافة الأوربية. أما صوت الشرق نفسه فغير مسموع في هذه الكتابات. ويقول إدوارد سعيد إن مثل هذا الاستشراق orientalism (هذه النظرة للشرق) كان لها – وما زال – أبعد الأثر في الطريقة التي ينظر بها الأوربيون والأمريكيون للشرق الأوسط، فضلاً عن سعيهم لفرض هذه النظرة على أهل الشرق أنفسهم وهم الذين أذعنوا لها إذعاناً تاماً حين راحوا ينظرون إلى أنفسهم من خلال نظرة الغرب إليهم. ولهذا نجد الباحثين في دراسات النوع ودراسات العرق ودراسات الشذوذ الجنسي (المثليين) قد أظهروا جميعاً آثار السيطرة التي تمارسها الثقافات الغالبة والنفوذ الذي تمارسه هذه الثقافات في تمثيل الآخر والتعبير عنه. وفي النهاية نجد أن دراسة الثقافة دراسة جادة تعني بدراسة الأساس نفسه الذي يعتمد عليه المرء في تفكيره والإذعان لقبول حقيقة مفادها: أن المعرفة نفسها ليست خالصة نقية وإنما تأتي مصبوغة بالسياق الاجتماعي والتاريخي الذي كان سائداً حين اكتسبها الناس، وهو السياق الذي من خلاله انتشرت وتبعثرت في الآفاق. وبهذا تصبح دراسة اللغة نشاطاً ثقافياً قبل كل شيء.

تأسيساً على ما تقدم نجد أن دراسة اللغة تستوجب دائماً الحديث عن مسألة التمثيل representation عند النظر في ثقافة أخرى: من يتحدث بلسان من؟ ومن يتمثل من باللغة المنطوقة أو المكتوبة؟ من يملك حق اختيار ما يمثل ثقافة معينة: هل هو الدخيل الذي يراقب ويدرس تلك الثقافة أم هو المواطن الذي يعيش هذه الثقافة ويختبرها؟ وما هي المعايير التي نحكم – من خلالها – بأن هذا الملمح الثقافي يمثل هذه الثقافة؟ ومن هو صاحب هذه المعايير؟

في واقع الأمر تتسم الثقافة بتغاير الخواص في أبعادها الاجتماعية والتاريخية والمتخيلة أيضاً؛ فقد يكون لكل عضو من أعضاء لمجتمع خطاب

معين، وسيرة حياة مختلفة وخبرات حياتية مختلفة، وقد يختلف هؤلاء الأعضاء في السن والنوع والعرق، وقد يعتنقون آراءً سياسية مختلفة. أكثر من ذلك نجد أن الثقافات تتغير مع الزمن؛ نرى ذلك في الصعوبة التي يختبرها القراء المعاصرون عند قراءة قصيدة دكنسون: ولا شك أن فكرة النساء في القرن التاسع عشر عن العالم وأحواله تختلف عن فكرة القراء في نهاية القرن العشرين. ثم إن الثقافات ليست متغايرة الخواص ودائمة التغير فحسب، ولكنها أيضاً مضمار صراع من أجل السلطة وإثبات الذات كما سنرى في الفصل السابع.

باختصار يمكن تعريف الثقافة على أنها نشاط مجموعة أعضاء في مجتمع خطاب يشارك أعضاؤه في مكان وتاريخ وتصورات اجتماعية مشتركة، حتى عندما يغادر هؤلاء الأعضاء مجتمعهم فإنهم يستعيدون نسق عام من معايير الإدراك والاعتقاد والتقييم والتصرف، وهذه المعايير هي ما نسميه بصفة عامة ثقافتهم.

وتلقي قصيدة إملي دكنسون الضوء على الخصائص المتعددة للثقافة ومنها:

1- الثقافة نتاج التدخل الإنساني في العمليات البيولوجية للطبيعة.

2- الثقافة تحرر وتقيد في آن؛ إنها تحرر لأنها تستثمر عفوية الطبيعة بإضفاء معنى ونظام وعقلانية على هذه الطبيعة وتحميها من الفوضى، وتقيد لأنها تفرض على الطبيعة بنية ليست منها كما إنها تحد من مجال المعاني الممكنة التي أبدعها الفرد.

3- الثقافة نتاج مجتمعات خطاب لها ظروف اجتماعية وتاريخية خاصة، وهي إلى حد كبير مجتمعات تصورية خلقتها وشكلتها اللغة.

4- تمثل لغة أي مجتمع وإنجازاته المادية ميراثاً اجتماعياً ورأس مال

رمزي يعمل على إطالة أمد علاقات القوة والهيمنة، وتميز المواطنين عن الدخلاء.

5- ولكن لأن الثقافات في الأصل متغايرة الخواص وفي تغير دائم، فإنها تشكل مضماراً للصراع الدائم من أجل إثبات الذات وتحقيق شرعية الوجود.

يطرح اختلاف النظر إلى الثقافة وعلاقتها باللغة سؤالاً أساسياً وهو: إلى أي حد تشكل اللغة التي يستخدمها أعضاء جماعة ما نشاطهم العقلي وآراءهم في العالم من حولهم؟ لقد استخدمت مصطلح النسبية اللغوية linguistic relativity[4] وأطلقته على الفرضية التي تزعم بأن اللغات تؤثر في عمليات الفكر التي يقوم بها من يستخدم هذه اللغات.

النسبية اللغوية

اهتم فقهاء اللغة وعلماؤها، منذ القرن الثامن عشر، بتنوع لغات البشر ومعانيها. وكان اكتشاف العلماء الأوربيين للغات الشرقية كالسانسكريتية، والتمكن من فك رموز اللغة المصرية القديمة في نهاية القرن الثامن عشر قد تواكب، بالمصادفة، مع إحياء النزعة القومية في أقطار مثل فرنسا وألمانيا. وصاحب ذلك اهتمام متزايد بالصفات الثقافية المتفردة للغاتهم القومية. وكان للفكرة التي تبناها علماء ألمان مثل جوهان هردر Johann Herder (1744 - 1803) ووفلهلم فون همبولد Wilhelm von Humboldt (1762 - 1835) التي تنادي بجواز فصل اللغة عن الثقافة – وهي فكرة غير عملية على أية حال – نشأت جزئياً كرد فعل للهيمنة الفرنسية السياسية والعسكرية في ذلك الوقت. كما كان لهذه الفكرة دور كبير في لفت الأنظار إلى الأهمية الكبرى لتنوع لغات العالم وثقافاته. خرج هؤلاء العلماء بنتيجة معناها أن الشعوب

المختلفة إنما تنطق بلغات مختلفة لأن لغاتها تفرض عليها أنماطاً مختلفة من التعبير عن أحوال العالم من حولهم (ومن ثم نشأت فكرة النسبية اللغوية). وقد أعاد عالم اللغة الأمريكي فرانس بوز (1942 - 1885) Franz Boas طرح هذه الفكرة من جديد ومن بعده إدوراد سابير (1884-1939) وتلميذه بنيامين لي ورف (1897-1914) في بحوثهم التي أجروها حول اللغات الأمريكية الهندية، وأصبحت آراء ورف حول الاعتماد المتبادل للغة والفكر تعرف بنظرية سابير – ورف Sapir – Whorf hypothesis.

نظرية سابير- ورف

تزعم نظرية سابير – ورف أن بنية اللغة التي يستعملها الفردُ في العادة تؤثر على الطريقة التي يفكر بها ويتصرف تبعاً لها. ويروى ورف حادثة طريفة اشتهرت فيما بعد؛ وهي أن أحد مثمني تأمين أخطار الحرائق لاحظ أثناء عمله أن الطريقة التي يتصرف بها الناس نحو الأشياء تتصل في الغالب اتصالاً وثيقاً بالطريقة التي يسمون بها الأشياء. ومثال ذلك أن رؤية كلمة EMPTY أي 'فارغ' على اسطوانات الغاز يشجع المارة على إلقاء أعقاب السجائر في هذه الاسطوانات دون أن يدركوا أن بقايا الغاز في قاع اسطوانة قد تتسبب في حدوث انفجار. فكلمة "فارغ" تدل بالإنكليزية في واقع الأمر على وجود فراغ لا ينطوي على خطر. ويصل ورف إلى نتيجة مفادها أن الناطقين باللغة – في اللغات المختلفة – تختلف أفعالهم لأن اللغة هي التي تحدد طريقة إدراكهم للأشياء فضلاً عن الطريقة التي يصنفون بها خبراتهم.

ولاحظ ورف أن الناطقين بالإنكليزية يعتقدون أن الزمن عبارة عن تسلسل خطي لأحداث يدل عليها نسق يتكون من ماض وحاضر ومستقبل (مثل: جرى ويجري وسوف يجري) أو عدد صحيح من الأيام (عشرة أيام مثلاً)، بينما

لاحظ أن أبناء قبائل الهوبي Hopi[5] يعتقدون أن الزمن تكثيف وتواصل، وأن كثافة الزمن وعدم انقطاعه أثناء الفعل هما الأهم في التعبير عن خبرة الحياة. (فعبارة He ran مثلاً هي خبرية تشير إلى واقع حدث، warikni أي أنها جملة إخبارية في الماضي.) ومثل ذلك "مكثوا عشرة أيام" تصبح في لغة الهوبي "مكثوا حتى اليوم الحادي عشر" أو "غادروا بعد اليوم العاشر."

ويصر ورف على أن اللغة الإنكليزية تقيد الناطقين بها بوجهة النظر النيوتونية (نسبة إلى إسحق نيوتن) التي ترى الزمن قابلاً للتصنيف والتعريف والتسجيل والتحديد والتأريخ والتقطيع بحيث يمكن تحويل الواقع إلى أجزاء زمنية. حسب هذه النظرية لا يمكن النظر إلى الزمن على أنه دائري أو أنه كلٌ متكامل. وعلى النقيض من ذلك لا ينظر أبناء الهوبي إلى الزمن في لغتهم على أنه مسافة زمنية يمكن قياسها، بل هو علاقة بين حدثين من ناحية مدة الحدوث؛ أي نوع من الحدوث يشار إليه بطريقة موضوعية بوصفه (استمرار duration) وبطريقة ذاتية بوصفه (تكثيف intensity). ولا تضمن لغة الهوبي - في رأي ورف - شيئاً بشأن الزمن غير التعبير عما حدث في الماضي، ومن ثم يصبح من الصعب أن يفهم طبيب إنكليزي طبيباً آخر من أبناء الهوبي بسبب الاختلاف الكبير بين لغتيهما. وبالرغم من إمكانية نقل المعلومات من لغة إلى أخرى تبقى دائماً أشياء تستعصي على النقل أو القياس وهذه الأشياء ثقافية تتعلق ببنية لغة معينة.

تعرضت نظرية سابير- ورف لجدل عنيف منذ أذاعها ورف في عام 1940. فعندما افترض ورف، ولو بنحو غير مباشر، أن المصداقية العالمية للاكتشافات العلمية رهن باللغة التي عبرت عنها، جُوبه مباشرة بازدراء المجتمع العلمي وصده. لم يكن المناخ العلمي الذي سادت فيه الوضعية المنطقية في ذلك الوقت يسمح بمجرد الإشارة إلى أن اللغة هي التي تحدد الفكر وليس العكس. لم يكن أحد ليقبل بفكرة أننا سجناء لغتنا، ولم يكن أحد ليقبل بأن

أبناء الهوبي ليس بمقدورهم المساهمة في الفكر العلمي الحديث لأن لغتهم لا تسعفهم في ذلك، أو لأنهم قد يصطدمون بفكرة الزمن النيوتوني عندما يتعلمون الإنكليزية. ويلاحظ الباحث هنا كيف تنتهي نظرية ورف في نسبية اللغة بسهولة إلى التحيز والتشيع لجنس دون الآخر. وعلى كل حال نستطيع أن نقول إن الترجمة من لغة إلى أخرى ممكنة دون ريب، ولو لم يكن الأمر كذلك ما استطاع ورف نفسه الكشف عن الطريقة التي يفكر بها أبناء قبائل الهوبي. ويكشف لنا هذا أن الصلة بين بناء لغوي معين ووجهة نظر ثقافية عالمية هي صلة تعسفية في الواقع، ويجب أن ننظر إليها على أنها تعسفية.

لقد عادت النسبية اللغوية تطرح نفسها من جديد بعد خمسين عاماً من ظهور نظرية ورف، وبعد النهضة التي حققتها العلوم الاجتماعية مما جعل ترجمة ثقافة إلى لغة ثقافة أخرى أمراً ممكناً. ولكن الجدل الذي كان محتدماً في وجه القائلين بعدم التكافؤ بين الثقافات لم يكن مقنعاً كما كان يبدو في السابق؛ فالصعوبة التي قد يواجهها المتحدثون من لغات مختلفة في فهم بعضهم البعض الآخر لا يمكن ردها إلى صعوبة الترجمة بين لغاتهم؛ لأن الترجمة ممكنة على الأقل في حدها الأدنى. ولكن السبب يكمن في أنهم لا يتقاسمون الطريقة نفسها في النظر إلى الأحداث وتفسيرها، ولا يتفقون فيما بينهم على معانى المفاهيم والقيم التي تقوم الكلمات على خدمتها. باختصار فهم لا يُجَزِّئون الواقع ولا يُصَنِّفون الثقافة بالطريقة نفسها؛ لأن الفهم عبر اللغات لا يستند على المعادلات البنيوية ولكنه يعتمد على أنساق مشتركة من المفاهيم التي نشأت من السياق الأوسع لخبراتنا.

من ثم لا يمكننا أن نأخذ نظرية ورف الراديكالية، التي تزعم أن اللغة تحدد طريقتنا في التفكيرعلى أنها لا تقبل الجدل. ورغم هذا فهناك من خفف من حدة هذه النظرية وخرج بنظرية أقل شيوعاً ولكنها تستند على نتائج بحثية خلصت إلى وجود اختلافات ثقافية في العلاقات الدلالية التي تستدعيها

مفاهيم تبدو مشتركة في ظاهرها. وتزعم هذه النظرية أن الطريقة التي تحول بها اللغة الخبرة إلى رموز دلالية لا تجعل هذه الخبرة متاحة إلا لفئة خاصة من الناس.

نضرب لذلك مثلاً أطفال قبائل النفهو Navajo[6] الذين يتحدثون لغة ترمز إلى فعل التقاط جسم مستدير مثل الكرة أو ما شابه ذلك بطريقة مختلفة - من خلال منظومة من الأفعال تختلف عما ترمز به إلى فعل التقاط جسم طويل نحيف مرن مثل الحبل أو ما شابه ذلك. فإذا افترضنا أن أمامنا حبلاً أزرق وحبلاً أصفر وعصا زرقاء وطلبنا من الأطفال أن يختاروا من بينها ما يناسب الحبل الأزرق، فإن أطفال النفهو الذين لا يتحدثون غير لغة واحدة سيختارون الحبل الأصفر؛ لأن الأشياء ترتبط في أذهانهم بأشكالها المادية، بينما سيختار الأطفال الناطقين بالإنكليزية - الذين لا يتكلمون غير لغة واحدة - العصا الزرقاء لأن الأشياء ترتبط في أذهانهم بلونها رغم أن أطفال الفريقين - بطبيعة الحال - قادرون على التمييز بين الألوان والأشكال.

يعتقد العلماء أن هذه التجربة تظهر الجانب الضعيف في نظرية ورف التي تزعم أن مستخدمي اللغة يميلون إلى تصنيف تجاربهم وتمييزها بطريقة مختلفة حسب المقولات الدلالية التي وصلت إليهم من خلال الشفرات[7] الخاصة بكل لغة. بينما تبين التجربة أيضاً أن كل ما ورد في الشفرة اللغوية لا يمكن فهمه إلا من خلال السياق البراجماتي الأوسع لخبرة الناس. فطفل النفهو الذي يتعلم الإنكليزية قد يبدأ في تصنيف التجربة في لغة النفهو بالطريقة نفسها التي يصنف بها الطفل الإنكليزي تجربته في لغته. وهكذا فإن المعاني الدلالية الشاملة للشفرة التي استقرت عبر الزمن داخل مجتمع خطاب معين تعد هدفاً للاستخدامات المتباينة والمتغيرة دوماً في السياقات الاجتماعية. لسنا إذن سجناء المعاني الثقافية التي تطرحها لغتنا، ولكن وفي وسعنا أن نثري هذه المعاني في تفاعلاتنا الذرائعية مع مستخدمي لغة أخرى.

خــلاصة

لا تزعم نظرية النسبية اللغوية أن البناء اللغوي يحد من تفكير الناس وفهمهم للأشياء، ولكنها تزعم أن البناء اللغوي يؤثر فيما يفكر فيه الناس وما يفهمونه بشكل منتظم. ومن ثم يمكن القول إن نظرية سابير ورف قد انتهت إلى فهمين هامين:

1- يتلخص الفهم الأول في أن هناك اعترافاً في الوقت الراهن بأن اللغة، بوصفها شفرة، تعكس هموم ثقافية وتضع قيوداً على الطريقة التي يفكر بها الناس.

2- ويتلخص الفهم الثاني في أننا نقر – أكثر مما كان يقر به ورف في أيامه – بأهمية السياق في إتمام المعاني التي تنطوي عليها الشفرة اللغوية.

هذا ويرتبط الفهم الأول بالثقافة بوصفها مشفرة دلالياً في اللغة نفسها. بينما يتعلق الفهم الثاني بالثقافة كما تتجلى في الاستخدام الفعلي للغة.

مراجع الفصل الأول

(1) JOHN J. GUMPERZ and STEPHEN C. LEVINSON (Eds.): Rethinking Linguistic Relativity. Cambridge University Press 1996.

(2) WILHELM VON HUMBOLDT: On Language: the diversity of human language-structure and its influence on the mental development of mankind. (Tr. Peter Heath). Cambridge University Press 1988 [1836].

(3) GEORGE LAKOFE: Women, Fire, and Dangerous Things, What Categories Reveal About the Mind. University of Chicago Press 1987.

(4) EDWARD SAID: Orientalism. Vintage 1979.

(5) EDWARD SAPIR: Selected Writings of Edward Sapir in Language, Cultures, and Personality. Edited by David G. Mandelbaum. University of California Press 1949.

(6) EMILY A. SCHULTZ: Dialogue at the Margins. Whorf, Bakhtin and Linguistic Relativity. University of Wisconsin Press 1990.

(7) BENJAMIN LEE WHORF: Language, Thought and Reality: Selected writings of Benjamin Lee Whorf. Edited by John B. Carroll. M.L.T. Press 1956.

الفصل الثاني
المعنى بوصفه علامة

يتحقق المعنى في اللغة من طريقين أساسين، وكلاهما مرتبط بالثقافة: الأول ما تعنيه الألفاظ أو ما تشير إليه على أنه علامة مشفرة encoded sign (علم الدلالة semantics) والطريق الثاني ما تحدثه اللغة من فعل داخل سياق ما (الذرائعية pragmatics). ونركز في هذا الفصل على طريقة إنتاج اللغة للمعنى بوصفها علامة مشفرة.

العلامة اللغوية

يتميز الإنسان عن الحيوان بخاصية أساسية هي قدرته على إنتاج علامات يستعين بها على التواصل بينه وبين بيئته. وتستخدم كل ممارسة لإنتاج المعنى عنصرين هما الدال signifier والمدلول signified. وبالتالي نجد – على سبيل المثال – أن الصوت الذي ننطق به كلمة rose وهو "rouz" أو الحروف الأربعة التي تتكون منها كلمة rose ما هي إلا دالات على فكرة أو مفهوم متصل بشيء موجود في عالم الواقع له ساق به أشواك وبتلات. ولا يتحقق وجود الدال (سواء كان الصوت أو الكلمة) في ذاته إلا إذا كان هناك شخص ما يقرر هذا الوجود وهذه الصلة بالمدلول (المفهوم). فنجد مثلا أن من لا يعرف الإنكليزية لا يعني له هذا الصوت لكلمة rose شيئاً لأنه ليس علامة بقدر ما هو مجموعة من الأصوات التي لا معنى لها. العلامة إذن ليست هي الكلمة في حد ذاتها، ولا هي الشيء الذي تشير إليه الكلمة وإنما هي العلاقة بين الاثنين.

وليست هناك ضرورة حتمية في العلاقة بين كلمة معينة بوصفها دالاً لغوياً وشيئاً مدلولاً عليه. فكلمة "rose" يمكن أن ترتبط بورد له أشكال وأحجام

وألوان وروائح شتى، وقد تشير إلى لون أو إلى رائحة ما. وعلى النقيض من ذلك نجد أن الشيء الذي نسميه 'rose' يمكن إضفاء معنى عليه عن طريق عدد من الدالات المشيرة إلى أنواع من الزهور مثل: مجد الصباح Morning Glory ، مدام ميلون Madame Meillon، أو زهرة flower الإنكليزية، أوالكلمة الألمانية die rose ، والفرنسية une rose . ولأنه ليس هناك شيء متأصل في طبيعة زهرة ما يجعل من الحروف الأربعة في مدلولها في اللغة الإنكليزية أكثر قابلية للفهم من الحروف الخمسة مثلاً في مدلولها في اللغة الإغريقية في كلمة pooov. فقد أصبح من المعروف أن العلامة اللغوية متعسفة arbitrary بل وغير متماثلة asymmetrical أيضاً. ذلك أن التطابق التام بين الدال والمدلول، ويعنى به التطابق الحرفي، لا وجود له.

معنى العلامات

ما طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول؟ بعبارة أخرى: كيف تنتج العلامات المعنى؟ استخدمت إملي دكنسون في قصيدتها كلمتي "وردة rose" و "حصالبان أو الروزماري rosemary"* وهاتان الكلمتان تشيران (بمعنى أنها إحالات مرجعية أو مدلولات referents) إلى نباتات تنمو في الحدائق الحقيقية في العالم الحقيقي. وتشير كذلك إلى حقيقة واقعة يمكن تعيينها، ونقصد بهذا المعنى الدلالي denotative الذي يمكن أن نجده في بطون المعاجم. ومن ناحية أخرى، نجد أن كلمتي وردة rose وحصالبان أو الروزماري قد اكتسبتا من المعاني ما هو أكثر من الإشارة إلى تلك النباتات في الحدائق. ونقصد بهذا المعاني الإيحائية التي يعرفها القراء: فالوردة ذات صلة بالحب والعاطفة والجمال،

* لفظتا rose وردة و rosemary حصالبان أو إكليل الجبل، متجانستان جزئياً، الأولى تعني الوردة، والثانية نبات ريحاني لكنه يختلف في طبيعته وخصائصه، مما يجعل استخدام الأولى يرتبط بمعاني الحب والعاطفة لما درج عليه الناس من استخدام الورد كتعبير عن الحب، وأما حصالبان او إكليل الجبل rosemary فإنه نبات خشبي معمر دائم الخضرة له رائحة الصنوبر، أوراقه إبرية ضيقة يصل ارتفاع العشب إلى حوالي ٣ أقدام ويزهر أزهاره في الصيف. المترجم.

وأما الحصالبان فقد تكون ذات صلة برائحة الصيف وحفظ الأعشاب الجافة. وتستلهم كلا الكلمتين معانيهما من الدلالات connotations التي تستدعيانها.

بالإضافة إلى المعاني المعجمية والمعاني الإيحائية هناك نوع ثالث من المعنى تغازل به الكلمات الأشياء التي تدل عليها. فهي لا تشير إلى الأشياء فقط وإنما تعمل أيضاً وكأنها صور أو أيقونات(8) icons لهذه الأشياء، شأنها في ذلك شأن كل دال. نجد مثلاً أن كلمات مثل "ووبس "whoops التي تستخدم في الإنكليزية لإبداء التعجب أو كلمة "واو "Wow أو "واك "Whack لا تشير إلي عواطف وأفعال بقدر ما تحاكي أفعالاً وعواطف: فالمعنى هنا يفهم بالمحاكاة. المعنى هنا يصبح أيقونياً iconic. أما دكسنون فتفيد قصيدتها أقصى استفادة من قدرة اللغة على محاكاة المعنى. نأخذ مثالاً على ذلك وجود الصلة بين حروف "s" في كلمات القصيدة مثل: screw, summer, ceaseless, rosemary. فهذه الأصوات الصفيرية تحدث عالماً من الضوضاء يضاعف الإحساس بالصوت الذي يصدر من عملية عصر الورد لاستخراج العطر منه، ويساهم في إدراك المعاني المعجمية والإيحائية التي تدل عليها الكلمات المفردة. بالإضافة إلى ذلك نجد أنه بتحويل كلمة "وردة "rose إلى "إكليل "rosemary فإن القصيدة تقدم مثالاً حياً على التحول metamorphoses الذي تتحدث عنه والمتعلق بالورد. وكما نرى في هذه القصيدة فإن أية علامة لغوية قد تغازل معاني كثيرة في علاقتها مع الشيء الذي تدل عليه وهذا الغزل قد يكون معجمياً دلالياً وأيقونياً في الوقت نفسه.

التشفيرات الثقافية (9)

تتسق هذه الأنماط الثلاثة من العلامات مع الطرق التي يميل أعضاء جماعة خطاب ما إلى تشفير خبراتهم بها. وبهذا لا تصبح الشفرة code

شيئاً يمكن فصله عن المعاني التي تنطوي عليها. فالعلامات المختلفة تدل على الواقع بتحليله بطرق مختلفة كما يقول ورف. على سبيل المثال نجد كلمات مثل table, Tisch, mesa تدل على شيء واحد وهو تلك القطعة المعروفة من الأثاث. ولكن بينما تشير العلامة في اللغة الإنكليزية 'table' إلى جميع الطاولات، فإن العلامة في اللغة البولندية تشير إلى طاولات الطعام على أنها stol بينما طاولات القهوة أو طاولات التليفون على أنها stolik. ويشير الإنكليز إلى كل شيء يقع أسفل الحجاب الحاجز على أنه المعدة في حين يستخدم الأمريكيون مفردة 'stomachache' لكي تشير إلى شيء مختلف عن ألم البطن 'bellyache'. ومثل ذلك في اللغة الألمانية التي يتحدث بها البافاريون حين يشيرون إلى الساق كلها - من الورك وحتى أصابع القدم - بعلامة واحدة هي das Beitn وتصبح جملة: 'Mein Bein' tut web تعني 'My foot hurts' أي "قدمي تؤلمني" بينما تحتاج اللغة الإنكليزية إلى الاختيار بين ثلاث كلمات 'hip' أو 'leg'، أو 'foot'. وتتغير التشفيرات الثقافية أيضاً مع الزمن في اللغة الواحدة؛ فاللغة الألمانية كانت تستخدم العلامة glücklich للدلالة على حالة من السعادة أما الآن فالعلامة نفسها (glücklich) إنما تستخدم للدلالة على السعادة العميقة أما السعادة العادية فتستخدم لها كلمة happy وتنطق /hepi/.

ويختلف تشفير الخبرة أيضاً في طبيعة المعاني الاقترانية associations(10) الثقافية التي تستدعيها العلامات اللغوية المختلفة. فمثلاً تستخدم كلمات 'soul' أو 'mind' أحياناً على أنهما متقابلتان للكلمة الروسية 'dusha' ورغم هذا فإن كل علامة من العلامتين لها علاقة مختلفة، كلٍ بمدلولها الخاص بها. ففي اللغة الروسية نجد أن كلمة 'dusha' تستخدم أكثر من استخدام كلمتي 'soul' أو 'mind' في اللغة الإنكليزية. ليس هذا فحسب بل نجد أن الكلمة الروسية تشير إلى مفهوم مختلف تمام الاختلاف عما تشير إليه الكلمتان الإنكليزيتان من ناحية دلالاتهما الدينية المتعلقة بمسألة الخير والعمق

الروحي للأشياء. وقد استطاعت البحوث ذات الصلة التي توفرت على دراسة المعاني التي تستدعيها الكلمات (الشبكات الدلالية Semantic networks) عند ثنائيي اللغة أن تجعل هذه المعاني واضحة جلية. فمثلاً: طلبنا من المتحدثين باللغة الإنكليزية والأسبانية معاً أن يستحضروا المعاني ذات الصلة في لغة واحدة من اللغتين ثم في اللغتين اللتين يتحدث بهما أبناء الفريقين. فراحوا يربطون كلمة 'house' بكلمة 'window' وكلمة 'boy' بكلمة 'girl' في اللغة الإنكليزية. أما في اللغة الأسبانية فراحوا يربطون كلمة casa التي تعني 'بيت' بكلمة madre التي تعني 'أم' وكلمة muchacho الأسبانية التي تعني 'شاب' بكلمة bomber التي تعني 'قنبلة' في اللغة الفرنسية. ولكن حتى داخل الجماعة اللغوية الواحدة فقد تصبح للعلامات معان دلالية مختلفة للقادمين من مجتمعات خطاب مختلفة.

إن القراء الناطقين بالإنكليزية لقصيدة إملي دكنسون ممن قد يتصادف ألا يكونوا أعضاء في جماعة الخطاب التي تنتمي إليها الشاعرة قد لا يعرفون المعنى المعجمي لكلمة 'Attar' وقد لا يرون الصلة بين كلمة إكليل 'rosemary' والموت. وكذلك قد لا تكون المظاهر الأيقونية (المطابقة) في القصيدة واضحة بالنسبة لهم. وحتى لو كانوا من أبناء اللغة الإنكليزية فقد تختلف معرفتهم الثقافية عن المعرفة الثقافية cultural literacy(11) التي توفرت لقراء إملي دكنسون الذين كانت تقصدهم في زمانها. (انظر الفصل الخامس)

يمكن للكلمات أن تعمل كأيقونات محملة بالدلالات الثقافية عند إشارتها إلى المفاهيم والأشياء أو الأشخاص. فالناطقون بالإنكليزية – مثلاً – ممن ينتمون إلى جماعة خطاب معينة يعمدون أحياناً إلى التأكيد على المعنى المعجمي عن طريق تمديد الصائت في الكلمة كما في كلمة 'It's beau = = tiful!' أي "جميل" في حين نجد أن الفرنسيين يعمدون إلى زيادة النبر على الصوت، لا عن طريق تمديد الصائت وإنما عن طريق التكرار

السريع للشكل اللغوي نفسه: '!Vite vite vite vite vite! Dépêchez-vous' ومعناها !Quick! Hurry up أي "أسرع، عَجِّل!" وهذه التشفيرات التطريزية المختلفة تنهض بوصفها طرقاً متميزة للحديث، ويشار إليها أحياناً على أنها من اللغة الإنكليزية النمطية أو اللغة الفرنسية النمطية. قس على ذلك المحاكاة الصوتية المسماة onomatopoeia التي توثق الصلة بين الأشياء والأصوات على نحو لا مفر منه بالنسبة لأبناء ثقافة معينة. فمثلاً: نجد الأصوات في الكلمات الإنكليزية الآتية: 'bash', 'mash', 'smash', 'crash', 'dash', 'lash', 'clash',' 'trash', 'splash', 'flash'' هي بمثابة أيقونات بالنسبة لأبناء الإنكليزية تشير إلى الحركات أو الأفعال المفاجئة العنيفة. وقد لا يجد ناطق بلغة أخرى في الصائت /æf/ أي نوع من الرمز. أما اللغة الفرنسية فلا يجد أبناؤها علاقة دلالية بين كلمات مثل: bache, tache, crache, sache, cache, vache، على الرغم من الصوائت المشابهة لصوائت الكلمات الإنكليزية في نهاياتها. ويجد المتعلمون من أبناء اللغة الفرنسية في كلمات مثل siffler و serpent رموزاً تشير إلى الأشياء التي تدل عليها بسبب الحروف الصفيرية في بدايتها /s/. ولكننا نعلم – كما سنرى فيما بعد – أن مرد ذلك هو استدعاؤهم لنص سابق وهو السطر الشهير من مسرحية راسين أندروماك: Pour qui sont ces serpents qui sifflent sur nos têtes؟ أو: (But what are these serpents hissing above our heads؟) أي: 'ولكن ما هذه الأفاعي التي تصدر هذا الفحيح فوق رؤوسنا؟'

من المهم أن نذكر أن الاختلافات التي ذكرناها بين اللغات المختلفة ليست اختلافات في الشفرة ذاتها فحسب، وإنما هي اختلافات في المعاني الدلالية الخاصة بتلك التشفيرات التي تستخدمها المجتمعات اللغوية المستخدمة للغة. وهي المعاني التي تجعل من العلامة اللغوية علامة ثقافية.

التماسك الدلالي

رأينا كيف تربط العلامات الكلمات بالعالم بطرق تشير، بشكل مباشر، إلى أشياء ثقافية مشتركة أو توحي بشكل خاص بأشياء أخرى أو مفاهيم أخرى مرتبطة بها أو تصبح العلاقة أيقونية خالصة. ولكن الكلمة، بوصفها علامة، تتصل كذلك بكلمات أو علامات أخرى تمنحها دلالة أو قيمة معينة في النص اللفظي نفسه أو في السياق co-text. فإلى جانب الأسماء والأصوات تشير الكلمات إلى كلمات أخرى من خلال جملة متنوعة من حيل التماسك الدلالي cohesive devices تصنع التماسك في النص مثل التماسك الحاصل في قصيدة دكنسون حيث الضمير (it)، واسم الإشارة ('this')، وتكرار الكلمات نفسها من جملة سابقة في جملة لاحقة (مثلاً: 'The Attar from the Rose ... The general Rose ... In ceaseless Rosemary's) أو نفس الأصوات من سطر سابق في سطر لاحق (مثلاً: صوت /l/ في 'the'. 'Lady's Drawer' 'Lady Lie') وتكرار كلمات تتصل بالفكرة نفسها (مثلاً: 'Suns', 'summer';' ''essential Oils', 'Attar') ، والروابط مثل ('but', 'when'). تستثمر هذه الأدوات المعاني الترابطية[12] associative meanings أو الإيحاءات المشتركة لمجتمع ما يمتلك قراؤه القدرة على معرفة مدلول الضمير 'it' والتكرار المعجمي لكلمتي 'suns' و 'summer' ، بينما لا يقدر على ذلك قراء مجتمع آخر أقل كفاءة. يعتمد التماسك الدلالي على ترابطات مجتمعية يصنعها مجتمع خطاب ما عبر سطور قصيدة ما أو عبر مساحات من الكلام.

وقد تتصل العلامة أو الكلمة أيضاً بالكلمات والإشارات الأخرى في النص أو الكلام، وهي كلمات وإشارات تراكمت في الذاكرة عبر السنين وأصبحت نصاً قبلياً prior text. ونعود في هذا السياق إلى العلامة الروسية dusha التي تعني تقريباً "جوهر المرء الداخلي"، وتوحي بالخير والحق لأنها ارتبطت بأقوال أخرى تحدث بها الناس وسمعوها في خضم حياتهم اليومية. ونعود أيضاً إلى

الاقتباسات الأدبية (خذ مثلاً هذه الجملة مما كتب دوستويفسكي: "وبينما كان السرور يملأ روحه هفت نفسه إلى الحرية وتطلع للفضاء الواسع والخروج من العزلة.") ونعود أيضاً إلى المفاهيم اللفظية الأخرى كالمفاهيم المجردة التي نقول إنها لا تقدر بثمن pricelessnes كالإرادة الإنسانية وحديث النفس inner speech والمعرفة knowledge والمشاعر feelings والأفكار thoughts والدين religion ، وهي جميعاً مفاهيم تتمتع بالكثير من الدلالات الأخرى. وعندما يقوم الناطقون بالإنكليزية بترجمة كلمة 'dusha' الروسية بكلمة 'soul' أي الروح فإنهم في الواقع يربطونها بكلمات إنكليزية أخرى مثل 'disembodied spirit' أي الروح المتحررة من الجسد و 'immortal self' أي النفس الخالدة و 'emotions' أي العواطف وهي كلها كلمات تغازل في المعنى الكلمة الروسية دون أن تضاهي تمام المضاهاة ذلك التماسك cohesion الدلالي الذي تحظى به كلمة dusha في الثقافة الروسية. لا يمكننا إذن فصل معاني عن كلمات ارتبطت بمعانيها في الحقل الدلالي لجماعة خطاب ما.

وثمة بيئة لغوية أخرى تحمل فيها الكلمات معنى ثقافياً دلالياً يتألف من الاستعارات اللغوية metaphors التي تراكمت عبر السنين في رصيد الجماعة اللغوية من المعرفة الدلالية. ومن ثم نجد أن الكلمة الإنكليزية 'argument' مثلاً كثيراً ما تظهر في معية كلمات مثل 'to defend' (كما في جملة 'Your claims are indefensible') أي مزاعمك لا يمكن الدفاع عنها، و ''to shoot down on' ('He shot down all of my arguments.') أي لقد فند جميع مزاعمي، و'on target' أي في الصميم، (كما في 'Her criticisms were right on target' أي جاءت انتقاداته في الصميم) الأمر الذي أتاح لجورج لاكوف George Lakoff ومارك جونسون Mark Johnson أن يعثرا على إحدى الاستعارات المفتاحية في اللغة الإنكليزية وهي "الجدال حرب" أو 'Argument is War' . وبعض هذه الاستعارات محفور في صميم بنية الشفرة في اللغة الإنكليزية مثل الاستعارة

التي تقول إن المجال المرئي وعاء container. فهذه الاستعارة تصف ما في داخل الوعاء وما في خارجه وما يستقبله الوعاء كما في قولهم 'The ship is coming into view' أي السفينة قادمة على مرمى البصر، و 'I have him in sight' أي أراه أمام ناظري، و 'He is out of sight now' أي الآن أصبح بعيداً عن بصري. ولكل لغة استعاراتها الخاصة التي ترفدها بالتماسك الدلالي داخل نطاقها وفي إطار حدودها.

وهكذا يتبين لنا من جميع هذه الأمثلة – التي سبق ذكرها – أن المعاني الدلالية للشفرة إنما تعكس الطريقة التي يرى بها مجتمع الخطاب نفسه والعالم من حوله؛ أي يرى بها ثقافته. إن هذه المعاني الدلالية تتصل اتصالاً خاصاً بخبرات الجماعة ومشاعرها وأفكارها. فهي التعبير غير التعسفي عن رغبتهم في الفهم والتأثير في عالمهم.

الطبيعة غير التعسفية للعلامات

قلنا آنفاً إن العلامات لا تتمتع بصلة فطرية بالعالم الخارجي، ومن ثم فهي من هذا الباب تعسفية. وهذه الطبيعة التعسفية نفسها هي التي تجعلها عرضة للانتحال من قبل مجتمعات الخطاب المندسة ثقافياً. يستخدم المتكلمون والكتّاب تلك العلامات التي يجدونها في متناول أيديهم دون عناء في بيئتهم اللغوية، دون أن تكون موضع سؤال أو استفسار ودون أن يلاحظوا، كما لاحظ سابير، أن هناك بدائل أخرى ذات دلالات يمكن أيضاً أن تصبح في متناول أيديهم. وكما لاحظنا في الفصل السابق فإن التنشئة الاجتماعية في مجتمع خطاب ما تتطلب فيما تتطلب أن تبدو الممارسات الدالة لهذا المجتمع طبيعية تماماً.

لا يدرك مستخدمو لغة ما من أبنائها مثلاً أن العلامة اللغوية تعسفية، بل العكس هو الصحيح، يرونها ضرورة من ضرورات الطبيعة. ويورد جاكوبسون[13] حكاية الفلاحة السويسرية التي كانت تعيش في المنطقة الألمانية من سويسرا، وتتحدث الشايتسادويتش Schweizerdeutsch أي اللهجة الألمانية لبعض أهالي سويسرا حين سألت عن السبب الذي يجعل الفرنسيين يستخدمون كلمة fromage بديلاً عن كلمة Käse ومعناها الجبن، وأضافت تقول:'Käse ist doch viel natürlicher!' (Käse is so much more natural) أي أن كلمة Käse تبدو أقرب للطبيعة. وهكذا نرى أن الباحثين غير المتحيزين والمتحدثين باللغة من غير أبنائها هم وحدهم دون غيرهم الذين يرون أن الصلات بين العلامات ما هي إلا صلات محكومة بالمصادفة في أغلب الأحيان.

ولا يشعر الناطقون باللغة من أبنائها داخل مجتمعهم أن الكلمات عبارة من علامات تعسفية. بالنسبة لهم أصبحت الكلمات جزءاً لا يتجزأ من النسيج المادي الطبيعي لحياتهم؛ فالكلمات والأفكار كيان واحد لا يقبل التجزئة. وعلى سبيل المثال نجد الفرد الذي نشأ في بيت فرنسي يقسم بأغلظ الأيمان بأن ثمة شيء يشير إلى وجود ذكورة طبيعية في الشمس (le soleil) وإلى وجود أنوثة طبيعية في القمر (la lune). أما الناطقون بالإنكليزية من أبنائها فيعتقدون اعتقاداً راسخاً أن الحديث عن 'shooting down someone's argument' أي إطلاق الرصاص على حجة فلان في موضوع ما، حديث طبيعي تماماً. فهم لا يتصورون أن يتحدث أحد عن الحجة بطريقة مختلفة.

وحتى بعد أن اطَّلَعَ قراؤنا على التماسك الدلالي في قصيدة إيملي دكنسون لا ينفك نفر منهم أن يزعم أن التفسير الوارد في الفصل الأول هو التفسير الوحيد الممكن – أي هو التفسير الطبيعي. ورغم أن العلامات – كما أوضحنا – حادثة وليست أزلية، غير مقطوعة السبب عن علامات أخرى تشكل الأنماط الثقافية للمعنى فإن العلامات اللغوية بالنسبة للناطقين بالإنكليزية من أبناء

اللغة هي الواقع الطبيعي الذي تعبر عنه هذه العلامات اللغوية.

أما السبب الرئيس وراء هذا التطبيع naturalization للعلامات التي أنشأتها الثقافة فهي أن هذه العلامات قابلة للحركة والتأقلم؛ إذ هي تُوَلِّد دلالاتها في الفراغ الاجتماعي؛ فصناعة العلامات وتفسيرها ممارسات اصطنعتها حاجة مستخدمي اللغة ورغبتهم في التأثير في الناس وتغييرهم أو حتى رغبتهم في تفسير العالم من حولهم. وتكفي رغبتنا في توصيل المعاني للآخرين سبباً في أن يصغي الآخرين إلينا، ويأخذوا ما نقول مأخذ الجد ويصدقوه، ونؤثر بدورنا في معتقداتهم وأفعالهم. نستطيع إذاً أن نقول باطمئنان إن العلامة اللغوية قابلة للحركة وقابلة للتأقلم وقابلة للنقل والتحوير.

الـرمــوز

لم نكتفي مع مرور الزمن بأقلمة العلامات وحسب بل أدخلنا العلامات كذلك في زمرة الأعراف. فحين نفصل العلامات اللغوية عن سياقها الأصلي - الاجتماعي والتاريخي - فإننا نسلبها بذلك معناها المتكامل وتتحول إلى مجرد اختصارات رمزية. خذ مثلاً كلمات مثل 'الديمقراطية' و'الحرية' و'الاختيار' عندما ينطق بها الساسة والدبلوماسيون فإنها تفقد الكثير من معانيها المباشرة، وحتى تلك الغنية بالإيحاءات، وتصبح رموزاً symbols سياسية فحسب كما في الخطاب الديمقراطي الغربي. خذ أيضاً عبارات دالة مثل 'الثورة الفرنسية' و ' 14 مايو 68' و 'محرقة اليهود'؛ هذه العبارات اختزلت ما كان في الأصل مزيجاً مشوشاً من الأحداث التاريخية في رموز بسيطة أصبحت جزءاً من العرف الدولي. فقد خلق تكرار هذه الرموز مع الزمن تراكماً من المعاني لم تسهم فقط في تشكيل ذاكرة مستخدمي العلامة وإنما منحت هذه الرموز أيضاً أهمية وشرعية أسطوريين.

يمنح مرور الزمن شرعية للعلامة ومستخدميها أيضاً. ولما كانت العلامات حمالات أوجه فإن قدرتها تظل كامنة على تغيير الطريقة التي يرى بها صناع العلامات أنفسهم، ومن ثم تغيير الطريقة التي يتصرفون بمقتضاها. فاستخدام العلامات يمكن الناطقين الحاليين من وضع الأحداث الماضية في سياق الخطاب الشائع، وبعبارة أخرى إعادة وضع أحداث الماضي في سياق جديد يوفر الإطار المناسب للاستباق[15] anticipation أي يضع أحداث المستقبل قبل أن تحدث في سياقها. وقصارى القول إن مثل هذا البناء للمعاني وإعادة البناء باستخدام العلامات تمكن مستخدمي اللغة من التحكم في سلوكهم داخل بيئاتهم.

ونرى أثر ذلك مثلاً في لغة الإعلانات التي تطلقها الشركات التجارية الكبرى، وفي العلامات التي نستخدمها للدلالة على الوطنية والقومية بدءاً من وسائل الإعلام ومروراً بالشعارات وحتى على النصب التذكارية (انظر الفصل السادس). أما القوالب الثقافية cultural stereotypes فهي علامات مجمدة تحدث تأثيرها على من يستخدمونها وعلى من تسعى تلك العلامات إلى وصفهم وتصويرهم. فالكثير مما نسميه الأيدولوجيا ما هو في الواقع إلا لغة محملة بالرموز. خذ مثلاً كلمات مثل 'rebels' أي المتمردون، و 'freedom fighters' أي ' المحاربون من أجل الحرية' وهي ألفاظ تستخدم للإشارة إلى القوى التي تناوئ الأنظمة الحاكمة. خذ أيضاً كلمتي 'challenges' تحديات و 'problems' مشكلات وهما تستخدمان للإشارة إلى الصعوبات أو العقبات، وكلمتي 'collaboration' أي العمل الجماعي و 'exploitation' أي الاستغلال وهي كلمات تشير إلى الأعمال التي يضطلع بها العمال، وكلها رموز ثقافية أذيعت وأثبتت وجودها بسبب صناع العلامات من أصحاب النزعات السياسية في مجتمعات الخطاب التي يعيشون فيها كل حسب طريقته. وحين تتداخل اللغة مع السلطة الاجتماعية[16] social power يبدو استخدام بعض العلامات

الثقافية مشروعاً أو طبيعياً، وبينما يبدو بعضها الآخر غير مشروع أو غير طبيعي أو حتى من المحرمات taboos؛ فنجد مثلاً أن جريدة يمينية تسعى لإقناع قرائها بأن عبارة 'freedom fighters' أي المحاربون من أجل الحرية' إنما تشير إلى القوى التي تناوئ السلطة الشرعية أو أن هؤلاء المحاربين مرتزقة في حرب عصابات حتى يعتقد هؤلاء القراء أنهم من المتمردين فعلاً.

ويظهر لنا المثال الأخير حدود المشكلة التي واجهناها في الفصل الأول وهي الحفاظ على الفصل التام بين علم الدلالة والذرائعية(17). أين ينتهي علم الدلالة وأين تبدأ الذرائعية؟ إن معاني الكلمات في ارتباطها بالعالم من جهة وبكلمات أخرى من جهة أخرى إنما تخلق مساحة دلالية أو حقل دلالي تنطلق منه المقومات الدلالية لمجتمع خطاب ما. على أن هذه المساحة الدلالية لا تثبت على حال بل يتم إثراؤها على الدوام من خلال الاستخدام المستمر للكلمات في السياقات الاجتماعية المختلفة.

خلاصة

تضطلع العلامات بإنشاء جملة من العلاقات الدلالية المختلفة بين الكلمات والأشياء: معجمية أو إيحائية وحتى أيقونية iconicity (متطابقة). وتعطي هذه العلاقات بدورها العالم معنى عاماً. وبالإضافة إلى ذلك نجد أن العلامات تعمل على إنشاء علاقات دلالية مع علامات أخرى في البيئة المباشرة للمبادلات اللفظية أو في السياق التاريخي لمجتمع خطاب معين. ولا يكون خلق المعنى من خلال العلامات مصطنعاً أو متعسفاً ولكنه يتأتى من رغبة الإنسان للمعرفة، والتأثير، وامتلاك السلطة، والرغبة الفطرية العامة للتعايش الاجتماعي والثقافي. ولما كان المعني مشفراً في اللغة من أجل غرض معين فإن المعنى بوصفه علامة يلازم السياق الذي تستخدم فيه العلامات من أجل تنظيم الفعل البشري. ومن هنا نجد الصعوبة حين نريد أن نفصل المعاني الدلالية النوعية للشفرة عن المعاني الذرائعية لها في سياقات متباينة أثناء الاستخدام.

مراجع الفصل الثاني

(1) MICHEL FOUCALULT: The Order of Things (Les Mots et les choses). Random House 1970.

(2) ROMAN JAKOBSON: 'Quest for the Essence of Language' in Diogenes 51, 1965.

(3) GOERGE LAKOFF and MARK JOHNSON: Metaphors We Live By. University of Chicago Press, 1980.

(4) C.K. OGDEN and I.A. RICHARDS: The Meaning of Meaning, Harcourt, Brace and World 1932.

(5) V. N. VOLOSINOV: Marxism and the Philosophy of Language. (Tr. I. Matejka and I. R. Titunik). Seminar Press 1973 [1929].

(6) ANNA WIERZBICKA: Semantics, Culture and Cognition. Oxford University Press 1992.

الفصل الثالث
المعنى بوصفه فعل

بعد سنوات من البحث العقيم عن معنى الحياة في الفلسفة والقانون واللاهوت يقرر الدكتور فاوست في مسرحية غوته Goethe الشهيرة أن المعنى لا يكمن في الكلمات وإنما يكمن في الأفعال ومن قوله: يجب أن نستبدل بالعبارة الاستهلالية التي وردت في الكتاب المقدس "في البدء كان الكلمة" عبارة أكثر ملاءمة للزمن الذي نعيشه فنقول: "في البدء كان الفعل." وهي العبارة التي هتف بها فاوست ثم باع روحه للشيطان. وعلى الرغم من أنه لم يتم إنقاذه بعد ذلك إلا أنه اقتنع في النهاية أن أي فعل يعتمد على زمان ومكان وقوعه. أي أن المعنى لا يتم الوصول إليه مرة واحدة وكفى؛ ولكن المعنى يُختبر من جديد في أية عبارة من خلال الأفعال اللفظية والتفاعلات التي تتم بين المتحدثين والسامعين والكتّاب والقرّاء جميعاً.

نركز في هذا الفصل على دراسة الكيفية التي ينشأ من خلالها المعنى الثقافي نتيجة أفعال المتكلمين والتفاعلات فيما بينهم في السياقات الاجتماعية.

سياق الموقف وسياق الثقافة

كانت دراسة ما يسميه العلماء باللغات البدائية في سياقاتها الاجتماعية إيذاناً بالشك في آراء اللغويين الغربيين القطعية حول اللغة بوصفها أداة الفكر، أو كما قد يزعم فاوست المجال الأساسي للفلسفة والقانون واللاهوت. لقد اكتشف عالم الأنثروبولوجيا برونسلو مالونوفسكي (1884 - 1942)، أثناء دراسته لعادات الصيد والزراعة عند سكان جزر تروبرياند 18 الأصليين أن

لغتهم (اللغة الكريولية) كانت هي المفتاح لفهم معنى تلك العادات والممارسات. وبينما كان يجلس على الشاطيء يتسمع إلى الصيادين وهم يتصايحون أثناء تنقلهم بقواربهم من مكان إلى آخر عبر المضايق الصعبة، لاحظ أنه لا يكفي لكي نفهم ما يجري أن نعرف معنى الكلمات التي يتفوهون بها ونسجل معناها، وإنما ينبغي أن نعرف لماذا قالوا ما قالوه وكيف قالوه ولمن كانوا يقولونه وفي أي سياق موقف context of situation. والأكثر من ذلك علينا أن نربط كلماتهم ومعتقداتهم وطرائق تفكيرهم بسياق ثقافي context of culture أوسع نطاقاً مثل: اقتصاديات القبيلة، والتنظيم الاجتماعي، وأنساق القرابة، وطقوس الخصب والنماء، وإيقاعات الفصول، ومفاهيم الزمان والفضاء. ومن ثم تصبح المعاني الدلالية للعلامات اللفظية موصولة النسب بالمعاني الذرائعية للأفعال اللفظية في سياقاتها.

أما كيف نتوصل إلى المعنى السياقي ثقافياً في التبادل اللفظي؟ فإننا لا نصل إلى المعنى من خلال ما يقوله المتكلمون بعضهم للبعض، وإنما من خلال ما يفعلونه بالكلمات استجابة لمتطلبات بيئاتهم. وفي هذا الفصل سنقوم بدراسة متطلبات هذه الاستجابات.

بنيات التوقع

قلنا في الفصل الأول إن مستخدمي اللغة في أية مواجهة كلامية يلجأون إلى خطط عمل تطورت لديهم مع الزمن خلال التنشئة الاجتماعية أو الامتزاج الثقافي في المجتمع الذي عاشوا فيه؛ فقد تعلموا منذ الطفولة أن هناك أفعال كلام بعينها تستخدم في سياق ثقافي معين كأن نقول: "شكراً " رداً على من يقدم إلينا هدية، أو نقول "إلى اللقاء" كوسيلة لإنهاء تلك المواجهة الكلامية. كما يتعلم مستخدمو اللغة كيف يستخدمون اللغة بطرق شتى حين يتحدثون مع ناس من طبقات متباينة، وكيف يفرقون بين الإهانة والتحية. ويصبح هذا

السلوك وأشباهه جزءاً من تكوينهم العضوي لأنه يضرب بجذوره في أعماق خبرتهم الحياتية التي يستقون منها فهمهم وتفسيرهم للعالم من حولهم.

لم يتعلم مستخدمو اللغة كيف يفسرون العلامات ولا كيف يتصرفون على أساسها فحسب؛ وإنما تعلموا أيضاً أن يتوقعوا سلوكا معيناً من الآخرين بالمثل. ومثلما يتوقعون من السيارات أن تقف عند إشارة حمراء حتى يتمكن المشاة من عبور الشارع عند ظهور إشارة "سر walk" الخضراء، فإنهم يتوقعون أيضاً أن يحييهم الناس عند أول مقابلة، أو يستمعوا إليهم عندما يتحدثون، أو أن يجيب الغير على أسئلتهم عندما يتوجهون إليهم بالسؤال. وبالطبع فهناك اختلافات ثقافية تؤثر في هذه التوقعات. فالناطقون بالفرنسية من الفرنسيين يتوقعون أن يحييهم الناس بالمصافحة، أما الأمريكيون فيتوقعون ابتسامة عوضاً عن هذا. ويتوقع الأستاذ أن يحييه تلميذه بطريقة مختلفة، ويتوقع الصديق أن يحييه صديقه بطريقة تختلف عن تحيته الضيف الغريب. وانطلاقاً من خبرتهم في ثقافتهم (أوثقافاتهم) ينظم الناس معارفهم ومفاهيمهم عن العالم، ويستخدمون هذه المعرفة لاستباق التفسيرات والعلاقات الخاصة بأية معلومات وأحداث أوخبرات جديدة يصادفونها في مسيرة حياتهم. وهذه البنيات من التوقع structures of expectation – وهي بنية عامة ترسخت في عقول الناس من خلال الثقافة التي يعايشونها – هي ما نطلق عليه الأطر frames أو البنى الكبرى schemata.

إشارات مساقية واستدلالات سياقية

ترتبط الكلمات التي يتبادلها الناس في مواجهاتهم الكلامية بطرق لا تعد ولا تحصى بسياق الحال وسياق الثقافة التي تجري فيهما تلك المواجهات الكلامية. فعندما يقول "أ" لـ "ب": 'أريد أن أدخل هنا. هلاً فتحت لي الباب؟'

‘I need to get in there. Can you open the door?’ فإن "ب" سيفهم المعنى المقصود إذا كان يعرف الإنكليزية وقادراً على استيعاب المعاني الدلالية في كلام "أ". وعليه أن يربط بين الضمير "I" وبين الصديق الذي يعرفه حق المعرفة من صوته وهيئته الخارجية. وكذلك يربط بين "هنا" there " وحجرة يعرفها تقع وراء الباب الذي يراه من موقعه حيث يقف. كما عليه أن يعرف أيضاً أن "أل"the " في لفظة "الباب the door" تشير إلى الباب نفسه الذي يريده "أ" أن يفتحه. أضف إلى ذلك أن عليه أن يفهم من ابتسامة "أ" المرسومة على وجهه ومن نبرة صوته وطريقته في الكلام ومن خبرته معه أن هذا الطلب طلب مشروع من صديق يطلب المساعدة وليس مجرد طلب عابر. بعبارة أخرى، وبالإضافة إلى المعنى الدلالي في كل كلمة من كلمات "أ" فإن على "ب" أن يفهم كيف ترتبط هذه الكلمات بالسياق البراجماتي (التداولي) حال النطق بها. هذه الألفاظ (‘I’, ‘there’, ‘the door’) ومصاحبات الأفعال (النبر ونغمة الكلام وسرعة النطق والضحك) وكذلك العلامات غير الكلامية (كاتجاه النظر وملامح الوجه ووضعية الجسد ونغمة الصوت) هي التي تجعل المتكلمين يشيرون على مستمعيهم أو يوضحون لهم أو يرشدونهم إلى تفسير ما يقولونه لهم في خضم سلسلة لا تنتهي من العوامل ذات الصلة احتمالياً في السياق، كل ذلك نسميه إشارات مساقية contextualization cues.

تساعد هذه الإشارات في صنع ما نسميه الاستدلالات السياقية situated inferences ذات الصلة أو بعبارة أخرى تساعد في استحضار الخلفية الثقافية والتوقعات الاجتماعية الضرورية لتفسير الكلام ويصبح في مقدور المتكلمين والسامعين - من خلال استخدام الإشارات المساقية - نقل توقعاتهم إلى الطرف الآخر حسب طريقتهم في التواصل أو التخاطب وعلى المشاركين في تلك المبادلات اللفظية أن تتوفر لديهم القدرة على الاستفادة من الحوار حسب فهم كل فريق لسياق الحال وسياق الثقافة لحظة بلحظة.

التماسك السياقي

تعد الجهود المبذولة في سبيل جعل الكلمات المنطوقة ذات معنى في إطار سياق الحال والثقافة، جزءاً من خضم المبادلة اللفظية، في إطار الجهود التي تهدف لتأسيس التماسك coherence السياقي. لا يأتي التماسك في كلام المتكلمين جزافاً وإنما يستحدث استحداثاً في عقول المتكلمين والسامعين على السواء وبفضل الاستدلالات التي يخرجون بها تأسيساً على الكلمات التي يسمعونها. ومن ثم فبينما يعمل التماسك الدلالي على إقامة الصلة بين الكلمات (انظر الفصل الثاني) فإن التماسك البراجماتي يعمل على إيجاد الصلة بين المتكلمين والسامعين في إطار السياق الثقافي الأوسع لعملية التواصل.

ويمكن للجهود التي يبذلها المتكلمون لإيجاد تماسك براجماتي من خلال استخدام الإشارات المساقية، يمكن لهذه الجهود أن تحقق نتيجة استيعابية؛ أي تستفيد من تضافر هذه الجهود جميعاً. ويتضح ذلك في تلك المبادلة اللفظية بين عدد من الأصدقاء[19]:

Chad: I go out a lot

Deborah: I go out and eat

Peter: I go out? The trouble with ME is if I don't prepare and eat well, I eat a LOT ... Because it's not satisfying. And so if I'm just eating like cheese and crackers. I'll just STUFF myself on cheese and crackers. But if I fix myself something nice, I don't have to eat that much.

Deborah: Oh yeah?

Peter: I've noticed that, yeah.

Deborah: Hmmm ... Well then it works, then it's a good idea. It's a good idea in terms of eating; it's not a good idea in terms of time.

(Tannen, Deborah. Talking Voices. Repetition, Dialogue,Imagery. Cambridge: Cambridge University Press 1989, page 71).

من خلال هذه الشبكة المتقاطعة من التكرارات المعجمية والصوتية (I go out a lot – I go out and eat – I eat a lot التي تمنح حديث المتحاورين تماسكاً دلالياً نجد أن ديبورا وبيتر – وهما يهوديان من نيويورك لهما نفس الخلفية الثقافية – إنما يدعم كلاهما كلٍ إشارات الآخر السياقية. أما التماسك الدلالي للكلمات التي ينطق بها المتكلمان مضافاً إليها الخلفية الثقافية المشتركة لكليهما فإنه إنما يؤسس لتماسك براجماتي عميق من خلال ما يفعله المتحاوران. والطريقة التي تصادت بها كلماتهما وتعانقت بها ألفاظهما وعباراتهما، وبها واصلا حديثهما تصل بهما إلى أن استنباط المعلومات التي تنقلها الكلمات ليست هي أهم ما في هذه المحادثة (بل إنها توحي في الواقع بأنهما يختلفان)، ولكن المهم هو إحساسهما بانطلاقهما من مساحة حوارية واحدة وأنهما ينتميان لثقافة واحدة.

في وسع الإشارات المساقية أيضاً أن تؤكد على التناقضات الكامنة في استنتاجات المشاركين وإطارات توقعاتهم، ومن ثم تؤدي بهم إلى انهيارات تماسك في المجابهات عبر الثقافية. ولنضرب لذلك المثال التالي:

أُرسِل أحد الطلاب الأمريكيين من أصل أفريقي لإجراء مقابلة مع زوجة سوداء تعيش في أحد الأحياء الفقيرة ذات الدخل المنخفض. اتصل الطالب بها هاتفياً من المكتب الذي يعمل فيه. وعندما وصل الطالب إلى سكن السيدة وطرق الباب قابله الزوج الذي فتح له الباب وعلى وجهه ابتسامة،

وتقدم منه قائلاً:

Husband: So y're gonna check out ma ol lady, hah?

إذن تريد زوجتي في شيء ما. هه؟

Student: Ah, no. I only came to get some information. They called from the office. لا. جئت فقط للحصول على بعض المعلومات. لقد اتصلوا بكم من المكتب؟

(Husband, dropping his smile, disappears without a word and calls his wife.)

"يتخلى الزوج عن ابتسامته، ويذهب دون أن ينبس ببنت شفة لينادي على زوجته"

Gumperz, John J. Discourse Strategies. Cambridge: Cambridge University Press (1982, page 133).

لقد فشل الطالب في أن يخرج بشيء من إشارات الزوج المساقية (نغمة الكلام وطريقة النطق التي تميز العامية الإنكليزية كما ينطق بها السود، واختيار الألفاظ مثل 'ol lady' بدلاً من 'wife' و 'check out' بدلاً من 'visit') – أراد الزوج أن يبدي تضامنه مع أمريكي أفريقي مثله – وكانت استجابة الطالب بلغة إنكليزية فصحى مثلما ينطق بها البيض ('I' بدلاً من '/a/'، و 'get' بدلاً من /gi::t/)، وبذلك أظهر انتماءه إلى ثقافة أكاديمية لا تمت بصلة لثقافة الزوج. وروى الطالب فيما بعد أن المقابلة كانت رسمية جداً وغير مرضية. وعرف – كونه من السود – أنه أفسد المقابلة. على كل حال، وكما سنرى في الفصل السادس، لم تكن القضية كلها قضية تعرف على إشارات مساقية من عدمه، ففي الحالة السابقة كان الطالب مضطراً إلى أن يختار بين أمرين: إما

أن ينحاز لهويته بوصفه أحد الأمريكيين الأفارقة أو أن ينحاز لهويته بوصفه طالباً أكاديمياً. ولم يتساو الأمران عنده وقت المقابلة من وجهة نظره: ومن ثم فضل أن يبدو أهلاً للثقة كطالب أكاديمي على أن يبدو أهلاً للثقة كعضو في جماعة عرقية.

وقد تؤدي الإشارات المساقية نفسها إلى استنتاجات مختلفة بين أناس ينتمون إلى ثقافات قومية مختلفة، وقد يحدث سوء فهم حقيقي لأنها تعزى أحياناً إلى مواقف أو صفات شخصية وما ينتج عن ذلك من نقص في التماسك الدلالي يترك المتكلمين في حالة ارتباك وحيرة شديدة، أو قد أخذ بهم الإحباط والغضب كل مأخذ. نجد ذلك مثلاً في تلك المجابهة اللفظية بين عميل آسيوي ومحاسب بريطاني بأحد البنوك، حيث نبرة الصوت غير المتوقعة، وحيث تؤدي التشديدات التي يقوم بها المتكلم الآسيوي إلى سوء فهم وإحباط المتحدث البريطاني الذي يتحدث الإنكليزية الفصحى:

لو سمحت Customer: Excuse me

نعم سيدي Cashier: Yes sir

أريد أن أودع بعض النقود Customer: I want to deposit some MOney.

حسنا أنت تريد استمارة إيداع إذن.

Cashier: Oh. I see. Ok. You'll need a deposit form then.

أجل، لا، لا، هذه الاستمارة الخطأ

Customer: Yes, No, No, This is the wrong one.

(Gumperz, John J., T. Jupp, and Celia Roberts. Cross-Talk. A Study of Cross Cultural Communication. London: The National Centre for Industrial Language Training 1977, page 21)

بعدها يعلو صوت المتحدث بالإنكليزية الآسيوية وينخفض عندما ينطق كلمتي 'بعض النقود' some MOney ' وهذه الكلمة الأخيرة تتسم ببعض ارتفاع الصوت في الوقت الذي يخفض المتحدث بالإنكليزية البريطانية صوته عندما ينطق بكلمة 'money' ويزيد النبر على كلمة 'deposit'. وعندما يستخدم المتحدث بالإنكليزية البريطانية نسقه التأويلي يظن أن متحدث الإنكليزية الآسيوية يتكلم بطريقة صحيحة ويشعر من نبرة صوته بشيء من العداء ضده، بينما لو كان المحاسب آسيوياً مثل العميل لما أحس في نبرة صوته بشيء من العداء أو الغلظة. وقد يكون العميل الذي يتحدث الإنكليزية الآسيوية خرج باستنتاجات خاطئة من حديث المحاسب المتحدث بالإنكليزية البريطانية. ثم يستمران في الحديث:

Cashier: Sorry? آسف؟

Customer: I got my account in WEMbely لي حساب في ومبلي

Cashier: Oh you need a GIRO form then تريد استمارة حوالة إذن

Customer: Yes GIRO form أجل استمارة حوالة

Cashier: Why didn't you say so first time? لماذا لم تقل ذلك منذ البداية؟

Customer: Sorry. Didn't KNOW آسف. لم أكن أعرف.

Cashier: ALL RIGHT ? حسناً؟

Customer: Thank you شكراً

(المرجع السابق)

إذاً نبرة الصوت قد تُفَسَّر على أنها مفتاح الوصول إلى موقف المتكلم، ومن ثم فهي جزء من سلوكه المقصود. وقد يفهم العميل المتحدث بالإنكليزية الآسيوية علو نبرة المحاسب عند نطقه بكلمة GIRO على أنها علامة على توتره، وعدم قدرته على ضبط أعصابه وأن ارتفاع نبرة صوته عندما نطق

بعبارة 'All RIGHT' على أنها محاولة لزجره بطريقة عنيفة.

إن دراسة الإشارات المساقية لا تبين الطريقة التي يمنح بمقتضاها المتكلمون كلامهم تماسكا دلالياً فحسب، وإنما تشير كذلك إلى الطريقة التي يقوم بمقتضاها المشاركون في التفاعل اللفظي بتشييد أدوار ثقافية لأنفسهم وهم يتعاونون في بناء المحادثة.

مبـدأ التعــاون

تتسبب عوامل سوء الفهم التي بيناها في المثال السابق في نوع من الإحباط، إذ يظن الناس عادة أن المبادلات اللفظية ستتسق في النهاية مع ما يطلق عليه الفيلسوف بول جريس Paul Grice مبدأ التعاون the co-operative principle ، فالناس عموماً يزعمون أنهم لا يتكلمون إلا بما يفي بالغرض وبخاصة في المحادثات التي يكون فيها تبادل المعلومات هو الأهم؛ فهم يظنون أنهم يتحدثون فقط بما يفي بغرض التواصل ونقل المعلومات التي يحتاجون إليها دون غيرها. ويتوقعون أيضاً أن ما يتحدث به محدثوهم يمس الموضوع الذي يتناولونه، وأن الرسالة واضحة سهلة الفهم. وفي الظروف الطبيعية لا ينتظرون منهم شيئاً بعيداً عن الواقع والحقيقة. وتحكم هذه القواعد الأربع لمبدأ التعاون في المحادثة – في جزء منها – توقعات المتحدثين والسامعين في المبادلات اللفظية القائمة على تبادل المعلومات.[20] فإذا أصيب السامعون بالإحباط أحياناً لأنهم يشعرون أن محادثيهم يسعون لإبلاغهم بمعلومات غير ضرورية أو جاوزت القصد، أو أنهم يريدون البعد عن الموضوع الأصلي، أو الأسوأ من ذلك يسعون لخداعهم، فهذا لأنهم يتوقعون منهم أن يلتزموا بقواعد السلوك التعاوني.

وقد يكون لدى المتحدثين ذوي المشارب الثقافية المختلفة تأويلات مختلفة للحقيقة ولما له صلة بها، وتفسير مختلف للاختصار والوضوح في سياق

المحادثة، وقد يكون لديهم تعريفات مختلفة لنشاط الكلام نفسه. فما يحدث في مواجهة كلامية بين محاسب وعميل في بنك في الهند قد يكون له مدلول اجتماعي مختلف في انجلترا. وقد نكون أمام تعريفين مختلفين لدور المحاسب والعميل في البلدين. ولكن الطرفين يدخلان في موجهة لفظية بزعم أنهما يتعاونان لإنجاز المهمة المطلوبة من هذه المحادثة.

أدوار المشاركين والبناء المصاحب للثقافة

بالإضافة إلى الأدوار المؤسساتية التي ينتحلها المتكلم بحكم عمله أو موقعه (كأن يكون محاسباً في بنك أو عميلاً أو مدرسا أو تلميذاً) فهناك أيضاً – كما يقول عالم الاجتماع إيرفنج جوفمان Erving Goffman – أدوار أخرى محلية أو إطارات مشاركة، على المتكلم والسامع أن يكتسبها بنفسه من خلال ما يقوله والطريقة التي يقوله بها. إذ يمارس المشارك في المبادلات الكلامية أدواراً اجتماعية مختلفة تكشف الكثير عن الشخصية الاجتماعية التي يريدون تمثيلها، وكما تكشف الكثير أيضاً عن الشخصيات الاجتماعية التي يدعونها لأنفسهم أمام محادثيهم. وهم يمارسون تلك الأدوار من خلال نوعية اللغة register[21] التي ينتمون إليها (في لغة فصحى أو غير فصحى)، ومن خلال نبرة الصوت (الجادة أو الهازلة أو لاذعة السخرية)، وعدد مرات التوقف عن الكلام، والطريقة التي يدخلون بها في المحادثة، والإشارات الاسترجاعية التي يعودون بها، واختيارهم للبنى المعجمية والنحوية، وطريقتهم في توزيع نوبات الصمت، أو قد يأتي الواحد منهم واثقاً أو حيياً، مهتماً أو غير مكترث، دانياً أو مبتعداً، معطاءً أو ممسكاً، بل وقد يتخذ الواحد منهم لنفسه دور الودود المحب، أو دور المنافس الشريف، أو دور المتسلط الطاغية، أو دور الأم الحنون.

وقد تختلف أدوارهم التفاعلية. خذ على سبيل المثال هذا التفاعل المتبادل بين 'أ' (زوج) و 'ب' (زوجة أ) و 'س' (صديقة وجارة):

أ: أتريد قطعة من الحلوى؟ A : Y' want a piece of candy?

ب: لا = B : No

س: = إنها تتبع حمية غذائية C : She' s on a diet

(انظر كتاب ديبورا شفرين: Approaches to Discourse ص: 107)

إن (س) في الوقع تساهم بكلمات ليست لها، بل كان ينبغي أن تكون لـ (ب). وقد يفهم تدخلها بالكلام نيابة عن (ب) على أنها تريد تقديم المساعدة، أو على أنها تحشر نفسها فيما ليس من شأنها، وكان ينبغي أن تهتم بأمورها الشخصية فحسب. كما يمكن أن ينظر إلى تدخلها في الكلام الذي جاء بعد رفض (ب) لعرض (أ) مباشرة على أنه مدخل لانعقاد الصلة بين (ب) و (س) وعلاقتهما بـ (أ). ولأن (س) صديقة قديمة وجارة لـ (ب) فقد يفهم كلامها على أنها تتبنى دور (ب) كشخص بعرض المساعدة لتبرير رفض (ب) بغرض التقليل من الأثر السيئ الذي أحدثه رفض (ب) على (أ). وفي سياقات أخرى قد لا يفهم حديث شخص بالنيابة عن آخر على أنه إشارة إلى تعاطف، بل إظهار لعلاقة سلطة غير موفقة مثل حديث الأم بالنيابة عن طفلها، أو حديث الزوج نيابة عن زوجته، أو حديث المدرس نيابة عن تلميذه.

إن الحديث بالنيابة أو التدخل من أجل التضامن مع ما يقوله الآخر هو واحد من الأدوار التي يقوم بها المشاركون في الحديث في علاقة كلماتهم بكلمات الآخرين. وقد يحق لنا أن نطلق على الدور الثاني دور المدير تأسيساً على السلطة المؤسساتية التي يمنحها المجتمع للمتحدث. ونطلق على الدور الثالث دور المؤلف أي الذي يزعم لنفسه المسؤولية عن أقواله. يستطيع المتحدثون إذاً أن يتحدثوا بوصفهم مؤلفين أو مسؤولين. وفي المثال السابق الذي ذكرناه

آنفاً نجد أن (أ) يقدم بعض الحلوى لـ (ب) بوصفه مستخدماً مسئولا للغة الإنكليزية، وثانياً بوصفه صاحب سلطة شرعية تسمح له بتقديم الحلوى إلى أصدقائه وأفراد عائلته. وقد يصبح المستمعون بدورهم - سواء أقر بوجودهم المتكلم أو لم يقر - مشاركين يلعبون أدواراً متباينة: دور المخاطب، والمستمع، والمتلصص، والمتفرج. وهنا تصبح (ب) وهي زوجة (أ) مخاطباً، أما (س) فهي الزائر المستمع المعترف به.

ويتحقق البناء المشترك للثقافة من خلال تفعيل هذه الأدوار جميعاً أي من خلال ما نطلق عليه "عمل اللغة في الأداء". فالأطفال مثلاً ليسوا كيانات بيولوجية فقط بل هم أدوار مشيدة اجتماعياً يقوم الوالدين على تنشئتهم ثقافياً ويتكلمون نيابة عنهم باستمرار، والأطفال يقبلون أن يتحدث الوالدين نيابة عنهم كما في المثال التالي:

كاثرين: ماما، الجورب. (تقصد متسخ.)

Kathryn: Mommy sock. /de/ - dirty.

الأم: نعم. كلهم متسخون. أعرف.

Mother: Yes. They're all dirty. I know.

إن الطفل infant الذي لا يكاد يبين (من الكلمة اللاتينية in-fans وهو الذي لا يجيد الكلام) كان يجب أن يتحدث أحد بالنيابة عنه، وقامت الأم بهذا الدور فتكلمت بما فهمت أن الطفل يعنيه. ويمكن قول الشيء نفسه عن التلاميذ الذين يحتاجون لتدخل المدرسين لتشجيع كلماتهم وتقييمها. فعضوية المدرسين والتلاميذ في ثقافة المدرسة تُعَرَف - في جزء منها - من الطريقة التي يميل إليها المدرسون بالتدخل لتشجيع كلمات طلابهم كما يتبين في المثال التالي حيث نجد المدرسة وتلاميذها في الفصل يتحدثون عن التفاح:

المدرسة: ما لون بذور التفاح؟ Teacher: What color are the pips?

الطفل 1: بنّي Child 1: Brown

الطفل 2 : أسود Child2: Black

الطفل 1: بنّي Child 1: Brown

الطفل 2: بنّي Child 2: Brown

المدرسة: نعم : إنها بنّية غامقة هذا صحيح.

Teacher: Yes they're dark brown that's right.

(Wells، Gordon Learning Through Interaction. 1981، page 217)

وكذلك ليست أدوار النوع (المؤنث والمذكر) نتيجة طبيعية للتركيب البيولوجي، ولكنها أدوار محددة اجتماعياً – أي يقوم النوعان (الذكر والأنثى) بأداء أدوار مختلفة كمشاركين في محادثة. ويساعد في تحقق هذه الأدوار منظومة من الإشارات الصغيرة، التي تظهر التأكيد على الذات أو الشك في قدرات الذات، كما تعمل على إظهار حب السيطرة أو الخضوع التام، وقد التصقت الصفات بمرور الزمن بنوع أو آخر من النوعين كما يبين المثال التالي:

الزوج: متى يكون العشاء جاهزاً ؟

Husband: When will dinner be ready?

الزوجة: أوه: ... حوالي السادسة... ؟

Wife: Oh … around six o'clock…?

(Lakoff, Robin. Language and Women's Place. New York: Farrar, Straus, and Ciroux 1976, page 17)

تفسر النغمة المرتفعة في صوت السيدة كثيراً على أنها إشارة إلى عدم الثقة بالنفس تتميز بها الأنثى مع عجزها عن تأكيد ذاتها (أو على العكس رغبة في مراعاة مشاعر الآخرين).

قارن بين هذا الموقف والموقف التالي:

Female: So uh you really can't bitch when you've tot all those on the same day (4.2) but I uh asked my physics professor if I couldn't chan ge that

Male: Don't touch that

Female: What?

Male: I've got everything jus' how I want it in that notebook you'll screw it up leafin' through it like that

(West, Candace and Don H. Zimmerman. 'Small Insults: A study of interpretation in Cross-sex conversations between unacquainted persons'. In B. Thorne, C. Kramarae, and N. Henely (Eds.) Language, Gender and society. Newbury House 1983, page, 105).

هنا قد تفسر مقاطعة الرجل للسيدة على أنها دليل للسيطرة الذكورية، أو على قدرة الذكر تغيير الموضوع كي يناسب أجندته الخاصة. ولكن ينبغي ألا يتعجل المرء في تفسير طبيعة دور مشارك ما في محادثة على أنه راجع إلى نوع الجنس قبل أن يرصد سلوك هذا الفرد في سياقات مختلفة مع مشاركين آخرين مختلفين من الجنس نفسه أو من الجنس الآخر.

ونقول في النهاية إن استخدام اللغة فعل ثقافي، ليس لأنه يعكس الطريقة

التي يتصرف بها الفرد مع غيره من الأفراد من خلال أفعال الكلام مثل الشكر والتحية والامتنان التي نجدها في ثقافات كثيرة، بل لأن مستخدميها يشتركون في بناء الأدوار الموغلة في التفاعل الاجتماعي التي تعرفهم بوصفهم أعضاءً في مجتمع خطاب ما.

خلاصة

يتألف نظام العلامات الذي ينتج الثقافة من الأفعال اللفظية التي يؤديها منتجو العلامة في خضم التفاعل بينهم. ونجد عند إنشاء المعنى أن كل شخص يستلهم تفسيره الخاص للحوادث من خبرته ومجال إدراكه. ويشترك سياق الموقف وسياق الثقافة – وهما المجالان اللذان تحدث فيهما الأفعال اللفظية – في إنتاج هذه الأفعال؛ لأنهما يمنحانها التماسك البراجماتي المطلوب. فحين يتحدث المتحدثون فإنهم ينطلقون في حديثهم من أطر للتوقعات يتقاسمونها مع أعضاء آخرين في الجماعة التي تحيا نفس تاريخ الحياة والسياق الثقافي الأوسع نفسه. وعلى أساس هذه التوقعات يضع المتحدثون أنفسهم بعد ذلك في مواجهة سياق الحال الخاص بتبادل معين عن طريق الإشارات المساقية. وتعد الإشارات المساقية دليلا على استدلالات الحال التي ينتجها المتحدثون تأسيساً على أطر التوقعات المشتركة من الناحية الثقافية التي تنطبق على الموقف المحلي للتبادل. و تمنح تلك الإشارات التبادل الحواري التماسك الدلالي المطلوب. ويبقي المشاركون على هذا التماسك اللفظي عن طريق إتباع مبدأ التعاون الحواري الذي يدفعهم إلى أن يضعوا توقعاتهم جنباً إلى جنب مع توقعات الآخرين حين يلعبون أدواراً متباينة كمشاركين. و تتناغم كل هذه الأفعال التي يصنعها المشاركون مع المعايير والأعراف الثقافية للجماعة التي ينتمون إليها وإلى مواقفها ومعتقداتها.

و تختلف معاني الكلمات حين نتحدث بها وجهاً لوجه مع الآخرين من القريبين منا، وحين نتحدث بها عبر المسافات من خلال وسائل الاتصال الحديثة في الكتابة والطباعة. وفي الفصلين القادمين سنقوم بدراسة ملامح الشفاهية والكتابية في صلتهما باللغة والثقافة.

مراجع الفصل الثالث

(1) ERNST CASSIRER: Language and Myth. (Tr. Susanne Langer). Dover 1945.

(2) CLIFFORD GEERTZ: The Interpretation of Cultures. Basic Books 1937 (see Text 10).

(3) JOHN J. GUMPERZ: Discourse Strategies. Cambridge University Press 1982.

(4) WILLIAM F. HANKS: Language and Communicative Practices. Westview Press 1996.

(5) BRONISLAW MALINOWSKI: Coral Gardens and Their Magic. Dover 1978 (American Book Company 1935)

الفصل الرابع
اللغة المنطوقة والثقافة الشفاهية

رأينا في الفصل الماضي كيف يسعى المشاركون في التفاعلات اللفظية إلى أن يجدوا لأنفسهم ولغيرهم فضاءً ثقافياً من الدلالات يمارسون فيه أدوراً اجتماعية متباينة. وسنتناول في الفصلين التاليين بالتفصيل كيف تشترك وسيلتا الكلام والكتابة، وهما وسيلتان مختلفتان كل الاختلاف، في تشييد البناء الاجتماعي.

تتصل الوسيلة المنطوقة اتصالاً مباشراً بزمن التلفظ بها، وبإدراك السامعين للأبعاد المؤقتة للحوادث اللفظية. أما تقانة الكتابة فهي على النقيض من ذلك، كانت حلقة الوصل الفضائية بين العقل واليدين، وهي قادرة على التغلب على الطبيعة السمعية المؤقتة للغة المنطوقة؛ وذلك بتحويلها إلى علامات أكثر دواماً ووضوحاً على الصفحة المكتوبة. وفي ما يلي نبدأ دراسة الاختلافات بين الوسيلتين.

الكلام والكتابة

من الصعب – إن لم يكن من المستحيل – علينا أن نلم إلماماً تاماً بخبرات المجتمعات التي تميزت ثقافتها بالشفاهية المطلقة قبل اختراع الكتابة. ومصطلح الشفاهية orality نفسه معروف لدى المتخصصين بوصفه مناقضاً لمصطلح الكتابية، وقد قام بوضعه متعلمون literate في سياق مجتمع متعلم literacy. ومع اكتشاف الكتابة والطباعة فيما بعد وجدنا الأميين أنفسهم يعيشون هذه الأيام في عالم تبدل وعيه تماماً. ومن ثم كانت عودة الشفاهية

الأولى ضرباً من الخيال. على أن آثاراً من الشفاهية لا تزال باقية في الكلام والكتابة على حد سواء – فهناك ملامح في استخدامات اللغة تعود باللغة إلى أيام الشفاهية الأولى قبل استخدام الكتابة. ومن تلك الآثار استطاع العلماء أن يقفوا على الخصائص السبعة التي يتميز بها الخطاب الحواري بوصفه مختلفاً عن الكتابة ذات الطابع الاستعراضي التفسيري. ويمكن أن نجمل هذه الخصائص في النقاط التالية:

(1) إن الكلام عرض زائل وليس دائم البقاء؛ فالمتكلمون قد لا يتكلمون في الوقت نفسه بسبب قيود جسمانية أو مادية، أو قد لا يسمعون ما يقوله الآخرون. فهم مقيدون بتوزيع الأدوار أثناء الكلام وهو توزيع لا يتبدل عادة. وعلى النقيض من ذلك نجد أن اللغة المكتوبة قابلة للحفظ والاستعادة والتذكر، وأنه يمكن تأجيل الاستجابات. وتعد اللغة المكتوبة أكثر مهابة وتأثيراً من الكلام المنطوق؛ لأنها لا تكون هدفاً للتحدي وقت كتابتها كما هو الحال في اللغة الشفهية. زد على ذلك أن استمرار الكتابة كوسيلة للاتصال من شأنه أن يدفع الناس إلى افتراض أن ما تعبر عنه هو شيء سرمدي أيضاً، ومن هذا المأتي تتوثق العلاقة المهمة بين الوثائق المكتوبة والقانون.

(2) الكلام المنطوق قابل للإضافة إليه، وهو حماسي وعاطفي؛ إذ يميل المتكلمون – بسبب الطبيعة الحوارية للتفاعلات الشفاهية – إلى الحماس في كلامهم وتدبيج ما يقولونه بعبارات مكررة وإضافة عبارات أخرى إليها مثل (حروف العطف "و.. و" "ثم ... وثم" ...) وبذلك تظهر المشاركة الحوارية من خلال تشييد دورهم الخاص بهم في ثنايا المحادثة. وعلى النقيض من هذا نرى المعلومات التي يتم نقلها في الكتابة تتسم بتسلسل هرمي في العبارات، وتُرَتب ترتيباً

خطياً على الصفحة المكتوبة من اليسار إلى اليمين، أو من اليمين إلى اليسار، أو من أعلى إلى أسفل حسب العرف الثقافي المتبع. وكذلك تتميز اللغة المكتوبة ببنية من المعلومات تتسم بدورها بدرجة عالية من التماسك؛ وذلك أن اللغة المكتوبة موجهة أساساً إلى قارئ بعيد أو مجهول أو قارئ لم يولد بعد.

(3) الكلام إجمالي، أي يفيد من التركيبات الإجمالية بوصفها تعبيرات صياغية أو مساحات جاهزة من الحديث تبقي على التواصل بين المتحدثين. ويطلق عليها أيضاً اسم "تبادل المجاملة phatic communion". بينما يشار إلى الكتابة على أنها الوسيلة التي تشجع على التحليل والاستنتاج المنطقي والتصنيف المجرد لما تتميز به من غياب الاتصال المباشر وقدرتها على توصيل المعلومات عبر الأزمنة والمسافات، فضلاً عن قابليتها للقراءة وإعادة القراءة عند الحاجة وعند الضرورة.

(4) يتميز الكلام بالإسهاب والوفرة؛ إذ لا يكون المتحدث على ثقة من استماع سامعه إليه وتنبهه إلى ما قاله، فضلاً عن فهمه وتذكره. ومن ثم يميل المتحدث إلى التكرار وإعادة الصياغة والحديث بأسلوب مختلف، بينما تميل اللغة المكتوبة إلى البعد عن الإسهاب لأنها لا تحتاج إلى الإعادة، وليس التكرار من طبيعتها.

(5) يتميز الكلام ببنية حرة فضفاضة نحوياً وصرفياً، بتناثره من ناحية المفردات والمعجمية على عكس الكتابة التي تتميز بالبناء المحكم نحوياً وصرفياً، وبالكثافة من ناحية المفردات المعجمية. ولكن ما الذي يعنيه هذا كله؟ والمقصود هو أن المتحدثين يجدون أنفسهم مجبرين على معالجة الكثير من المواقف أثناء تركيزهم على ما يقولونه وعند إجراء

حوارهم مع الطرف الآخر. ولذا تجد أن كلامهم يتميز باستهلالات مبتدعة، ووقفات مشغولة، وأخرى شاغرة، ونوبات من التردد، وملاحظات اعتراضية، وجمل ناقصة. فهم يصنعون كلامهم وهم ينطقون به. والطريقة الوحيدة التي تحفظ لهم توازنهم أثناء المحاورة هي استخدام حصيلة النحو التي لديهم لأنها تسعفهم في التخلص من هذه المواقف العاجلة على أن تكون المفردات قليلة ومتناثرة قدر الإمكان. وعلى النقيض من ذلك نجد أن الكتاب لديهم من الوقت ما يستغلونه في حشد ما استطاعوا من المعلومات في العبارة الواحدة مستغلين في ذلك جميع مصادر التراكيب التي تتوفر في اللغة. في مقدورهم إيجاز قدر كبير من المعلومات في حيز ضيق باستخدام عبارات اسمية مكثفة مثلاً. ويتضح الفرق بين الكتابة والكلام في المثال التالي:

Written المكتوب	Spoken المنطوق
Every previous visit had left me with a sense of the futility of further action on my part. في كل زيارة لهذا المكان كنت أخرج بإحساس أن أي محاولات أخرى من جانبي ستكون عديمة الجدوى.	'Whenever I'd visited there before. I'd ended up feeling that it would be futile if I tried to do anything more.' كل مرة أروح فيها ها المكان، كنت أحس إني ما اقدرش اعمل أي حاجة أخرى.

Improvements in technology have reduced the risks and high costs associated with simultaneous installation. قلل التقدم التكنولوجي من مخاطر التكلفة العالية المرتبطة بالتركيب التلقائي.	'Because the technology has improved, it's less risky than it used to be when you install them at the same time, and it doesn't cost so much either.' لأن التقانة تحسنت قل الخطر وقلت التكلفة العالية بسبب التركيب التلقائي.

(Halliday, M. A. K. Spoken and Written Language. Oxford University Press 1985, page 81)

(6) ينصب الاهتمام في الكلام المنطوق على المتحاورين people-centered، بينما يكون محور اهتمام الكتابة هو الموضوع نفسه topic centered. فوجود مستمعين والحاجة إلى استمرار الحوار يجعل المتحدثين لا يركزون على موضوع الحديث فقط،، وإنما يسعون أيضاً إلى جذب انتباه مستمعيهم ونيل إعجابهم وتعاطفهم. أما في الكتابة التفسيرية يصبح الموضوع أو الرسالة هو الأهم، فضلاً عن إمكانية نقلها من سياق إلى سياق آخر. ويسعى كتَّاب النثر التفسيري إلى أن تكون الرسالة التي يريدون نقلها واضحة قدر الإمكان وبعيدة عن الغموض علاوة على ترابطها المنطقي وثقة القارئ بفحواها، وما ذلك إلا لعدم تواجدهم في كل مكان كي يشرحوا للقارئ ما يقصدون، أو ليدافعوا عن آرائهم. وبطبيعة الحال فهناك من النصوص المكتوبة – خاصة الأدبية أو الخطابية – ما ينال إعجاب القراء ويكسب ودهم، ويظهر ملامح كثيرة من تلك الملامح التي تميز الكلام.

(7) إن الكلام مقيد بالسياق context-dependent وذلك لأنه ملازم للموقف الراهن. أما الكتابة فهي محذوفة السياق context- reduced لأن هناك مسافة بين تلقيها وسياق نشأتها الأصلية كما نجد في التواصل الشفاهي اشتراك أكثر من طرف في بناء الحقيقة، كما يعتمد هذا التواصل على خبرات الذوق العام؛ وذلك بسبب الطبيعة الحوارية dialogic للمبادلات الشفهية، بينما نجد الحقيقة في الخطاب الكتابي تعتمد على المنطق، وتماسك الحوار الجاري بين المتحدثين.

وهذه الملامح السبعة السابقة ليست فطرية أو متأصلة في الظاهرة الكلامية ولا في الظاهرة الكتابية. فالشفاهية والكتابية باب واحد وكم متصل. نجد خصائص كل منهما في الأخرى. فالمذكرة والرسالة الإلكترونية والرسالة العلمية شأنها جميعاً شأن المحاورة والمحاضرة الأخلاقية كتبت بلغة قريبة النسب بالشفاهية. وكذلك نجد أن المحاضرة الأكاديمية والعرض العلمي لا يختلفان كثيراً عن المقالة المتخصصة، إذ تقترب لغتها الملفوظة من الكتابية. وفي الشعر نجد أن قصيدة مثل قصيدة إملي دكنسون التي استشهدنا بها في صدر هذا الكتاب، تحمل كلا الملامح الشفاهية والكتابية كما سنبين في الفصل الذي سيلي هذا الفصل.

أضف إلى ذلك أن المهارات المعرفية التي ارتبطت بالكتابة ليست من لوازم تقانة الكلمة – وقد أصبح هذا موضع نقاش مكثف في السنوات الأخيرة. وبالرغم من تميز الوسيلة المكتوبة بملامح فيزيقية خاصة بها، فليس في حروف الهجاء والكتابة ما يجعلها أكثر ملاءمة للتفكير المنطقي والتحليل أكثر من اللغة الشفاهية المنطوقة. ولكي نفهم لماذا أصبحت الكتابة مرتبطة بالمنطق والتحليل يحسن بنا أن نفهم العلاقة التاريخية بين اختراع حروف الهجاء الإغريقية وبين فلسفة أفلاطون وتأثير التمييز الواضح الذي طرحه أفلاطون

بين الأفكار واللغة على الفكر الغربي قاطبة. فالمصادفة الثقافية والتاريخية - وليست التقانة - هي التي تحدد طريقتنا في التفكير ولكن التقانة تعمل على تغليب طريقة في التفكير على طريقة أخرى. التقانة مرتبطة بالقوة دائماً كما أن القوة مرتبطة دائماً بالثقافات الغالبة.

والآن نتحول إلى الوسط الثقافي للغة كما يظهر لنا في استخدامها في المبادلات اللفظية، وسوف نركز بصفة خاصة على الطريقة التي يعبر بها أعضاء مجتمع كلامي ما عن بنائه الاجتماعي، وكيف يظهر هذا البناء في اللغة، وكيف ينتظم، وكيف يستمر من خلال الطريقة التي يستخدمون بها اللغة لبناء موقعهم في مواجهة الآخر والحفاظ على وجههم الاجتماعي، وبصفة عامة لكي يجعلوا من اللغة قالباً يضعون فيه خبراتهم بأسلوب يناسب أعراف الجماعة.

الوضعية التأشيرية

إن ما يتلفظ به الناس في محادثاتهم اللفظية (مثل: بيل، لم لا نلتقي هنا غداً؟ (A: Bill, why don't you meet me here tomorrow? إنما يستقر في نهاية المطاف عند منظور المتكلم "A" كما هو واضح في الكلمات 'you' و 'me' و 'here' و 'tomorrow'. وتسمى هذه كلمات إشارية deictics. إن العلامات التأشيرية الاجتماعية markers of social dexsis لا تشير فقط إلى موقع المتكلم في الزمان today والمكان here' ولكنها تشير أيضاً إلى وضعية المتحدث أو المتحدثة في البنية الاجتماعية، وأيضاً إلى الوضعية الاجتماعية التي يمنحها المتحدث للسامع. ونضرب لذلك مثلاً استخدام كلمتي vous و tu في اللغة الفرنسية وكلمتي Sie و du في الألمانية، وهي كلمات تشير index إما إلى امتلاك سلطة أو تضامن، كما تشير إلى البعد والقرب. وكان الإنكليز

يستخدمون في الماضي الضمير 'you' للإشارة إلى المسافة بين المتكلم والسامع والضمير 'thou' للإشارة إلى القرب. أما الآن فقد توقف الإنكليز عن استخدام 'thou' واكتفوا باستخدام 'you'. بيد أن التأشيرية الاجتماعية في اللغة الإنكليزية ما انفكت تعبر عن الوضع الاجتماعي للمتكلم والمخاطب بصيغ أخرى مثل 'Bill' و 'Bill X' و 'Mister X' و 'Professor X' وهكذا. و تشير هذه الأشكال من الخطاب إلى الطبقة الاجتماعية مثل استخدام الفرنسيين لكلمة 'vous' التي ما زالت تستخدم بين الآباء والأبناء في عائلات بعض الطبقات العليا. وتشير هذه الأشكال من الخطاب أيضاً إلى ثقافة جيلية generational - إذا صح التعبير - كما يحدث كثيراً اليوم في استخدام 'tu' أو 'Du' الشائع بين الطلاب والشباب في اللغتين الفرنسية والألمانية. كما تشير إلى ثقافة تدعي المساواة بين بني البشر، أو الديمقراطية كما في استخدام أشكال الخطاب غير الرسمية في الولايات المتحدة مثل ('call me Bill' و 'dear friend'). وعندما يستخدم رجال الشرطة في فرنسا لفظة 'tu' غير الشائعة لمخاطبة الشباب القادمين من شمال أفريقيا فإنهم - أي رجال البوليس - يستعرضون قوتهم القانونية أمام هؤلاء، إذ يشير استخدام 'tu' في الخطاب إلى المكان المهمش التابع الذي يحتله هؤلاء الشباب في المجتمع الفرنسي اليوم.

حالات التموضع الاجتماعي

يعد استخدام الكلمات الدالة على الوضع الاجتماعي كالضمائر وصيغ الخطاب والأسماء، من الطرق التي يسعى المتكلمون من خلالها للتوافق مع السياق الثقافي كما يفهمونه. وقد رأينا في الفصل الثالث كيف تؤدي التغييرات في نغمة الصوت والنطق إلى تغييرات في فهمنا لدورنا كمشاركين في عملية التفاعل وفي التناغم مع الآخرين. وقد أطلق جوفمان Goffman على هذا التموقف اسم الوضع أو الموضع footing أي الموقف الذي نتخذه أمام الآخرين

من خلال الطريقة التي نقوم بها بإنتاج الكلام أو استقباله. فتغيير الوضع عادة ما يستدل عليه بتغيير في نوعية اللغة(22) ونغمة الصوت أو اتجاه الجسد. على سبيل المثال: كثيراً ما يحدث أن يتحدث شخص من شمال الولايات المتحدة إلى شخص من جنوبها فيقوم الشمالي بتكييف طريقتها / أو طريقته في الكلام حسب طريقة الجنوبي كعلامة على التعاون الحواري. وكذلك عندما يقوم متحدث من أبناء اللغة بتبني أسلوب حديث الأجانب في الكلام عندما يتحدث إلى أحد الأجانب. وهو بذلك يظهر تحولاً يمكن تفسيره - كما سنرى في الفصل السادس - إما على أنه تعاطف ثقافي أو إظهار لقدرة ثقافية. وقد نرى شيئاً من هذه الظواهر في قاعات الدرس، فالمُدَرسة تتحدث مع طلاب الفصل بطريقة تختلف عن حديثها عند مخاطبة كل تلميذ على حدة.

1 - Now listen everybody

2 - At ten o'clock we'll have assembly. We'll go out together and go to the auditorium and sit in the first two rows. Mr. Dock, the principal, is going to speak to us. When he comes in, sit quietly and listen carefully.

3 - Don't wiggle your legs. Pay attention to what I'm saying.

1- اسمعوا كلكم

2- في العاشرة تماماً سنجتمع وسنذهب كلنا إلى قاعة الاجتماعات ونجلس في الصفوف الأمامية وسيتحدث إلينا السيد دوك مدير المدرسة. وعندما يدخل اجلسوا بهدوء واستمعوا باهتمام.

3- لا تهزوا أرجلكم. انتبهوا لكلامي.

(Goffman, Erving, Forms of Talk, Philadelphia: University of Pennsylvania Press 1981, page 127)

هنا نجد الانتقال من نبرة صوت إلى نبرة صوت مختلفة، كذا التغيير في الضمائر من 'everybody' إلى 'we' و 'I' وهو ما يجعل الفرق واضحاً بين الكلام في الجملة رقم 1 و 2 والكلام في الجملة رقم 3. كما نجد هنا ثلاثة مواضع footings ينطوي عليها الكلام. في الجملة الأولى نجد المُدَرسة تمارس سلطة وتحاول توجيه السلوك الراهن لتلاميذها، أما الثانية فاستعراض للتجربة القادمة مع مدير المدرسة، بينما الثالثة ما هي إلا ملاحظة جانبية لطفل بعينه. إن المُدَرسة - بوصفها متكلم - تنتقل من دور إلى دور؛ فتارة تلعب دور المدير داخل الفصل (بحكم عملها كمدرسة) أي تمثل الصوت المؤسسي للمدرسة، وتارة أخرى تعلب دور معلمة الفصل التي تستثير أصوات تلاميذها وتحثهم على المشاركة من خلال استخدامها اللطيف euphemistic للضمير 'we'، وتارة ثالثة نجدها تلعب دور الأم أو المربية التي يجب الاستماع إلى كلامها. ويشير الانتقال في نوعية اللغة إلى انتقال في الانحياز الثقافي: من الإشارة إلى المُدَرسة بوصفها عضواً في ثقافة مؤسسية تتبع المدرسة التي تعمل بها إلى هويتها كمتحدث فرد، رغم تمتعها بسلطة المسئولين. كما يشير التحول في نغمة الصوت ونوعية اللغة إلى تغيير واضح في الوضع footing.

ويتم تحديد وضع المرء أيضاً عن طريق تبديل الشفرة code-switching. ففي الفقرة الشهيرة في رواية توماس مان (الجبل السحري The Magic Mountain) يتعرف البطل الألماني هانز كاستروب على الفاتنة كلوديا تشوشات التي كانت نزيلة بمصحة في إحدى المرتفعات السويسرية. وفي هذا المكان البعيد عن أي أعراف ثقافية محددة، وبفضل الحرية التي يمنحها الجو الشاعري ليلاً في مدينة الملاهي تجرأ هانز كاستروب على مخاطبة مدام تشوشات بالضمير du في الحوار التالي:

- 'Hast du vielleicht einen Bleistift?'
- 'Ich? … Ja, vielleicht .. Du bist sehr ehrgizig … Du bist … sehr

eifrig … Voila! …'
- Siehst du wohl, ich wußte doch, daß du einen haben würdest.'
- 'Prenez garde, il est un peu fragile', sagte sie. 'C'est à visser, tu sais.'
- [(German) Do you happen to have a pencil?
- Me? Perhaps I have … you are so eager .. you are … very ambitious … (French) There!
- (German) You see, I knew you would have one.
- (French) It is meant to be screwed, you know.]

(Mann, Thomas. Der Zauberberg. Frankfurt: Fischer 1965, page 305)

بهذا الانتقال الاستهلالي من صيغة 'vous' الدالة على وجود المسافة والفرق إلى صيغة du/tu الدالة على القرب والحميمية، وكذلك بالانتقال غير المقيد بين اللغتين الألمانية والفرنسية، يجد المهندس الألماني والفتاة الأرستقراطية الروسية أرضية ثقافية مشتركة يستخدمها كاستروب ليعلن عن حبه لها باللغة الفرنسية. هذه التغييرات في الوضع footing تساعد الشاب الألماني بطل القصة على مواجهة عجزه عن الاختيار بين التأثيرات الغربية والشرقية على روحه الألمانية، وأن يجد هويته الخاصة بوصفه ألماني (انظر الفصل السادس).

ليست التغييرات في الوضع كلها بالقدر نفسه من الإثارة، بيد أنها تتسق جميعها مع تغيير الطريقة التي نفهم بها الأحداث. فالتغيير في الوضع مرتبط بالتغيير في حالتنا النفسية تجاه الأحداث أو الإطار الذي نوجد فيه Frame.[23] وكما رأينا في الفصل الثالث فإن التأطير – أو قدرتنا على إيجاد إطار من التفسير للحادثة اللفظية أو الكلامية من خلال الإشارة المساقية (في هذه الحالة يكون الانتقال في التأشيرية الاجتماعية وفي الشفرة)، هو طريقتنا

في ربط الحادثة الكلامية بأحداث كلامية أخرى مشابهة لها كنا قد جربناها، ولكي نتمكن كذلك من توقع أحداثاً مستقبلية أخرى. إن المشاركة في أطر التفسير هي التي تجعل الناس يعرفون أنهم يشتركون في ثقافة واحدة.

نورد هاهنا – على سبيل المثال – إطارين مختلفين في بداية مناقشتين لجماعيتين: الأولى باللغة الإنكليزية بين طلاب أمريكيين، والثانية باللغة اليابانية بين طلاب يابانيين.

ففي معرض الإجابة عن السؤال: Why did you decide to study "Japanese?" أي لماذا قررت دراسة اللغة اليابانية؟ بدأ الطلاب الأمريكيون حوارهم كالتالي:

Jenny: I hate oops

Teacher: go ahead

(pause 3:5 seconds; sounds of opening and closing a door as teacher leaves the discussion room)

Beth: Okay::

Mike: So, Beth, why did you decide to learn Japanese

Sean: Why.

Beth: Uhm ... I guess I decided to learn Japanese because (Beth continues)

(Watanabe, Suwako. 'Cultural differences in framing: American and Japanese group discussions. 'In Tannen, D. Framing in Discourse. Oxford University Press 1993, page 182)

أثناء فترة التوقف التي استمرت من 3 إلى 5 ثوان تغير انحياز المشاركين من إطار ما قبل المناقشة إلى إطار المناقشة. وتشير كلمة 'Okay' التي قالتها بث إلى بداية إطار هذه المناقشة التي أُخذت على أنها واجب تعليمي يجب

تأديته بالكفاءة المطلوبة. وبتأطير المبادلة اللفظية على هذا النحو فإن الطلاب الأمريكيين يواصلون أسلوباً في المناقشة هو صورة من الأسلوب المتبع في الثقافة الأكاديمية الأمريكية الذي تعرض فيه المشكلة أو القضية أولاً ثم يقوم من يأخذ بزمام المبادرة بالبدء في مناقشتها دون جلبة إضافية من أحد.

وعلى النقيض من هذا فحين طرح السؤال Why did you decide to 'study abroad?' (لماذا قررت الدراسة في الخارج؟ على الطلاب اليابانيين) بدأوا مناقشتهم كما يتبين في الحوار التالي (ترجمة بالإنكليزية):

Teacher: Then, please

Yasuo: Let's see, as you see, uhm, basically we'll follow the number

Keilo: that's right. Number one, number

Fumiko: h-h-h-h

two, and number three.

Yasuo: Him. It's easy to get in.

Keiko: That's right. Then…

well, the top one, each one of us has to talk in turn, I wonder.

Fumiko: That is so.

Yasuo: That's right … following

Numbers, how are we going to do…

Ikuo: Ladies first

Fumiko: please

Yasuo: Oh, that sounds good.

Fumiko: [though]

Keiko: [laugh]

Keiko: Then, from the younger one [laugh]

Fumiko: please [laugh]

Fumiko: No. No. Big sister. [laugh]

Keiko: What?

Ikuo: It doesn't matter, does it.

Keiko: As you see, [Keiko takes turn]

(Ibidem, pages 184-5)

من خلال هذا التدريب المفصَّل في التأطير يبدو لنا أن المتحدثين اليابانيين لم يهتموا فقط بمناقشة المظاهر الإجرائية للحوار وإنما بدأوا بمناقشة الترتيب الهرمي داخل الجماعة. فقضية من يتحدث أولاً تشكل أهمية قصوى في الثقافة اليابانية. وفي المحاورة السابقة لم يقرر أي من المتحاورين أن يبدأ بالكلام كما حدث في حوار المجموعة الأمريكية. ونلاحظ في جميع مناقشات الجماعات اليابانية أن الجنس اللطيف هو الذي يبدأ بالكلام فتتحدث سيدة ثم سيدة أخرى ثم أصغر الشباب سناً ثم يأتي بعد ذلك الأكبر سناً من الذكور في الختام. ولا يقرر المتحدث هنا نوعية اللغة التي يتحدثون بها، أو الألفاظ التي يختارونها قبل أن يفرغوا من تثبيت الوضع الاجتماعي وإنزال كل متحدث منزلته الاجتماعية. وليس الإخفاق في استخدام الصيغة اللغوية المناسبة إلا نتيجة واحدة هي فقدان الوجه loss of face أي قدرة المتحدث الاجتماعية إلى الانتماء إلى جماعة معينة، والاستقلال عن هذه الجماعة. قام اليابانيون من خلال تأطيرهم للمقابلة في مناقشة محكمة ومخططة تأسيساً على الخطوات الإجرائية الصحيحة بتفعيل ثقافتهم اليابانية والسير في ركابها، وهي ثقافة تراعي إلى أقصى درجة الحاجة المتبادلة لإنقاذ الوجه الاجتماعي (انظر الفصل التالي). وفي أثناء ذلك أعادوا إنتاج طقوس الثقافة اليابانية

من استعراضات كلامية ومقابلات ومناقشات أخذت شكل الندوة أو نقاشات الدائرة المستديرة المعروفة في وسائل الإعلام بغية الحصول على حكايات حية من حديث المتكلمين. باختصار جسد اليابانيون بنية مجتمعهم وقاموا بتفعيل متطلبات الحادثة الكلامية وفقاً لثقافتهم.

حمـــاية الوجـــه

إن الهدف النهائي من تعيين الأطر والأوضاع frames and footings في الحوارات هو حماية وجه face المتكلم أو المشارك؛ وذلك لأن مبدأ التعاون الذي تعرضنا له في الفصل السابق إنما يسعف كشرط أساسي من شروط التفاعل الاجتماعي المتصل ويجسد فهم الذات الثقافي للجماعة أكثر من كونه موجهاً لسلوك الفرد الشخصي.

ويحتاج الأعضاء في أية جماعة ثقافية إلى الإحساس بالاحترام، وأن أحداً لن يمس استقلالهم وكبرياءهم وثقتهم بأنفسهم (وجه سلبي)، كما يحتاجون لمن يدعم فكرتهم عن أنفسهم بأنهم مهذبون ومراعون لأحاسيس الآخرين، وأنهم أعضاء محترمون في ثقافتهم (وجه إيجابي). هاتان الحاجتان المتناقضتان تحتاجان إلى جهد حذر وبارع من تحسين الوجه facework لأن كل طرف من أطراف المجابهات اللفظية يهتم بالذود عن وجهه الاجتماعي، سلبياً كان أو إيجابياً، كي يستمر التواصل. وفي المثال السابق الذي سقناه عن اليابانيين نجد أن الشخص الذي بدأ الحديث هو الشخص الذي تعرض لأكبر خسارة في وجهه الاجتماعي لأنه يتوجب عليه أن يستهل المحادثة دون أن يعرف أين يقف الآخرون: فترتيب الأدوار هنا يتم بطريقة غير مباشرة بحيث يحتل الأصغر سناً والأقل مكانة أدواراً أبكر؛ ربما لأن وجههم الاجتماعي يعتبر أقل أهمية بينما الأكبر سناً والأعلى مكانة يحتلون الأدوار المتأخرة.

يعمل ترتيب الأطر والأوضاع، وكذلك الجهد المبذول في تحسين الوجه، في المجابهات اللفظية بين أعضاء جماعة اجتماعية معينة، على ظهور أساليب في الخطاب تحددها الجماعة. أهم ما يميز بين من ينتمون إلى ثقافات مختلفة - كما سنرى في الفصل القادم - هي الطرق المختلفة في استخدامهم أساليب الخطاب الشفاهية والكتابية في أنواع الخطاب المختلفة لتحقيق أغراض اجتماعية متباينة.

الأسلوب الحواري

نجد في المبادلات اللفظية المباشرة أن اختيار الملامح الشفاهية للكلام يمنح المشاركين إحساساً بالانهماك البيشخصي (أي بين الأشخاص interpersonal) المشترك أكثر منه بالانفصال والموضوعية المصحوبة بنقل المعلومات الواقعية مجردة من أي مشاعر. وتفضي سياقات الموقف المختلفة وسياقات الثقافة المختلفة في النهاية إلى أساليب حوارية conversational styles متباينة.

لنقارن مثلاً بين مقابلة هدفها الحصول على معلومات، وحوار بين أصدقاء يهدف إلى المشاركة في استحضار خبرات ماضية.

مقابلة بين صحفي ومتدرب شاب في ألمانيا:

A: and where do you work? وأين تعمل؟

B: I work in the metal industry أعمل في مجال صناعة المعادن

A: uhuh ... why do you choose that particular job? in the metal industry?

أووه ... ولم اخترت هذه الوظيفة بالذات؟ في صناعة المعادن؟

B: well ... it was ... so to speak ... the job of my dreams. I wanted to work, but not particularly an intellectual job, but a more physical one

حسناً ... كانت ... كما يقولون ... وظيفة أحلامي. كنت أريد العمل، ولكن في وظيفة غير ذهنية، كنت أريد وظيفة بدنية أكثر.

A: so ... you can say that you chose that job yourself?

إذن يمكنك القول إنك اخترت هذه الوظيفة بنفسك؟

B: I chose that job myself اخترت هذه الوظيفة بنفسي

(Kramsch, Claire. Discourse Analysis and Second Language Teaching. Washington, D.C.: Center for Applied Linguistics 1981, page 62)

نستطيع أن نتعرف على الأسلوب النمطي للحادثة الكلامية التي نسميها 'المقابلة الصحفية من خلال تتابع الأدوار المحكم غير المتداخل بين الصحفي والشاب، ومن خلال تحري الصحفي للموضوعية المهنية بعيداً عن أية عواطف، ومن خلال الإجابات الحذرة للمتدرب الشاب الراغب في إظهار استعداده للإدلاء بالمعلومات المطلوبة. يختلف هذا الأسلوب الصحفي الكتابي اختلافاً تاماً عن الأسلوب الشفهي الذي قد يصادفه المرء في الحوارات التي تدور بين الأصدقاء:

يدور الحوار التالي بين بيتر وديبورا وكلاهما ينتميان إلى خلفية يهودية ويعيشان في نيويورك:

Peter: What I've been doing is cutting down on my sleep

Deborah: Oy! [sighs]

Peter: And I've been ... and I s

Deborah: I do that too but it's painful.

Peter: Yeah. Five, six hours a night, and

Deborah: Oh God how can you do it. You survive?

(Tannen, Deborah. Conversational Style. Analyzing Talk Among Friends. Norwood, N.J.: Ablex 1984. page 82)

هنا نجد أن خلفية بيتر وديبوار الثقافية المشتركة تتجلى من خلال أسلوب حواري شفهي مميز تشير فيه العناصر الصوتية شبه اللغوية paralinguistic signals – مثل التنهد وصيغة التعجب (مثل !oy) – إلى التعاطف، بينما يشير الاستخدام الكثيف لضمير المتكلم'I' و ضمير المخاطب 'you' إلى انهماك في الذات ومع المستمع على حد سواء. كذلك نجد أن المقاطعات والمداخلات المتكررة في الحوار تشير إلى درجة عالية من التعاون الحواري، كما نلاحظ أن هذه هي الطريقة التي تفسر بها ديبورا هذه الظواهر. إن المتحاورين ذوي المشارب الثقافية المختلفة ومن ينم أسلوبهم الحواري عن قدر أكبر من التعليم، ويتميز بالإيجاز والاختصار واهتمام أكثر بالدقة، هؤلاء قد يفسرون التداخلات والإشارات الجانبية والاعتراضات لا على أنها تعاون بل على أنها انتهاكات كثيرة ومتعددة لعالمهم الحواري. وقد ينظرون إلى ديبورا وبيتر بوصفهم اثنين من الثرثارين لا يطاقان، وقد تنظر ديبورا وبيتر بدورهما إليهم على أن هؤلاء قوم متحفظون فاترون غير اجتماعيين.

و تُفهم أحياناً وصلة الحوار الشفاهي/ الكتابي بطرق مختلفة في أنماط ثقافية مختلفة مثل المقابلات الصحفية والحوارات بين الأصدقاء. كما تفهم أيضاً بطرق متباينة في تقاليد ثقافية مختلفة داخل النوع الثقافي الواحد كما يحدث داخل قاعة الدرس مثلاً. ونضرب لهذا مثلاً أطفال الهنود في معسكر وورم سبرنجز Warm Springs بولاية أوريجون Oregon الأمريكية الذين اعتادوا التعلم عن طريق الإنصات إلى شيوخ أسرهم ومراقبتهم في صمت، وكذلك بالمشاركة في الأحداث الاجتماعية في مجتمعهم جملة، يُظْهِر هؤلاء الأطفال سلوكاً تفاعلياً يختلف على نحو ملحوظ في قاعة الدرس عن سلوك أقرانهم في الفصل من الأنجلوأمريكيين والمدرس رغم أن الجميع يتحدثون الإنكليزية. هؤلاء الأطفال يلتزمون الصمت في الغالب ولا يستجيبون للإغراءات التي تحثهم على إظهار معرفتهم على الملأ، ولا يسعون وراء جذب اهتمام المدرس، وهم أيضاً أكثر اهتماماً بالعمل الجماعي مع أقرانهم.

لا شك أن بمقدور الناس إظهار مستويات مختلفة من الأساليب الحوارية في مواقف مختلفة، وعلى المرء أن يتفادى المساواة بين شخص واحد أو ثقافة واحدة بأسلوب خطابي واحد. مثلاً: نجد أن ديبورا وبيتر يتمتعان بقدرة كاملة على تبني أسلوب خطاب ينم عن تعليم وثقافة في المواقف التي تنشأ خلال المقابلة الصحفية، وأما أطفال الهنود، في ورم سبرنجز، فيستطيعون إدارة دفة الحوار بحرفية حين يصبحون بين أقرانهم خارج المدرسة أو خارج قاعة الصف. على أن الاستعداد الطبيعي والنشأة خليقان بأن يدفعا الناس لتفضيل أسلوب على آخر في موقف معين. ويشكل هذا الأسلوب، بدوره، جزءاً من هويتهم الثقافية وإحساسهم بأنفسهم كما سنرى في الفصل السادس.

إذا كانت جميع الأساليب الحوارية صحيحة على حد سواء لأنها تعكس قيم مجتمعات الخطاب التي نشأت بها وكلها قيم تحظى باحترام متساو، فلا تتمتع جميع الأساليب الحوارية بقوة متساوية، وفي مجتمع النساء والأقليات العرقية دليل على ما نقول. تكمن مشكلة التعليم في صعوبة الجمع بين ألوان مختلفة من القيم وأساليب الخطاب والتعلم، بحيث لا نقمع إحساس أحد بقيمته وذاته ونتيح في الوقت نفسه للجميع الدخول في الأسلوب الحواري المهيمن الذي تفرضه قوى تقع خارج سيطرة المجتمعات المحلية.

الأسلوب السردي

يظهر تأثير الثقافة على أسلوب الخطاب في التوزيع التفاضلي لملامح الخطاب الشفاهية والكتابية في سرد القصص. مثلاً: عندما عرضت ديبورا تانن الفيلم القصير المسمى "حكاية الكمثرى" الذي أخرجه وليام تشيف[24] طلبت تانن من متحدثين من أبناء اللغة الأنجلوأمريكيين ومتحدثين آخرين يونانيين أن يعيدوا سرد القصة في عباراتهم الخاصة: تحكي تانن القصة

على النحو التالي:

تعرض القصة حكاية رجل يجمع الكمثرى من شجرة، وحين يفرغ من ذلك ينزل من على الشجرة ويضع ما جمعه من الكمثرى في سلة من السلال الثلاث التي كانت معه على الأرض. ثم يمر صبي يركب دراجة ويسرق سلة من السلال. وفيما هو يهم بالهرب من المكان تمرق بجواره فتاة على دراجة بخارية فتطير قبعته من فوق رأسه وتنقلب دراجته. يظهر بعد ذلك ثلاثة أولاد يساعدونه على النهوض وجمع حبات الكمثرى من على الأرض. ثم أنهم يجدون قبعته ويعيدونها إليه فيعطي كل واحد منهم حبة كمثرى. ويمر الأولاد بالفلاح الذي نزل لتوه من فوق الشجرة واكتشف أنه فقد سلته التي كانت مليئة بالكمثرى. ثم راح يراقب الصبية وهم يتمشون ويأكلون من الكمثرى.

Tannen, Deborah. 'What's in a Frame?' in Framing in Discourse.)
.(1993, page 21

عند مقارنة القصتين كما قدمتهما السيدات الأمريكيات بالإنكليزية والسيدات اليونانيات باليونانية، لاحظت تانن أن كل جماعة كان لها أسلوبها السردي narrative style الذي يختلف عن أسلوب الجماعة الأخرى. فطريقة اليونانيات هي الأفضل؛ لأنهن رحن يقحمن آراءهن الخاصة حول سلوك الشخصية في نسيج السرد (مثلاً: كان على الصبي ألا يسرق الكمثرى أو كان من الواجب عليه أن يشكر الذين ساعدوه بعد ذلك) أو يدلين بدلوهن حول الرسالة التي يريد الفلم نقلها: (مثلاً: أن الفلم يصور جانباً من حياة المجتمع الزراعي، أو أن الأطفال يحب أن يساعد كل منهم الآخر). على النقيض من هذا قدمت الأمريكيات – حسب التقرير – نسخة معدلة أفضل للتتابع الأصلي للأحداث وذكرن، ما وسعهن ذكره، من التفاصيل، وأطلقن أحكامهن للتعليق على أسلوب المخرج في المعالجة الفنية للفلم (مثلاً: أن الأزياء لم تكن

مقنعة أو لم يكن المدرج الصوتي متسقاً). كانت اليونانيات تنطلقن في سردهن من خبرة تفاعلية ركزت أكثر ما ركزت على التفاعل بين الأشخاص: أي سرد القصة بطريقة تشد انتباه المحاور وتفسر رسالة الفلم الإنسانية. بينما انطلقت الأمريكيات في سردهن للقصة من رغبتهن إنجاز واجب مدرسي له متطلباته. وقد كن تركزن، ما وسعهن التركيز، على مضمون الفلم الذي يناقشنه بوصفه موضوعاً سينمائياً يتمتع بموضوعية نقدية. هذا وقد استغل كل عضو من أعضاء المجموعتين ملامح اللغة الشفاهية واللغة الكتابية كليهما حسب ما أملته عليهن الثقافة التي تنتمي إليها كل مجموعة من المجموعتين.

من الخطر بالطبع أن نعمم هذا المثال على جميع اليونانيين وجميع الأمريكيين أو نزعم أن اليونانيين جملة يسردون القصص بطريقة أفضل من الأمريكيين. وكما ناقشنا في الفصل الأول وقلنا إن كل ثقافة تتميز بتغير الخواص؛ أي إنها تتكون من عدد من الثقافات الفرعية، وأن كل موقف من المواقف يثير جملة من الاستجابات حتى داخل نطاق الثقافة القومية الواحدة. أما النتيجة الوحيدة التي يمكن للمرء أن يخرج بها من أمثلة كالمثال الذي سقناه آنفاً – وفي مواقف ومهام مشابهة، فهي أن من ينتمون إلى ثقافات مختلفة يفسرون المواقف ومتطلبات المهام بطرق مختلفة، وأيضاً يتصرفون بناء على ذلك بطرق مختلفة. رغم هذا بوسعنا القول إننا قد نتوقع من ساردي القصص هؤلاء أن يتوافقوا مع نماذج النوع الموجودة في الثقافات التي نشأوا فيها لأن تحديد مقومات القصة الجيدة يختلف من ثقافة إلى أخرى.

خلاصة

تختلف طرائق اللغة في إحداث المعنى، سواء من خلال العلامة أو الفعل، تبعاً للوسيلة المستخدمة. وتحمل الوسيلة المنطوقة بصفة خاصة علامات من الشفاهية قلت أو كثرت، وعلامات من الكتابية قلت أو كثرت، ويقاس ذلك بالملامح المميزة للمنطوق الحواري في مقابل اللغة المقالية المكتوبة. وتتسم الثقافات نفسها بأنها شفهية بدرجات متفاوتة، وكتابية بدرجات متفاوتة أيضاً وفق استخدامات أصحابها للغة المنطوقة أو المكتوبة في سياقات مختلفة. ومن خلال التنظيم الاجتماعي للكلام فإن الثقافة تُشيد تشييداً عبر المحادثات اليومية من خلال اختيار الأطر والمواضع التي يتبناها المتحدثون في حوارهم مع الآخرين، ومن خلال الطريقة التي يتعاونون بها في عملية تحسين الوجه داخل جملة من أنواع الخطاب. والثقافة تترك بصمتها على الأساليب الحوارية والسردية لأعضاء الجماعة الاجتماعية. وهي أساليب تؤخذ في الاعتبار عامة لأنها تشكل جزءاً من هويات الأفراد الثقافية.

مراجع الفصل الرابع

(1) PENELOPE BROWN and STEPHEN. LEVISNON: Politeness. Cambridge University Press 1978

(2) ERVING Goffman: Forms of Talk. University of Pennsyvania Press 1981

(3) DEBORAH TANNEN: Conversational Style. Ablex 1984.

(4) DEBORAH TANNEN (Ed.): Spoken and Written Language. Exploring Orality and Literacy. Vol. IX in the Series Advances in Discourse Processes', edited by Roy O. Freedle. Ablex 1982.

(5) SHIRLEY BRICE HEATH: Ways with Works. Cambridge University Press 1983

الفصل الخامس
اللغة المطبوعة والثقافة الكتابية

لم تسهم تقانة الكتابة وتقانة الطباعة مع الزمن في تغيير وسيلة استخدام اللغة فحسب وإنما أسهمت أيضاً - وبشكل قاطع - في تغيير طريقتنا في التفكير والحديث عن الثقافة. ويتناول هذا الفصل بالنقاش موضوعات مثل النص والسلطة والقضايا الثقافية للكتابية.

اللغة المكتوبة والثقافة النصية

نحتاج في البداية إلى إطلالة تاريخية على الطريقة التي أثّرت بها التقانة على العلاقة بين اللغة والثقافة، فقد كان لاختراع الكتابة منذ ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح أكبر الأثر في تحويل التراث الشفاهي الذي انتقل إلينا عبر القصص والملاحم البطولية الغنائية وفنون التمثيل والأداء الحركي - إلى تراث نصي وصل عبر جهود الكتبة. لم تنقل ثقافة النص حكمتها ومعارفها - كما حدث مع الثقافة الصينية المكتوبة مثلاً - عبر القراءة، ولكن انتقلت عبر النسخ الأمين للنصوص. هكذا انتقلت حقائق الأجداد وتم جمعها ووضعها من جديد بين يدي الأجيال الجديدة من خلال إعادة كتابة نصوص كانت مدونة يدوياً. كان النسخ باليد هو الطريق الرئيس للوصول إلى معنى النصوص والحصول على الاحترام والهيبة الاجتماعية التي يجلبها التعليم القائم على الكتابية.

لقد كانت ثقافة النص وانحيازها للمرجعية النصية وإذعانها له من الخصائص الأساسية التي ميزت التراث اليهودي وكذا التراث المسيحي في

بدايته. كان وحي السماء في هاتين الثقافتين يصل إلى الأرض بالتعليق أو التفسير أو الترجمة. وكان المغزى من وراء ذلك يكمن في أن الحقائق الأولى التي ينبؤنا بها الله والملائكة والأنبياء مشافهة إنما نصل إليها ونفهمها من خلال الدراسة والتفسير والتأويل لا غير. أصبحت الرغبة في تحقيق هذا الهدف - وصعوبة تحقيقه في الوقت نفسه - هما الشغل الشاغل لكثير من الباحثين. كانتا أيضاً الشغل الشاغل للكابالانية[25] Cabbalism - وهي مدرسة يهودية ظهرت في القرن الثاني عشر وكانت تعني بالتصوف، وانتحلت الاسم الذي يطلق على التراث العبري جملة. لم يكن الكبالانيون يبحثون في الإنجيل عن الأفكار الفلسفية بصفة خاصة، وإنما كانوا يتحرون الوصول إلى وصف رمزي للعالم المقدس الذي توارى عن الأنظار لأنه في علم الغيب. وكان الكبالانيون يرون في اللغة المكتوبة صورة مصغرة للكون جملة فسعوا إلى إنشاء نظام محكم للمعاني يعتمد على أرقام وحروف الأبجدية العبرية؛ رغبة منهم في معرفة أسرار الكون غير المكتوبة. ولذا نجد مثلاً أن الحروف الأربعة التي يتكون منها الاسم العبري للفظ الجلالة "الله" Yod he vav he (Yahweh) (يهوه) تقابلها القيمة العددية أربعة وأربعين من موقعها في الأبجدية العبرية، وهو الرقم نفسه الذي يقابل لفظة "Adam". ومن هذه الحقيقة اللغوية توصل الكبالانيون إلى نتيجة مفادها أن الله هو آدم نفسه في الواقع. وعلى ذلك زعموا أن الإله الذي يمكن أن يفهمه الإنسان هو الإنسان الأول نفسه. وفي وسع المرء أن يفهم بداهة السبب في غضب الكنيسة الكاثوليكية وقيامها بإدانة الكبالانية على أنها زندقة وخروج على الملة الصحيحة.

ساعدت الثقافة النصية إذاً على تحديد المأزق الذي نشأ من جراء اختراع الكتابة. وكما رأينا في الفصل الأول كانت الكتابة توطئة للتسجيل، الأمر الذي كان عوناً كبيراً للذاكرة، فكأنه قد تم تحويل الحديث من مادة سائلة إلى مادة صلبة، فتحول التراث من الشفاهية إلى الكتابية، أي أصبح نصاً مشفراً تحول

حروفاً مطبوعة أو أدباً مكتوباً أو قانوناً معروفاً. بيد أن الكتابة إذ انتزعت من سياقها الأصلي مع مرور الزمن وانتشرت على مساحة كبيرة من الفضاء كانت عاملاً مهما على الإحساس بعبثية البحث عن المعنى الواحد الأصلي الصحيح. وعلى كل حال ففي وسعنا في نهاية الأمر فهم النصوص القديمة رغم المعاني الكثيرة التي أسبغها عليها المعلقون والمفسرون والمترجمون المحدثون. وحتى الوثائق القانونية التي تسعى إلى ضبط حياة الناس وسن القوانين لتنظيمها أصبحت في حاجة إلى إعادة النظر فيها من جديد وتفسيرها حسب كل قضية على حدة.

الطباعة والسلطة

كانت السلطة المؤسسية دائماً هي التي تضمن الاستمرار الثقافي؛ وذلك بتوفير الحماية لهذا الاستمرار في مواجهة التفسير المطلق غير المقنن للنصوص. وقد رأينا كيف كان الرهبان ورجال الدين والكتبة في العصور الوسطى يصنعون من أنفسهم حراساً على أبواب التراث بتقديم تفسيراتهم في مواجهة التغير الثقافي. ومع ظهور الطباعة والثقافة الطباعية انتفت تماماً الحاجة لنسخ النصوص باليد، كما اختفت بدورها جماعات الكتبة، حتى أن السلطة الكنسية نفسها أصبحت في طور التلاشي التام. وكان تزامن اختراع الطباعة على يد العالم الألماني جوتنبرج عام 1440 مع ترجمة مارتن لوثر للكتاب المقدس إلى الألمانية الدارجة عام 1512 عاملاً مهماً في ظهور الحقائق الدينية وانتشارها بين الجميع، وليس فقط في أيدي الصفوة المثقفة في الكنيسة مما فتح الباب أمام التكاثر غير المحدود والعشوائي للمعاني. وسرعان ما حلت المرجعية التفسيرية، ورقابة قوى المجتمع المدني، محل احتكار الكنيسة للمعنى: ونعني بالمرجعية التفسيرية المؤسسة الأكاديمية والصحافة والمؤسسات السياسية.

وفي الوقت الذي كانت الثقافة الشفاهية تمارس رقابة وقائية غير مرئية على الناس من خلال الضغط المقاوم للتغيير الذي مارسته الجماعات الاجتماعية، فإن الثقافة النصية كانت تخضع لرقابة قوى خارجية مثل الكنيسة والدولة إذ كانت هذه الثقافة أكثر قدرة على التعبير عن المعاني الخاصة لكتابها. لهذا السبب كانت وسائل التعبير المكتوبة في نظرهم أكثر تدميراً من الوسائل اللفظية؛ ومن ثم عانت وسائل التعبير المكتوبة من التقييد والتضييق على يد مؤسسات الدولة مثل المعاهد العلمية والناشرين، وهي مؤسسات كانت تتحكم دائماً في التقانة الجديدة.

هذا وقد تجلى احتكار المؤسسة الأكاديمية لاستخراج المعاني من النصوص المكتوبة حتى وقت قريب في تعريفها للكتابية على أنها مقصورة على معرفة الفرد القراءة والكتابة. وكانت الأهمية التي أناطتها بالملامح الشكلية للنصوص ولإتيمولوجيا (تاريخ) المفردات والمعاني الحرفية المباشرة، والعناية الكبيرة التي أولتها للقواعد النحوية والهجاء حقيقة بأن تكفل العناية بالمظهر دون الجوهر، والإذعان للمعاني الحرفية للنصوص دون الاهتمام بروح هذه النصوص – وقد سعت المؤسسة الأكاديمية كذلك إلى فرض سياقها الخاص في التفسير والتأويل على الجميع زعماً منها بأن القواعد التي وضعتها للتفسير قواعد عامة شاملة يعرفها الناس بداهة، وتعين الجميع على الفهم. وكان من دأب هذه المؤسسة أيضاً أن تعلي من شأن الشكل على حساب المعنى وتشجع طلابها على تفسير النصوص وكأنها وحدات منفصلة منبتة الصلة عن استجابة قرائها. وأما من لا يذعنون لطريقة أساتذتهم في تفسير النصوص فكانوا يُرمون بالتقصير. وكان الطلاب يرسبون أحياناً في الاختبارات الأكاديمية في مؤسساتهم التعليمية لا لشيء إلا لعدم تبنيهم فهم أساتذتهم للمعايير الثقافية التي استقرت عليها الهيئة القومية لخدمات الامتحانات التربوية.

التفسير الاجتماعي للكتابية (literacy)

شهدت السنوات الأخيرة رفضاً لما يعرف الآن بالكتابية الكولونيالية والكتابية النخبوية. وعادت الثنائية التي كانت قائمة ومسلماً بها حتى عشرين سنة خلت بين 'البدائي' primitive من جهة و 'المتقدم' civilized من جهة أخرى، تطرح نفسها من جديد. وهي ثنائية نجدها قائمة في ثنايا نظرية الفاصل العظيم Great Divide بين الثقافات الشفاهية (التي لا تستخدم الكتابة أو استخدمتها بدرجة ضئيلة)، والثقافات الكتابية (التي قامت كلية على استخدام الكتابة والطباعة). اختفت الكتابية الفردية (أي معرفة الفرد بالقراءة والكتابة) لتفسح الطريق أمام فكرة التعلم المتعدد بوصفه مجموعة من الممارسات الاجتماعية داخل سياقات اجتماعية لها صلة بالاستخدام. فبالإضافة إلى الكتابية التقليدية التي كانت تهدف إلى تذوق الأدب أصبح العلماء الآن يقدمون ألواناً أخرى من الكتابية متصلة بأنواع متباينة من الخطاب (مثلاً: الكتابية الأدبية والكتابية الصحفية والكتابية الخاصة بقراءة الكتيبات الإرشادية وأخيراً الكتابية العلمية) وكلها ذات صلة بإتقان الاستخدامات الاجتماعية للغة الطباعة أو التحكم اليسير بها. وفي هذا السياق نجد أن المتعلم لم يعد هو الذي يستطيع التصدي للكلمة المكتوبة تشفيراً وتفسيراً، أو ذلك الذي يقدم تحليلاته الممتازة للنصوص، وإنما هو من يملك القدرة على فهم معاني اللغة المطبوعة ومعالجتها بالأفكار والمشاعر والأفعال.

وقد ظل الناس يخلطون بين الكتابية والتدريب المدرسي؛ نظراً لأن الكتابية لا تأتي من تلقاء نفسها كما هو الشأن في الشفاهية فضلاً عن أنها تتم في المدارس. كما اتضح عدم قدرتنا على رد المهارات المعرفية – التي زعموا أنها تنشأ فطرياً من القدرة على القراءة والكتابة – إلى اللغة المكتوبة في ذاتها، بل إلى نوع خاص من التعليم المدرسي الذي يعلي من شأن استخدامات معينة للغة على حساب استخدامات أخرى منطوقة كانت أو مكتوبة. كان هذا للأهمية

الكبيرة التي أنيطت بالحفظ واستظهار المعلومات – أي سرد الأحداث بطريقة تحليلية منظمة واضحة من أجل إنشاء طريقة في المناقشة تخضع لمنطق (الوضع – نقيضه – المركب، أو المشكلة – البرهان – الحل thesis – antithesis – synthesis) وهي طريقة في التعلم تولي اهتماماً كبيراً للإجابة على الأسئلة التي تبدأ بأداتي الاستفهام ماذا ..؟ ولماذا ...؟ اللتين نستخدمهما لطرح أسئلة حول النصوص للحصول على معلومات واضحة وسريعة وبليغة. وتعود هذه الطريقة إلى الاعتقاد بأن الكتابية الخالية من السياق والمتمحورة حول الموضوع تفيد الجميع في جميع شؤون الحياة.

على أن هذا الاعتقاد لا يتبناه الجميع؛ فمن الناس من يرى أن بعض المهن مثل: أعمال الصيانة، وصناعات التسويق، وكتابة الراويات والقصائد، تتطلب ألواناً أخرى من الكتابية لا توفرها المدارس عادة. أضف إلى ذلك أن الأطفال القادمين من بيئات اجتماعية مختلفة يجلبون إلى مدارسهم ألواناً من التعلم لا تقرها الممارسات الكتابية الموجودة في المدرسة. مثلاً: يظهر الأطفال ذوو الأصول الأفريقية في الولايات المتحدة طريقة في السرد أو كتابة القصص تقوم على تضمين السياق والقياس والترابط، وهي طريقة لا تقرها المدرسة بوصفها ممارسة كتابية مقبولة. هذا وفي الوقت الذي نجد فيه أطفال الطبقة المتوسطة من أبناء الأنجلوساكسون يظهرون أسلوباً سردياً متدرجاً في التعلم أكثر تحرراً من السياق، وأكثر اعتماداً على التحليل وفي الوقت ذاته يجد دعماً من المدرسة التي تدرس فيها النصوص بالطريقة نفسها.

وإذا علمنا أن اكتساب الكتابية ليس مجرد تعلم لطريقة فنية لتحقيق غرض ما، وإنما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقيم والممارسات الاجتماعية، وبطريقة في المعرفة تتبناها المؤسسات الكتابية الرسمية، ندرك حينئذ أن الكتابية هي مصدر للصراع الثقافي عندما تصطدم قيم المدرسة بالقيم السائدة في البيت. ونرى لهذا مثالاً في ألاسكا وشمال كندا؛ حيث نجد أن الطرق التي يتبعها

أبناء الأزبك Athabaskans في التعلم واكتساب المعرفة تختلف اختلافاً جذرياً عن الطرق السائدة بين الأطفال ذوي الأصول الأنجلوساكسونية. فعندما يتعلم أطفال الأزبك القراءة والكتابة بالإنكليزية فإنهم يبدؤون في مقاومة الممارسات الأنجلوساكسونية الكتابية التي تحتاج منهم إلى أن يدلوا برأيهم في النص، وأن يتبنوا وجهة نظر ما والدفاع عنها، وأن يظهروا قدراتهم أمام أقرانهم في الفصل، وأن تكون لديهم القدرة على استشراف المستقبل والتنبؤ بأحداثه، وما إلى ذلك من الممارسات الشفاهية التي تعتبر تعدياً غير مقبول في ثقافتهم.

وبذلك يصبح لدينا منظوران مختلفان في الكتابية: منظور يرى الكتابية إتقانا تاما لوسيلة الكتابة، وآخر يرى الكتابية ممارسة اجتماعية. وهما منظوران يرجعان إلى طريقتين مختلفتين في النظر إلى هذه المساحة الممتدة من اللغة المكتوبة: إذا يراها أحدهما نصاً، ويراها الآخر خطاباً. ولكلٍ صلته المختلفة بالسياق الثقافي الذي تمت فيه كل من عمليتي إنتاجه واستقباله.

النص والخطاب

تثير فكرة النص في الذهن امتداداً منبسطاً من اللغة المكتوبة بوصف النص نتاجاً لعقلية مؤلف من السهل تحديد وجوده وماهيته وعلاقته بسياق ثقافة محددة وثابتة. ويرى البعض معنى النص مضاهياً للعلامات الدلالية التي يتألف منها. فالغرض من تحليل النص هو الوصول إلى المعنى الذي يقصده المؤلف. كما نقوم بتفكيك النص للوقوف على العلاقات بين الأجزاء التي يتكون منها. وفي الحالتين لا نأخذ ما يجري في عقل القراء ولا السياق الاجتماعي لعمليتي استقبال النص وإنتاجه بعين الاعتبار. وتقع هذه العمليات ومثلها في نطاق المعرفة بما يسمى بالخطاب discourse. ولا يمكننا استخراج

المعنى الكامل من النص ما لم نتصدى له بوصفه خطاباً. ولكي نزيد هذه النقطة وضوحاً اسمحوا لنا أن نعود من جديد إلى قصيدة إملي دكنسون التي تعرضنا لها في الفصل الأول:

Essential Oils – are wrung –
The Attar from the Rose
Be not expressed by Suns – alone –
It is the gift of Screws –
The General Rose – decay –
But this – in Lady's Drawer
Make Summer – When the Lady lie
In Ceaseless Rosemary –

إننا نعصر الورد – كي نخرج العطر منه –
فالعطر الذي يخرج
ليس من هبة الشموس – وحدها –
إنه جهد الآلات أيضاً–
الورد – وحده قد يضيع –
ولكنه – في خزانة الحسناء
يصنع الربيع – بينما هي في سباتها
وكأن الورد حولها دائماً من كل نوع –

ترمز هذه القصيدة كغيرها من النصوص الأخرى إلى معنى ثقافي من خلال مجموعة متباينة ومتماسكة من الأدوات الفنية التي من شأنها ضمان الاتصال التركيبي عبر الجمل (انظر الفصل الثاني). فعلى سبيل المثال نرى الأداة الإشارية 'this' في (The General Rose' – decay - / But this – in

lady's Drawer) تربط بين عبارة 'the General Rose' و عبارة 'the Lady's Drawer' وتؤسس بذلك لتماسك جوهري بين جزئي القصيدة. وإذا أنعمنا النظر في البيت نجد أن 'this' – التي تتبعها الشرطة الصامتة والتي تتصل بمنظور الشاعرة – نجد أنها تخاطب القارئ مباشرة بالإشارة إلى شيء ما خارج القصيدة. كما يمكن أن تكون'this' إشارة إلى القصيدة نفسها: وهي الافتتاحية التي تقدمها الشاعرة للقارئ. وهنا نجد أيضاً أن الصوت المثقف في القصيدة يذهب لتحل محله المشاركة الشفاهية التي تتجزها القصيدة مع القارئ كإنسان. وفي وسعنا الآن أن نرى أن 'this' الإشارية اسم إشارة يشير من ناحية إلى الخلف أو إلى عنصر قبلي في النص (أي كلمة 'Attar' أو عبارة 'gift of Screws')، أو على أنها عنصر جديد يشير إلى الخطاب القائم بين النص والقارئ من ناحية أخرى. فوظيفتها الأول أن تعمل كأداة تتماسك بها أجزاء النص مع بعضها بعضاً، فضلاً عن كونها عاملاً رئيساً في عملية التماسك.

وكما رأينا في الفصل الثاني فإن التماسك اللغوي يدفع بالمعنى الثقافي إلى ساحة اللعب في نطاق النص نفسه، ويترسخ التماسك المنطقي من خلال الخطاب الذي يثيره بين الكلمات المطبوعة وقرائها. وكما وضح في المبادلات الكلامية (انظر الفصل الرابع) فإن التماسك بين أجزاء النص ينشأ من العلاقة بين القارئ الذي يضع العلامات على الصفحة في علاقتها بجملة من العوامل التي يمكن أن توجد في السياق الثقافي.

كما يلعب التلاحم بين أجزاء النص دوراً هاماً في النصوص الشعرية بصفة خاصة، وهي نصوص تهدف إلى الاستحواذ على اهتمام القارئ والسيطرة على عواطفه وأحاسيسه مع الأخذ في الاعتبار أن هذا التلاحم قد يوجد أيضاً في نصوص أخرى مكتوبة غير النصوص الشعرية. ولنضرب لذلك مثلاً بالنص التعريفي المكتوب على زجاجة الأسبرين:

تحذير: يجب حفظ هذا الدواء وأي دواء آخر بعيداً عن متناول الأطفال. على السيدات الحوامل والمرضعات استشارة الطبيب قبل استعمال هذا الدواء أو أي دواء آخر. في حالة الإفراط غير المقصود في الجرعة يجب الاتصال بأخصائي صحة عامة أو مركز معالجة السموم فوراً.

هذا النص نص متماسك من الناحية المنطقية، أي أن معناه واضح للقارئ الذي يعلم نتيجة خبرة شخصية سابقة مستقاة من خبرة الآخرين أن الأدوية مضرة بالأطفال والحوامل على السواء، وهو قارئ يعلم الفرق بين أخصائي الصحة العامة والطبيب، كما يعلم أيضاً (إذا كان سيدة) لماذا ينبغي الذهاب إلى أخصائي الصحة العامة في مسألة الحمل، ولماذا ينبغي أن تذهب إلى الطبيب عند الإفراط في تناول الأسبرين. وبالإضافة إلى الخبرة المسبقة فإن القارئ يفهم المعنى في هذا النص عن طريق إيجاد صلة بينه وبين نصوص أخرى مصنفة تحت عنوان "تحذير" كالتحذيرات التي نجدها قريباً من أسلاك الكهرباء مثلاً، أو أماكن ممنوع الدخول إليها، أو الأماكن التي توجد بها مواد خطرة. ولكن الخبرة المسبقة والنصوص القَبْلية لا تكفي لتحقيق تماسك هذا النص من الناحية المنطقية. وقد يتساءل المرء لماذا احتاج النص إلى عنوان 'WARNING' أو 'تحذير' إذا كان الخطر لا يظهر في الكلمات بالوضوح التام؟ ولماذا يلتمس المرء مساعدة في حالة الإفراط عند تناول الدواء؟ ولماذا يستخدم النص كلمة 'overdosage' 'أي الإفراط في الجرعة بدلاً من كلمة 'overdose' جرعة زائدة'؟ ولكي نفهم التماسك المنطقي في النص حق الفهم علينا أن نستفيد من العامِلَيْن السياقيين المتبقيين اللذين ذكرناهما آنفاً وهما: هدف النص وشروط إنتاجه.

فالشركة الصيدلانية التي أطلقت هذا التحذير تريد أن تتجنب الدعاوى القانونية ضدها، ولكنها ترغب في الوقت نفسه أن تتجنب إشاعة الذعر بين مستخدمي الأسبرين ممن قد يحجمون عن شراء المنتج، ولهذا السبب لا

تريد، في الواقع، أن تسلط الضوء على كلمة 'خطر' على زجاجة الأسبرين، كما تتجنب أيضاً استخدام كلمة 'overdose' لما لها من إيحاءات وثيقة الصلة بتجارة المواد المخدرة غير المشروعة. وقد يكون قصد الشركة الصيدلانية أيضاً أن ترسم صورة للقارئ بوصفه قارئاً واعياً – كشأن جميع القراء – أي أنه لا يتناول جرعة زائدة من العلاج إلا إذا كان ذلك عن غير قصد. ومن ثم فعلينا أن نأخذ في الاعتبار الجوانب التجارية والقانونية ذات الصلة؛ أي ثقافة الشركات والمؤسسات التجارية عند تفسير نص كهذا حتى نضمن وجوده كخطاب متماسك من الناحية المنطقية.

ويعد التماسك الثقافي للنص من مصادر الصعوبة عند القراء من غير أبناء اللغة، وهو أكثر صعوبة من التماسك الداخلي للنص. مثلاً: جملة: 'Although he was over 20 years old he still lived at home' أي: "رغم أنه تجاوز العشرين من العمر فلم يزل يعيش في بيت الأسرة" وهي جملة مكتوبة للقارئ الأمريكي، وتنطلق من معرفة بثقافته التي تقضي باستقلال الأبناء عن أسرهم، بيد أن الجملة نفسها قد لا يفهمها القارئ القادم من ثقافة يعيش أبناؤها في بيوت أسرهم حتى العشرين من أعمارهم وزيادة. وعلى النقيض من هذا نجد أن جملة: Isch babe Spaghetti gekocht, weil Kartoffeln beutzutage so teuer sind (I made spaghetti for dinner, because potatoes are so expensive nowadays) أي: أعددت الإسباجتي للغداء لأن البطاطس مرتفعة الثمن هذه الأيام"، وهي جملة مكتوبة للقارئ الألماني، وتنطلق من حقيقة ثقافية مفادها أن الألمان يحبون أن تحفل موائدهم بالبطاطس مع كل وجبة. قد تبدو هذه الجملة نفسها غريبة للقارئ الأمريكي الذي يتسم بعادات غذائية مختلفة عن نظيره الألماني. وعليه فقدرة القارئ على تفسير هذه القرائن المنطقية تظهر بجلاء كيف يعتمد التماسك على سياق الحادثة الكتابية نفسها.

الحادثة الكتابية والنص القبلي ووجهة النظر

يطلق مصطلح الحادثة الكتابية literary event على التفاعل الذي يحدث بين قارئ أو مجتمع من القراء مع النصوص من أي نوع. وما يحدد الحوادث الكتابية هنا هو الممارسات الاجتماعية المشتركة لأعضاء مجتمع لغوي ما مع اللغة المكتوبة مثل القراءة والكتابة والحديث عن الرسائل العائلية، وحضور الصلوات وتلاوة النصوص الدينية، علاوة على حضور قراءات شعرية وأدائها وإلقاء الكلمات المكتوبة والاستماع إليها وكذا قراءة المقالات العلمية وكتابتها والطرق المشتركة في تفسير هذه الممارسات.

وتنطلق المعرفة الكائنة في الحوادث الكتابية من السياق الأرحب لإنتاج النصوص واستقبالها الثقافي والتاريخي في مجتمع خطاب ما. وفي غياب مؤلف النص وغياب كثير من قرائه المفسرين، فإن كل قارئ يعيد لنفسه تكوين فهمه الخاص به للسياق ويحدد مكانه إزاء السياق بناء على هذا الفهم. وهذا أشبه بما يجري في المبادلات الحوارية كما ناقشناها في مستهل الفصل الثالث. وكما هو الشأن مع السياقات الحوارية فإن سياق الحادثة الكتابية يشتمل على البعد الموقفي والبعد الثقافي. وأما السياق الموقفي فيشمل الآتي:

1- الحوادث التي نفهمها من المضمون الإخباري.

2- جمهور القراء المقصود: ما هي المعرفة والقيم والاهتمامات والمعتقدات التي يزعم النص أنه يتقاسمها والقراء؟ كيف يضع النص قراءه وكيف يضع نفسه من القراء؟

3- هدف النص: أي أفعال الكلام التي يشتمل عليها: فكل جملة - كما قلنا في الفصل الثاني والثالث - تؤدي مهمتين: أولهما أنها تخبرنا بشيء عن العالم (قيمة خبرية أو كلامية) ثانيهما أنها تؤدي عملاً ما كالوصف والإخبار والاستفسار والشكوى (قيمة إنشائية). فالنص

يطلب من قرائه أن يسألوا أنفسهم: هل هذه الجملة بالذات سؤال؟ أم أنها جملة خبرية؟ أم أمر؟ أم تأنيب؟ أم نقد؟ أم هجوم؟ أضف إلى هذا أن كل نص يسعى للتأثير المعرفي والعاطفي على قرائه، أو يسعى لدفع قراءه على الفعل (قيمة غائية).

4- نطاق نوعية لغة النص أو الاختلاف الوظيفي للغة وفق خيارات المتكلم أو السامع.

5- مفتاح النص: يحمل كل نص بين طياته ما يدل على موقف الراوي إزاء الوقائع المتصلة - مثل هل هو راو ساخر أم مرح أم واقعي؟

هذا ويشتمل سياق الحادثة الثقافية أيضاً على بعد اجتماعي تاريخي أرحب يربط النص بنصوص أخرى كما يربطه بالمعرفة المشتركة بين الجماعة على الإجمال.

6- النصوص القبلية: ومثلما تشير الكلمات إلى كلمات أخرى في العالم الدلالي للعلامات (انظر الفصل الثاني) نجد أن كل نص يعد استجابة لنصوص أنتجت قبله ولغة سبقته وقضايا أثارتها اللغة من قبل. ولكي نفهم نص ما يتوجب علينا أن نفهم استجابة هذا النص لما قبله، وطبيعة هذه الاستجابة سواء كانت استجابة لتلك النصوص أو رداً عليها أو وقوفاً ضدها. وهذه اللغة الموجودة قبل النص والتي تراكمت على امتداد الحياة الطويلة لمجتمع خطاب ما هي ما نطلق عليه مصطلح الخطاب Discourse مع تكبير حرف الاستهلال D. وتعد الخطابات - بهذا المعنى - أكثر من كونها لغة؛ فهي طرق أو سبل تسلكها الجماعة كي تجد لنفسها مكاناً في العالم الذي نعيش فيه، أو قل هي أشكال من الحياة تتماهى مع الكلمات والأفعال والقيم والمعتقدات والمواقف والهويات الاجتماعية. وسوف نبين ذلك

كله بشيء من التفصيل في الفصل القادم.

7- وجهة النظر: في وسع المرء أن يضع يده على ثلاثة معان فيما يقصد بوجهة النظر. وتحدد وجهة النظر الزمانية - المكانية السياق الفيزيقي الذي يشير إليه الراوي. وأما وجهة النظر النفسية فهي التي تتعلق بالمنظور الذي يتبناه الراوي كالمنظور الذي يتبناه الشاهد العليم مع الأحداث المروية، أو الذي تتبناه إحدى الشخصيات في قصة ما، أو وجهة النظر الإيديولوجية التي تكشف عن نسق المعتقدات والقيم والمقولات تأسيساً على فهم الراوي للعالم الذي يشير إليه في النص. وهذا النوع الأخير من وجهات النظر الثلاث يظهر في الصور المجازية التي ذكرناها في الفصل الثاني. (كأن نقول مثلاً: الجدال حرب) ومن خلاله يفهم الكتاب والقراء الأشخاص والأحداث.

وكما رأينا في الفصل الأول فإن مجتمعات الخطاب التي تكونت من خلال أهدافها المشتركة وقضاياها ومعتقداتها المشتركة تتقاسم ضمنياً تراثاً من النصوص ووجهات النظر الإيديولوجية التي نمت وتراكمت عبر الزمن. وقد عملت هذه النصوص بدورها على ظهور معايير عامة بين أعضائها، وهي معايير خاصة بالتفاعل مع النصوص وتفسيرها، ويمكن لأعضاء هذه المجتمعات قبولها أو رفضها. وقد مارست المدارس الرسمية ووسائل الأعلام والمؤسسات القومية والمهنية ضغطاً وإلحاحاً من أجل حمل الناس على العمل وفق هذه المعايير. ومن ثم نجد فكرة الحادثة الكتابية تفضي بنا - لا محالة - إلى محاولة الوقوف على فكرة النوع الأدبي.

النـــــوع

إذا كنا نُعَرِّف الحادثة الكتابية على أنها أي تفاعل بين القراء والنصوص المكتوبة في إطار سياق اجتماعي محدد، فإن النوع Genre هو عبارة عن حادثة توصيلية يقرها المجتمع وتكون إما منطوقة كالموعظة والنكتة والمحاضرة، أو مطبوعة كالتقرير الصحفي والرواية والبيان السياسي. ورغم أننا نُعَرِّف النوع أحياناً على أنه نمط شامل جامع محدد بأعراف أدبية وغيرها، فإن النوع – من منظور اجتماعي ثقافي – يعتمد دائماً على فهم الناس له كما هو عليه في سياق خاص لموقف أو ثقافة ما.

ولمفهوم النوع صلة بنوع النص واختيار اللغة: مثلاً: هناك موعظة دينية أمٌ prototypical sermon تقاس بها جميع المواعظ الأخرى، ويجعلها أصحاب الثقافة ميزاناً به يزنون اللغة التي استخدمها الواعظ، وإلى أي مدى التزم بالقواعد والأعراف التي استنبطها الناس قياساً على الموعظة الأم، وإلى أي مدى انحرف عن هذه القواعد، وإن لم يلقها على المصلين في الكنيسة. وكما رأينا في الفصل الرابع يبدأ سوء الفهم عندما يظن بعض المشاركين في الحادثة الكلامية أنهم يشاركون في نوع من الحديث (حلا لمشكلة مثلاً)، بينما يرى مشاركون آخرون في الحادثة الكلامية نفسها أنهم يشاركون في نوع آخر من الحديث (كحوار في برنامج جماهيري).

ما يُحَوِّل مجموعة من الحوادث التوصيلية إلى نوع هو جملة من الأغراض التواصلية المرسومة وفقاً للأعراف السائدة. ومن أعراف البحوث العلمية مثلاً إخبار الباحثين عن الاكتشافات العلمية التي قام بها العلماء بوضوح وإقناع قدر الطاقة، وعلى نحو يشجع على نمو البحث العلمي في المستقبل. على أن المجتمعات العلمية كلها لا تتقاسم وجهات النظر نفسها فيما يخص الطريقة التي تؤدي إلى هذه الأهداف وتحقيقها، فثمة اختلافات واضحة

وضوح الشمس بين البحث العلمي في فرنسا مثلاً والبحث العلمي عند العلماء الأنجلوساكسون. فمن شروط البحث العلمي عند العلماء الأنجلوساكسون أن يستعرض الباحثون في مستهل بحوثهم قائمة الأبحاث التي أنجزت في الموضوعات التي يتناولونها بالدراسة، وكيف أن أبحاثهم تفي بحاجة في البحث العلمي لم تدرك بعد، وتملأ فراغاً شاغراً لم يكن مملوءاً. وعلى النقيض من هذا نجد بحوث العلماء الفرنسيين لا تبني شرعيتها على ذكر البحوث السابقة، وإنما تتأسس على المكانة التي يشغلها الباحث في هيئته العلمية وعلى مكانة المؤسسة العلمية التي ينتمي إليها وعلى قيمة بحوثه العلمية في الوسط الأكاديمي. وعلى عكس الأنجلوساكسون يرى العلماء الفرنسيون أن ذكر قائمة البحوث التي تناولت الموضوع نفسه من قبل عملاً غير ذي جدوى، بينما يصر العلماء الأنجلوساكسون على أن يظهروا انتمائهم إلى مدرسة معروفة وتقليد منهجي معروف أو وجهة نظرية مميزة. ويفضل العلماء الفرنسيون أن يقوم البحث بذاته ويعتمد على نفسه وتكون قيمته من داخله. وفي حين يختم العلماء الأمريكيون بحوثهم بكلمة حول مجال البحث وحدوده، لا يفعل الفرنسيون ذلك، وإنما يختمون بحوثهم بإثارة المزيد من الأسئلة، وطرح المزيد من القضايا الأرحب أفقاً، والإشارة إلى مناطق أخرى لم يشملها البحث يمكن للقارئ أن يستكشفها. ورغم أن هذين المنهجين المتباينين في مجتمعين علميين مختلفين يتقاسمان الهدف نفسه إلا أنهما يتسببان في مشاكل عند بعض العلماء الفرنسيين ممن يرغبون في نشر بحوثهم بالإنكليزية، ويريدون في نفس الوقت الاحتفاظ بمنهجهم الثقافي العلمي.

من السهل الآن أن نرى كيف يلعب النوع هذا الدور المركزي الذي يلعبه في تعريف الثقافة. ففي وسع القارئ أن يعرف الكثير عن ثقافة مجتمع خطاب ما عند النظر في الأسماء التي يسمي بها الأنواع، لأن النوع ما هو إلا طريقة مجتمع ما في تعريفه للمعنى وتوجيهه. ويعد تعريف النص النموذج على أنه

نوع مختلف، أو على أنه تنوع أسلوبي على النوع نفسه مرتعاً خصباً لخلافات تتسم بالحماس والحدة، ولا تقتصر على طائفة العلماء وحدها. والحق أن مفهوم النص النموذج text type يجلب قيوداً أكثر على ما يمكن أن يكتبه الكاتب، وعلى شكل كتابته، بل والجمهور الذي يخاطبه. ويفرق علماء الدين في بعض الثقافات – كما يفعل المسلمون الشيعة مثلاً، بين النصوص التي تتبئ بالحقيقة كاملة كالقرآن الكريم وتلك النصوص التي لا يتوقع منها غير الكذب مثل الشعر. فالمفارقة السردية المعروفة في الرواية لا تعد ملمحاً نصياً مألوفاً في ثقافة تتوقع أن تكون الحقيقة السردية مضاهية لواقع الحياة؛ ولهذا السبب يتعرض للنقد الشديد أولئك الكتاب الذين يستخدمون المفارقة الروائية والسرد الخيالي لنقد الممارسات الإسلامية كما حدث مع سلمان رشدي.(26) فالمعنى الظاهري في كتابات أولئك الكتاب هو أول ما يقرأه علماء الدين الذين تناط بهم السلطة الدينية ويتحولوا إلى حراس أمن على أبواب ثقافاتهم.

خـــلاصـــة

كان اكتشاف الكتابة واختراع الطباعة فيما بعد إيذاناً بتغير جذري في العلاقة بين اللغة والثقافة. فقد كانت الكتابة عوناً في الحفاظ على التراث التاريخي للأمم وتوجيه الذاكرة الجمعية، وعوناً على تفسير الأحداث وتقييمها. ومن ثم أصبحت الثقافة النصية هي السائدة في البحث العلمي والمؤسسات العلمية على السواء.

على أن ثمة طريقتين للنظر إلى اللغة المكتوبة لم تتغيرا مع الزمن: الأولي النظر إلى اللغة على أنها نتاج محدد وثابت أي: نص. والثانية النظر إلى اللغة على أنها عملية تفاعلية استدلالية - بالدرجة الأولى - بين النص وقارئه أي: خطاب. وقد لعبت مجتمعات الخطاب دوراً هاماً في تأسيس المقاييس المعيارية للحوادث الكتابية التي تقبلها هذه المجتمعات، وفي تحديد الأنواع المناسبة في إطار الحدود التي وضعتها هذه المجتمعات، وفي ضمان أن تنال تلك الأنواع احترام أعضاء هذه المجتمعات، وكل ذلك من خلال المنهج التعليمي في هذه المجتمعات ووسائل إعلامها وعبر مؤسساتها السياسية.

مراجع الفصل الخامس

(1) BENEDICT ANDERSON: Imagined Communities. Verso 1983 (see Text 19).

(2) JAMES GEE: Social Linguistics and Literacies: Falmer Press 1996 (see Text 17).

(3) WALTER J. ONG: Orality and Literacy. Muthuen 1982 (see Text 15).

(4) BRIAN V. STREET (Ed.): Cross-Cultural Approaches to Literacy. Cambridge University Press 1993.

(5) JOHN. SWALES: Genre Analysis. Cambridge University Press 1990.

(6) GEOFFREY WILLIAMS and RUQAIYA HASSAN: Literacy in Society. Longman 1996.

الفصل السادس
اللغة والهوية الثقافية

في عام 1915 وقف الكاتب الهاييتي الشهير إدموند لافورست فوق جسر وقد ربط قاموس لاروز الفرنسي حول رقبته، ثم قفز من فوق الجسر ليلقى حتفه غرقاً في مياه النهر.[27] وهذه الحادثة الرمزية المؤثرة - وإن كانت قاتلة - إنما تصور العلاقة بين اللغة والهوية الثقافية. يقول هنري لويس جيتس Henry Louis Gates الذي يروي هذه القصة: "مع أننا نجد كتاباً آخرين من السود - قبل وبعد لافورست - غرقوا فنياً من نتيجة التأثير الغالب لهذه اللغات الحديثة، إلا أن لافورست اختار أن يجعل موته رمزاً على هذه العلاقة الاستعبادية بتلك اللغات." (السلالة والكتابة والاختلاف. Race, Writing And Difference مطبعة جامعة شيكاغو 1985، ص. 13). وتساعدنا هذه الحادثة على حشد رؤى متعددة لاحت لنا بعض معالمها في الفصول السابقة وهي طبيعة العلامة اللغوية غير التعسفية وكذا العلاقة بين لغة ما وجماعتها الثقافية الشرعية أي علاقة اللغة بإحساس الفرد بذاته وكينونته. وسنتناول في هذا الفصل العلاقة المعقدة بين اللغة وما نطلق عليه راهناً "الهوية الثقافية".

الهوية الثقافية

من المعروف للقاصي والداني أن هناك صلة طبيعية بين اللغة التي تتحدث بها جماعة اجتماعية من الناس وبين هوية هذه الجماعة. فمن خلال اللهجة التي ينطقون بها، والمفردات التي يستخدمونها، وأنماط الخطاب التي يستخدمونها، يقوم الناس بتعريف أنفسهم وهم لا يشعرون، ويعرفهم الآخرون بوصفهم أعضاءً في هذه اللغة أو تلك أو هذا الخطاب الاجتماعي أو ذاك.

ومن خلال هذه العضوية يستمد الأفراد قوتهم الشخصية وكبرياءهم الوطنية كما يستمدون إحساسهم بأهميتهم الاجتماعية، وتواصلهم التاريخي، من خلال استخدامهم لنفس اللغة التي تستخدمها الجماعة التي ينتمون إليها.

ولكن كيف نحدد الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها المرء؟ يستطيع المرء في المجتمعات المنعزلة المتجانسة مثل سكان جذر التروبرياندر(28) الذين كانوا موضوعاً لدراسات برونسلو مالونوفكسي الأنثروبولوجية، يستطيع المرء أن يحدد العضوية في جماعة اجتماعية ما تبعاً للممارسات الثقافية المشتركة والتفاعلات اليومية المباشرة بين أعضاء هذه الجماعة أو تلك. وأما في المجتمعات الحديثة ذات البنية التاريخية المتشابكة - وهي مجتمعات مفتوحة - يصبح تعيين حدود الهوية لدى جماعة اجتماعية بعينها والوقوف على الهويات الثقافية واللغوية لأعضائها أمراً بالغ الصعوبة.

ولنأخذ العرقية مثالاً على ما نقول. ففي عام 1982 أجرى لو بيج Le Page وتابوريه كلر Tabouret Keller مسحاً اجتماعياً شاملاً على سكان بليز(29) Belize وهم عبارة عن بنية مختلطة من أعراق مختلفة. واكتشف لي بيج وتابوريه كلر أن هناك جماعات متباينة من الناس ينسبون أنفسهم إلى أعراق مختلفة بوصفهم أسبان أو كريوليين أو ماويين أو بلزيين، ولكل جماعة معيار عرقي وضعته مقياساً لهويتها كالملامح الجسمانية (لون الشعر والبشرة) أو المظهر العام أو السلالة الجينية أو الأصل العرقي أو القومية. ولم نجد - إلا فيما ندر - من بين تلك الجماعات من اتخذ اللغة معياراً عرقياً للتعريف بهويتهم. ومن المثير في الأمر أن إحساسهم بهويتهم الوطنية البلزية يظهر كواحد من السمات العرقية الكثيرة - التي ما زال الناس هناك يرنون إليها حتى اليوم - إلا عندما هددت جواتيمالا بالاستيلاء على البلاد إبان انتهاء الحكم البريطاني.

وقد تبدو هوية الجماعة التي تستند إلى الجنس أو السلالة أسهل في تحديدها، بيد أن هناك الكثير من الاختلافات الوراثية بين الأفراد المنحدرين من الجنس الأبيض أو الجنس الأسود كالاختلافات الكائنة بين الأجناس البشرية التي استقر تصنيفها، ناهيك عن الصعوبة التي قد يقابلها المرء حين يريد أن يثبت نسبه السلالي بنسبة مائة بالمائة. ومثال ذلك أنه حين قامت حكومة جنوب أفريقيا العنصرية في عام 1983 بتغيير التصنيف العرقي لستمائة وتسعين شخصا: ثلث هؤلاء كانوا أصلاً من الملونين وأصبحوا من البيض وواحد وسبعين منهم كانوا من السود تحولوا إلى ملونين، وأحد عشر من البيض أعيد توزيعهم بين الجماعات العرقية الأخرى! ولم يكن هناك بطبيعة الحال علاقة ضرورية بين صفة عرقية معينة واستخدام لغة ما أو لهجة في لغة ما.

ويمكن كذلك تفنيد الهوية الإقليمية. فقد زعم تقرير نشرته مجلة التايمز اللندنية في فبراير / 1984 بمناسبة ظهور كتاب "سكان العالم Population of the World " عن الإتحاد السوفيتي السابق – أن سكان فرنسا يتألفون من الفرنسيين والألزاس والفلمنج والبريتونز والباسك والكاتالان والكورسيكان واليهود والأرمن والغجر وأعراق أخرى. وعندئذ هتف جورج مارشيه – الزعيم الشيوعي الفرنسي – محتجاً: "إن كل فرد ينتمي إلى القومية الفرنسية فهو فرنسي، وليست فرنسا دولة متعددة القوميات بل أمة واحدة تضرب بجذورها في التاريخ لأنها تكونت عبر التاريخ..... "

وقد يظن المرء أن الهوية القومية شيء واضح وضوح الشمس غير قابل للالتباس، أو مسألة إما / أو (إما أنك مواطن أو لا)، فحين يكون لديك جواز سفر تركي فأنت تركي الجنسية بلا شك. ولكنك تسعى لنسب نفسك إلى الهوية القومية التركية إذا كنت قد ولدت ونشأت وتعلمت في ألمانيا مثلاً وتتحدث اللغة الألمانية بوصفها لغتك الأصلية، وتصادف أنك ولدت لأبوين تركيين.

ورغم الاعتقاد الراسخ في معادلة "لغة واحدة = ثقافة واحدة" فإن هناك من يزعمون لأنفسهم الانتماء إلى أكثر من هوية واحدة في الوقت نفسه. وتصبح هذه الهويات المتعددة المزعومة عرضة للتغيير مع مرور الزمن في حواراتهم مع الآخرين، بل عرضة للتداخل والتعارض كل مع الأخرى. ونضرب لذلك مثلاً إحساس المهاجر بنفسه إذ يحتمل أن يكون إحساسه مرتبطاً في بلده الأصلي بالطبقة الاجتماعية والآراء السياسية ووضعه الاقتصادي، أما في بلده الجديد فقد يرتبط بشكل كبير بمواطنته القومية أو ديانته لأنها الهوية التي فرضها عليه الآخرون ممن يرونه الآن تركياً فحسب أو مسلماً فقط. وترتيباً على ذلك نجد أن إحساسه بنفسه وبهويته الثقافية يتغير بسبب حنينه إلى وطنه وتوقه إلى ماضيه ولذا يميل إلى أن يكون تركياً أكثر من الأتراك أنفسهم ويضمر ما كان بنيدكت آندرسون Benedict Anderson يسميه 'القومية عن بعد'. وقد تصبح اللغة التركية التي يتحدثها على مر السنين مختلفة بعض الاختلاف عن التركية التي يتحدثها الناس اليوم في شوارع أنقرة؛ وقد يصبح المجتمع الذي كان ينتمي إليه خيالياً ليس له وجود في تركيا الحالية.

القوالب الثقافية

تنشأ المشكلة عادة عندما نساوي بين هوية الجنسية والعرقية والقومية التي تفرضها الدولة ونظامها البيروقراطي من ناحية والهوية التي يسعى الفرد إلى نسبها إلى نفسه من ناحية أخرى. فهوية الجماعة ليست حقيقة راسخة من حقائق الطبيعة ولكنها فهماً ثقافياً. وهنا نعود من جديد إلى التعبير الذي استخدمناه في مستهل هذا الكتاب؛ لأن فهم الهوية الاجتماعية لشخص ما، إنما تحدده الثقافة إلى حد كبير. فما نفهمه عن ثقافة شخص ما ولغته هو ما اعتدنا أن نفهم به الأمور في ثقافتنا نحن، وحسب الشروط التي

وضعتها ثقافتنا نحن، والقوالب التي قامت حولنا في ثقافتنا. هوية الجماعة هي عملية تركيز focusing وانتشار diffusion المفاهيم أو القوالب العرقية والجنسية والقومية. ولنضرب لذلك مثالاً:

يروي لو بيج وتابوريه كلر في بحثهما حكاية رجل سنغافوري زعم أنه يستطيع أن يفرق بين الهندي والصيني بسهولة. والسؤال هنا كيف استطاع هذا الرجل أن يعرف أن كل شخص كان يراه في الشارع له بشرة داكنة وليس مالاوياً يكون هندياً (وليس باكستانياً مثلاً)؟ وكيف استطاع أن يعرف أن كل شخص له بشرة فاتحة وليس أوروبياً يكون صينياً (وليس كورياً مثلاً)؟ وكيف يتسنى له أن يعرف ذلك إذ لم يكن قد استند في التفريق بين الرجلين إلى التقسيم العرقي الرسمي المتبع في سنغافورة: صيني، مالاوي، هندي، آخر؟ ووفق سياق آخر ونظام آخر في التقسيم - حسب الجنس - ستفضي به هذه الإشارات الظاهرية التي يشاهدها على وجوه الناس في الشارع - كلون البشرة مثلاً - تفسير آخر غير هذا التفسير. فقد جعلت المفاهيم التصنيفية السائدة في مجتمعه انطباعه متركزاً focused على ناحية دون أخرى. بل إن هذا التركيز قد يدفعه من خلال ظاهرة الانتشار إلى أن يطابق الصينيين الآخرين بجميع الفصائل العرقية المشابهة حسب مقولة: "جميع الصينيين متشابهون في نظري."

والجدير بالملاحظة أن المجتمعات تفرض تصنيفات جنسية وعرقية على مجموعات معينة دون غيرها، فجماعات البيض لا تعرف نفسها - عامة - بلون البشرة، وإنما بأصولها وقومياتها. وقد يجدون من السخف أن يستمدوا إحساسهم بهويتهم الثقافية من خلال انتمائهم إلى الجنس الأبيض. ومن هنا كانت الدهشة في رد فعل السيدتين الدنمركيتين، وهما في زيارة للولايات المتحدة، حين اقترب منهما صبي أمريكي من أصل أفريقي، بعد أن سمع حديثهما باللغة الدنمركية، وسألهما: ما ثقافتكما؟ وعندما رأي الارتباك بادياً

عليهما، أردف قائلاً وقد علت وجهه ابتسامة: "انظرا إلى بشرتي، أنا أسود: هذه هي ثقافتي فما ثقافتكما؟ فأجابتاه، بالابتسام أيضاً، أنهما تتحدثان اللغة الدانمركية وقد أتيتا من الدنمرك. والملفت هنا أن الصبي لم يستخدم اللغة ليستدل بها على هويته في الجماعة التي ينتمي إليها كما فعلت السيدتان الدنمركيتان.

وقد اعتمد الأوربيون – في التعريف بهوياتهم – اللغة والمواطنة القومية ومقولات شعبية شائعة، مثل قولهم 'أمة واحدة = لغة واحدة' أكثر من اعتمادهم العرق والجنس. بيد أن الأمور في أوربا أيضاً ليست بهذه البساطة، فسكان الألزاس ممن يتحدثون الألمانية والفرنسية ولهجة البلاتدويتش الألمانية قد يفضلون الهوية الألزاسية أو الفرنسية أو الألمانية انطلاقاً من الكيفية التي يصنفون بها أنفسهم إزاء تاريخ منطقتهم وتاريخ نشأتهم الأسرية. وقد يزعم الشاب، الذي ولد وعاش في فرنسا من أبوين جزائريين، أنه جزائري يعيش في فرنسا، رغم أنه لا يتحدث إلا الفرنسية، وقد يزعم أنه فرنسي عندما يكون خارج فرنسا حسب الجماعة التي يريد أن ينتمي إليها في تلك اللحظة.

قس على ذلك أمثلة كثيرة من أمكنة كثيرة حول العالم، كلها تظهر التعقيد الذي تنطوي عليه العلاقة بين الهوية واللغة من جهة، والهوية والثقافة من جهة أخرى. من الصينيين مثلاً من يعَرِّفون أنفسهم عرقياً أنهم صينيون وإن اختلفت لغاتهم أو لهجاتهم بحيث لا يفهم بعضهم بعضاً. وبالرغم من أن الكثير من الصينيين أميون لا يعرفون القراءة والكتابة، فإنهم يجدون في طريقتهم في الكتابة والخط عوامل أساسية تجمعهم تحت هوية واحدة لا غير.

ومثال جماعة السيخ في بريطانيا دليل آخر على الصعوبة التي نواجهها حين نضاهي لغة واحدة بجماعة عرقية واحدة. فحين أحس السيخ في بريطانيا بمن يهددهم بعدم الاعتراف بتميزهم الثقافي والديني وما يستوجبه ذلك من

نبذ ارتداء الطربوش مثلاً في المدارس، هب رجال الدين السيخ للدعوة إلى دعم هوية الجماعة بتشجيع تدريس اللغة البنجابية وقصر التزاوج فيما بينهم وغير ذلك من أوجه السلوك - كطريقة قص الشعر وارتداء الطربوش - التي عدُّوها أساساً لتعزيز الهوية السيخية. هذا على الرغم من أنه من الناحية العملية لا تعد اللغة البنجابية أو ارتداء الطربوش أموراً جوهرية في الديانة السيخية في الهند أو باكستان أو بريطانيا.

وهناك أمثلة أخرى على ثقافات عاشت رغم اندثار لغاتها (كالثقافة اليهودية ولغتها اليدشية[30] Yiddish. وثقافة الأمريكيين السود ولغتهم الجالاوية، والثقافة الهندية الشرقية في البحر الكاريبي ولغات أصحابها الهندية وكلها قد اندثرت). وهناك ثقافات عاشت لأنها كانت جزءاً من تراث شفهي في مجتمع معزول حافظ عليها (مثل ثقافة الأكاديين الفرنسيين في لويزيانا)، أو لأن أعضاءها تعلموا اللغة الغالبة وأتقنوها حتى يحافظوا على لغتهم الأصلية كما حدث في نيومكسكو حين قاد بادري مارتنيز Padre Martinez - في مدينة تاوز بنيومكسكو - المقاومة التي نشط لها المكسيكيون الناطقون بالأسبانية ضد الاحتلال الأمريكي، وذلك بتشجيعهم على تعلم الإنكليزية حتى يتم لهم الحفاظ على ثقافتهم ولغتهم الأسبانية على قيد الحياة.

عبور اللغة بوصفه فعل هوية

من الوسائل التي يلجأ إليها المهاجرون في دول المهجر للحفاظ على ثقافاتهم استغلال المعاني الكثيرة التي يصادفونها بحكم معايشتهم جماعات خطاب متعددة. فهم على كثرتهم واختلاف مشاربهم يحيون ويتحدثون ويتفاعلون بلغات متعددة أو بصيغ متباينة للغة الواحدة. يفعل ذلك الأمريكيون في لوس أنجلس ممن قدموا من أمريكا اللاتينية، ويفعل ذلك المهاجرون الباكستانيون

في لندن، والعرب في باريس، بل والأمريكيون السود في نيويورك وأتلانتا. فقد ارتضى هؤلاء جميعاً طريقة واحدة في التخاطب ترتكز على الموضوع والمتحدث وسياق الموقف. ونرى الكثير من هذه الحالات الخاصة بعبور اللغة language crossings في التواصل بين من ينتمون إلى أعراق متباينة، وكما رأينا في الفصل الرابع فإن هذا العبور يستند على تبديل الشفرات أي إقحام عناصر لغة ما في لغة أخرى، ولتكن مفردات، مثلاً، أو جملاً كاملة أو ملامح أخرى كالنبر والتنغيم وما إلى ذلك. و يمَكِّن عبور اللغة المتحدثين من تغيير وضعهم footing في المحادثة الواحدة، ويمَكِّنهم أيضاً من إظهار التضامن أو الحفاظ على مسافة إزاء مجتمعات الخطاب التي يستخدمون لغاتها ويعرفون أن محاوريهم ينتمون إليها. والمقصود بعبور اللغات ممارسة المتحدثين لما يمكن أن نسميه أفعال هوية ثقافية cultural acts of identity. وهذا ما نجده في هذا الحوار بين فتاة وفتى مكسيكيين من ثنائيي اللغة يبلغان الثانية عشرة من عمريهما ويدرسان بمدرسة أمريكية بالولايات المتحدة. وفي هذا الحوار تخبر M زميلها F بما تفعله عندما تعود إلى المدرسة علماً بأن M و F يتحدثان عادة لغة واحدة وهي الإسبانية:

M: Mira, me pongo a hacer tarea, después me pongo leer un libro, despues me pongo a hacer matemática, después de hacer matemática me pongo a practicar en el piano, después de terminarse en el piano =

F: = you got a piano?

M: I have a piano in my house, don't you guys know it? ... No me digas que no sabía ... yo lo dije a Gabriel y a Fernando ... todo el mundo.

[M: Look, I do homework, then I read a book, then I do science, I do maths, after doing maths I practice the piano, after I finished with the piano =

F: = you got a piano?

M: I have a piano in my house, don't you guys know it? ... Don't tell me that you didn't know ... I told Gabriel and Fernando ... everybody]

(مادة غير منشورة لكلير كرامش: ويلاحظ القارئ هنا المزج بين الأسبانية والإنكليزية الأمريكية.)

ونرى هنا أن امتلاك M للبيانو يظهر أنها تنتمي إلى ثقافة اجتماعية مختلفة عن ثقافة F الذي أبدى دهشته – أو تحفظه – حين استخدم اللغة الأنجلو أمريكية المهيمنة. وعمدت M إلى الإقرار بانتمائها إلى ثقافة هذه اللغة أيضاً حين ردت بالإنكليزية، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى الإسبانية لتظهر تضامنها مع زملائها في الفصل المنحدرين من أصل لاتيني، والمنتمين إلى مستويات معيشية متواضعة.

ويفهم الامتناع عن استخدام اللغة نفسها التي ينتمي المرء إلى ثقافتها على أنه إهانة تستدعي بعضاً من تحسين الوجه facework كما في المقابلة الإذاعية التالية بين اثنين من مقدمي البرامج الموسيقية السود في محطة إذاعية أمريكية وهما (DJ1, DJ2) ومغنية أمريكية سوداء (SG):

DJ1: So whatz up wit da album shotti?

SG: What's up with the album shottie

DJ1: Oh, excu:::se me. How are things progressing with your upcoming

album?

(laughter)

Come on, girl! you know what I'm sayin'. You KNOW you know da terminology! Don't front!

DJ٢: Yeah, an'if ya don't know, now ya know (laughter)

DJ: Or at leas ack like ya know!

SG: I know, I know, I'm jus' messin' wit y'all.

(مادة غير منشورة لكلير كرامش.)

يمكن استغلال عبور اللغة أيضاً في مواقف أكثر تعقيداً من قبل المتحدثين الذين يرغبون في إظهار انتمائهم للثقافات المتعددة أمام محدثيهم، لإظهارهم في صورة من هم الأقل شأناً. وكثيراً ما يعمد هؤلاء المتحدثين الذين ينتمون إلى ثقافات متعددة إلى إقحام نغمة لغة ما في ملامح لغة أخرى، أو استخدام عبارات من لغة وإقحامها في لغة أخرى بغية النأي بأنفسهم عن هويات بعينها، أو للسخرية من هويات أخرى عن طريق التقليد أو المحاكاة الساخرة، وذلك حين تستدعي أغراضهم الاجتماعية هذا. مثال ذلك التقليد الساخر للإنكليزية الآسيوية أو الكريولية الذي يقوم به الصبية الباكستانيون أو المتحدثون الأصليون للإنكليزية كوسيلة لتحدي سلطة المعلم الإنكليزي (BR) في مدرستهم البريطانية.

BR: attention gents

Asif: yeh alright

Alan: alright

Asif: yeh

Kazim: (يحاكي الإنكليزية كما يستعملها الآسيويون) ATTENTION BENJAMIN

/..thenʃa:n bend.. mn/...

BR: concentrate a little bit ...

Kazim: (بالإنكليزية الكريولية) stop moving dat ting aroun

/dæt ti..ran/

(Rampton, Ben. Crossing: Language and Ethnicity among Adolescents. Longman 1995, pages 1156-)

وعلينا أن نفرق عند الحديث عن الهوية الثقافية بين الإجراءات التي تتخذها المجتمعات لتصنيف سكانها والهويات التي ينسبها الأفراد إلى أنفسهم في ظروف مختلفة وأمام متحدثين مختلفين. فإذا كانت الهوية التي تمنحها المجتمعات تنطلق من تصورات جامدة وأفكار نمطية ثابتة وتعميمات متحيزة فإن الهوية التي يمنحها الأفراد لأنفسهم تتغير حسب السياق الاجتماعي. وحين ينسب الأفراد أنفسهم إلى هوية معينة فإنهم يراعون في ذلك فهم الآخرين لهم، وقبولهم لديهم بصفة خاصة، كما يراعون فهم الآخرين لأنفسهم وتوزيع الأدوار والحقوق التقليدية التي يتبناها كل فريق داخل جماعته الخطابية. وأما الهوية الثقافية التي يفرضها المجتمع فإنها - كما في مثال إدموند لافورست - مسألة التزام بلغة يتحدث بها الناس أو يفرضها عليهم الآخرون فرضاً، وهي أيضاً مسألة شخصية حيث يرتبط الفرد بهذه اللغة ارتباطاً عاطفياً؛ لأنه انفق السنين الكثيرة يكتسبها ويتدرب على استخدامها. وسنتعرض فيما يلي للجدل المحتدم بين الفرد والجماعة وعلاقة ذلك بفلسفة اللغة القومية.

القومية اللغوية

يطلق مصطلح القومية اللغوية linguistic nationism على ارتباط صيغة لغوية واحدة بالعضوية في مجتمع قومي واحد. ومثال ذلك ما حدث أثناء الثورة الفرنسية حين ارتبط مفهوم اللغة القومية بثقافة قومية واحدة؛ وكان ذلك بغرض الاستعاضة باللغة القومية عن اللهجات الإقليمية المتباينة والممارسات المحلية المختلفة. فبين عامي 1790 و 1792 أرسل لابيه جرجوار L'Abbé Grégoire استبياناً إلى المحامين ورجال الدين والسياسة في الأقاليم الفرنسية بدعوى توثيق وفهرسة الاستخدامات اللغوية والعرقية للهجات الإقليمية الثلاثين للفرنسيين في فرنسا في ذلك الوقت، وكانت تسمى الباتوا Patois. وقد استطاع اليعاقبة[٣١] Jacobins من خلال ذلك المسح الشامل وضع خطة تمكنوا بموجبها من الإبادة المنظمة لهذه اللهجات. وقد نشأ جدل كبير بين المؤرخين حول سياسة الحكومة التي تعمدت القضاء على اللهجات المحلية في فرنسا في ذلك الوقت. فرأى بعضهم أن الحكومة كانت تهدف من وراء ذلك إلى مصلحة الوحدة القومية والإيديولوجية، ورأى البعض الآخر أن حكومة الثورة كانت تسعى لتغليب الثقافة البرجوازية الباريسية على ثقافة الفلاحين الخشنة، بينما رأى فريق ثالث أن الحكومة كانت تريد كسر الاحتكار الثقافي المهيمن الذي كانت تمارسه الكنيسة الكاثوليكية التي ركزت نشاطها الديني على عامة الفلاحين المحليين. أما الحروب اللغوية فكانت دائماً ولا تزال حروباً ثقافية وسياسية. وما الجهود التي تبذلها فرنسا المعاصرة لإنشاء عصبة من المتحدثين بالفرنسية ينتشرون في أرجاء المعمورة وتتصل وشائجهم بهوية محددة يقال لها الفرانكفونية، إلا سبيلاً لمواجهة ذلك الانتشار الكاسح للغة الإنكليزية. وينعم هؤلاء المتحدثون بالفرنسية بهوية ثقافية تتعدى الحدود القومية supranational وهي هوية لغوية في المقام الأول. ولا يزال الفرنسيون يعنون بلغتهم الفرنسية بوصفها لغة عالمية، ويتجلى ذلك في رعاية

الأكاديميه فرانسيز Académie Française لها وهي مؤسسة قومية أكاديمية يعدها الفرنسيون الحارس الأمين على نقائهم الثقافي. وكذلك الحال مع اللغة الإنكليزية التي يتعامل معها أهلها على أنها لغة عالمية تقوم على رعايتها الهيئات العلمية، ويتجلى هذا في المجلات العلمية الأنجلوأمريكية التي تلزم كتابها بتبنى خطاً فكرياً محدداً لا يحيد عنه الباحثون في بحوثهم العلمية (انظر الفصل الخامس).

وكما رأينا في الفصل الأول حين قلنا إن الأمم الحديثة ما هي إلا مجتمعات متخيلة أو فكرة انبجست من خيال البرجوازية التي توطدت أركانها في القرن الثامن عشر واعتمدت أكثر ما اعتمدت في انتشارها وذيوعها على الرأسمالية التي قويت شوكتها بفضل التقدم في تقانة الطباعة والنشر. نقول إن الأمم الحديثة مجتمعات متخيلة لأنها مجرد تصورات لأمم ذات حدود متناهية، وإن تكن قابلة للمد والجزر، وذات سيادة، يقطنها سكان تربطهم روابط فيها من الود ما يسمح لهم بأن يحملوا السلاح في سبيل الدفاع عن سلامة أوطانهم ومصالحهم الاقتصادية. وهذا النموذج الأم للدولة الحديثة – بوصفها كيانا ثقافياً – لا يوجد إلا في خيال الشعراء. وقد رأينا صورة لذلك في اللغة حين نظر إليها البعض وكأنها ميراث مشترك ونسق مستقل متجانس مكتف بذاته، ينطلق من عالم اجتماعي متجانس أيضاً – وهذا كله لا يوجد أيضاً إلا في خيال الشعراء. وهذه التصورات راسخة عصية على التغيير وإن ساهمت فهي تسهم فيما نطلق عليه 'الهوية' القومية للفرد.

وعندما ظهرت الدول القومية التي يرتبط أفرادها برباط اللغة والمنحدر – كما حدث حين استقلت بليز Belize عن بريطانيا – كان من شأن تبني مقولة الهوية القومية الكاملة أن تحمل على مقولات أخرى مثل الهوية الإسبانية والهوية الماياوية، وهي مقولات قد تطالب بدورها بأهمية إضافية، خاصة أن وجود الأسبان والمايويين لا يقتصر على حدود بليز، ولكنهم ينتشرون خارج

تلك الحدود فيشكلون تحالفات تتعدى حدود القومية. وهذا هو ما حدث في أوربا أيضاً مع سكان الباسك على الحدود الفرنسية، وسكان إقليم كاتالونيا على الحدود الإسبانية؛ حيث تخطت هوية السكان هناك، لغوياً وثقافياً، الحدود القومية للدولة الفرنسية والدولة الأسبانية، واستعاضوا عن الدولة بالإقليم، وعن اللغة القومية باللغة المحلية كرموز على الهوية الثقافية.

وعادة ما ترد الدول ذات السيادة على مثل هذه الميول الانفصالية بزيادة التركيز على الهوية القومية من خلال التركيز على اللغة القومية أو من خلال التركيز على مفهوم التعدد الثقافي، كتلك الجهود التي تبذلها حالياً حركة اللغة الإنكليزية الأمريكية في الولايات المتحدة لتعديل الدستور سعياً لتسمية اللغة الإنكليزية اللغة القومية الرسمية للولايات المتحدة. ويرى المحللون أن الحكومة الأمريكية لا تسعى من وراء ذلك إلى ضمان وضوح الفهم اللغوي بين الجميع فقط، وإنما تسعى أيضاً إلى تحقيق الهيمنة الثقافية من خلال اللغة. وفي فترات التشظي الاجتماعي ووجود الهويات المتعددة، حين كان كل فريق يطالب بأعلى صوت بالاعتراف به لم تكن مهمة اللغة مهمة إشارية فحسب، وإنما كان للغة قيمة رمزية أيضاً اتساقاً مع الشعار الذي كان مرفوعاً في ذلك الوقت: 'دعني أسمعك وأنت تتكلم وسأخبرك أين يكمن ولاؤك.' وقد كانت العلاقة بين التشريعات الخاصة باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة الأمريكية والتشريعات الخاصة بالحد من الهجرة هدفاً لنقاش كبير من قبل النقاد. فقد كانت اللغة تستخدم كمبرر لاستبعاد الغرباء – كما رأينا في الفصل الأول – وكان استخدام لغة واحدة دون غيرها – في نظر الحكومة – هو علامة دالة على الولاء السياسي. وعندما كان يقول أحدهم 'أنفقت من عمري عشر سنين في تعلم اللغة الفرنسية ولم أصل إلى ما أريد .... ' فإنه يشير إلى فشله في أن يصبح من ثنائيي اللغة فحسب، بل إلى أنه يزدهي بلغته ويزدري لغة الآخر. وما فتئ أنصار الهوية القومية الواحدة المستقرة وأصحاب

اللغة الواحدة يرتابون في نوايا أولئك الذين قدر لهم أن يكونوا من ثنائيي اللغة أو من متعددي اللغة أو من أصحاب المواطنة العالمية[32] cosmopolitanism.

اللغة القياسية والطوطم الثقافي [33]

عادة ما يتم التعبير عن هذه الهوية القومية بلغة تسمى اللغة القياسية standard language وهي لغة متكلفة تم تلفيقها وتعديلها من لهجات متعددة. فعندما يختار مجتمع ما صيغة لغوية يقيس بها الاختلاف بين المواطنين والدخلاء فإنه يسعى لدفع الخروج عنها من خلال القواعد النحوية التي تضعها المعاجم اللغوية وتدريسها في المدارس للنشء في إطار النظام التعليمي القومي الذي ينتهجه ذلك المجتمع. وقد كان الإغريق القدماء مثلاً يطلقون على كل من لم تكن الإغريقية لغته الأم بربرياً؛ أي دخيلاً قادماً من ثقافة أدنى منزلة وأقل شأناً. ولهذا جاء مصطلح البربرية barbarism لكي يعني أي استخدام للغة من شأنه أن ينتهك لياقة اللغة ونقاءها. وكذلك نجد بعض البلاد قد عمدت إلى إنشاء مجامع للغة من أجل الحفاظ على التراث اللغوي القومي في مواجهة الغزو اللغوي الخارجي، والحيلولة دون الانحطاط اللغوي في الداخل. ويعد الخطأ في استخدام اللغة القياسية من قبل المتحدثين بها في هذه البلاد منكراً من المنكرات وتشويهاً للغة الأجداد وجريمة أخلاقية وجمالية تطلق في وجوه المذنبين بها عبارات الإزدراء مثل 'إنهم يفسدون اللغة أو إنهم يغتالون اللغة'.

وما يستحق الملاحظة أن اللغة القياسية تأخذ دائماً الشكل المكتوب ويعين على الحفاظ عليها - كما رأينا في الفصل السابق - ثقافة مكتوبة معتمدة كان من مهامها الأخرى العمل لخدمة جملة من المصالح السياسية والاقتصادية والأيديولوجية. وبالرغم من نصائح المثقفين واستهجانهم الخروج عن قواعد

اللغة، واستعراضهم لما ينبغي أن يكون عليه الاستخدام الصحيح لها، فإنهم كثيراً ما يقعون هم أنفسهم فيما حذروا منه ويرتكبون أعمال البربرية اللغوية التي يشجبونها. وقد وجدت الرغبة في إيقاف عجلة الزمن والحفاظ على نقاء اللغة من أي شوائب ثقافية دخيلة، من يحبطها دائماً ويحول بينها وبين الوصول إلى غايتها. وكانت عمليات الصياغة المشتركة للثقافة أثناء المجابهات الحوارية، كما شرحناها في الفصل الثالث هي ما كان دائماً يفسد الوصول إلى النقاء الخالص للغة والحيلولة بينها وبين الحماية من الشوائب الخارجية.

واللغة تكتسب قيمة رمزية إلى جانب قيمتها الذرائعية لتتحول بعد ذلك إلى طوطم ثقافي للجماعة الثقافية. يحدث ذلك عندما تفرض إحدى اللهجات نفسها على غيرها أو عندما تمارس قوة استعمارية أو وطنية قوتها على دولة أخرى ضعيفة كما فعلت فرنسا مثلاً، أو عندما تفرض لغة نفسها على لغة أخرى من خلال الضغط المكثف لأيديولوجية قوية تنصهر فيها الأيديولوجيات الأخرى (كتفوق الإنكليزية على الفرنسية في لويزيانا وتفوق الإنكليزية على الإسبانية في نيو مكسيكو)، أو عندما تقوم لغة باستئصال لغات أخرى من خلال التخطيط المدروس والمكثف أو من خلال توظيف قوى مجتمعية مبثوثة هنا وهناك (مثل انتشار اللغة الإنكليزية بوصفها لغة عالمية). وتؤدي طوطمة اللغة الغالبة في نهاية المطاف إلى تراجع اللغات المغلوبة ووصمها بالعجز.

وحين تشعر بعض المجتمعات بأن هناك خطراً يتهدد هويتها الثقافية والسياسية فإنها تنهض للدفاع عن لغتها، وتنشط للحفاظ عليها، وللاهتمام بإحيائها (حدث ذلك في كيبك الكندية وبلجيكا وويلز ومناطق أخرى كثيرة في العالم). وكان مصرع إدماند لافورست المؤثر تذكرة بالعلاقة الشخصية العميقة التي يمكن أن تنشأ بين اللغة وبين إحساس الفرد بهويته الثقافية التي ينسبها إلى نفسه سيما عندما يجد من لا يريد أن يعترف بهويته اللغوية وينكر عليه هويته الثقافية. وكان مما ساعد على تفاقم يأس لافورست من الحياة ذلك

الحماس الذي اختبره عند المثقفين الفرنسيين (أو أولئك الذين كانوا يريدون أن ينعتهم الناس بالمثقفين) تجاه لغتهم القومية. وإذ تعلم الشاعر الهاييتي لغة المستعمر ولهجته خالجه الإحساس بأنه ربما لم يرتكب خيانة في حق هويته الهاييتية الكريولية فحسب ولكنه خان تراث أمته الشفاهي الثري كله.

الإمبريالية اللغوية والثقافية

اتخذ موت لافورست في عام 1915 معنى جديداً عندما عادت الحكاية لتفرض نفسها مجدداً في عام 1985 وحين بدأت الحقوق اللغوية linguistic rights تصبح واحدة من حقوق الإنسان الأساسية، وأصبحت المطالبة بالحقوق اللغوية أقوى مما كانت عليه نظراً للانتشار الكاسح الذي حققته اللغة الإنكليزية، والهيمنة الكبيرة التي فرضتها على أماكن كثيرة حول العالم. فبالإضافة إلى الرابطة الرمزية التي كثيراً ما تتوطد بين اللغة وبين الهوية الإقليمية أو الثقافية ظهرت رابطة أخرى تتصل أكثر بالانتشار الكبير للأيديولوجيات العالمية من خلال الانتشار الذي حققته لغة واحدة في أرجاء المعمورة، وتسمى هذه الرابطة اللنغوية linguicism. واللنغوية هي'الأيديولوجيات والبنيات والممارسات المستخدمة في إضفاء الشرعية، وتفعيل وإعادة إنتاج تقسيم غير متساو للسلطة والموارد (مادية وغير مادية) بين مجموعات يتم تعريفها على أساس اللغة' حسب تعريف فلبسون Phillipson في كتابه المعنون: الإمبريالية اللغوية (مطبعة جامعة أكسفورد 1992 ص 47) حيث يقول إن الإمبريالية اللغوية linguistic imperialism الإنكليزية تعد نموذجاً على اللنغوية.

بناء على ما تقدم في وسع المرء أن يلاحظ كيف تصبح نسبة الفرد نفسه إلى جماعة معينة على أساس اللغة أكثر من كونها حاجة إلى قوة روحية أو مادية. فالناس يلوذون باللغة جاعلين منها رمزاً وملاذاً لتحقيق هويتهم الثقافية

حين تضيق بهم السبل، وتُسلب منهم قوتهم الاقتصادية والأيديولوجية. على أن الوقوف على العلة والسبب وراء الإمبريالية اللغوية يصبح - كما رأينا في الفصلين الثاني والثالث - غاية في الصعوبة في عالم تتحكم فيه الرموز، ويتكاثر فيه المعنى الواحد إلى معان لا نهاية لها. وليس منا من ينكر الانتشار الكبير الذي حققته الإنكليزية، وأنها - بالنسبة إلى من أذعنوا لانتشارها - قد أصبحت طوطماً للثقافة الأنجلو أمريكية والطريقة الأنجلو أمريكية في الحياة. ولكن ليس من المؤكد - على المدى الطويل - أن تتحول اللغة الإنكليزية أو غيرها من اللغات إلى أيقونات ثقافية، أو أن نعول على القدرة الكبيرة عند المتحدثين بها على إنشاء حقائق ثقافية متعددة في أية لغة.

وليس معنى ذلك أن التعددية اللغوية شيء نستهجنه أو نرغب عنه في ذاته. وليس ما نخشاه هو اختلاط الأصوات وتضارب اللغات وفوضى البيان، ولكن ما نخشاه حقاً هو أن تحتكر لغة واحدة صناعة الكلام والسيادة على سائر اللغات. وليس الاعتقاد القديم بأن الشعوب تجمعها قضية واحدة لأنها تتحدث لغة واحدة إلا ضرباً من الوهم الضار. والإنسان - تمييزاً له عن غيره من سائر الكائنات - مضطر إلى أن يتواصل مع غيره عبر لغات غير متكافئة - أي يوجد في بعضها ما لا يوجد في غيرها من معان ووسائل تعبير وطرق اشتقاق...الخ، وعبر مساحات واسعة محفوفة بأخطار من سوء الفهم وسوء التفسير. ولذا كانت الحقوق اللغوية - شأنها شأن القوانين المناوئة للاتحادات الاحتكارية (الترست)(34) - في حاجة إلى الدعم؛ ليس لأن العلاقة بين الثقافة واللغة علاقة متطابقة، بل لأن لكل لغة وسائلها المشتركة الشائعة ووسائلها الفريدة المائزة التي من خلالها يفهم الناس العالم ويفهمون بعضهم بعضاً.

خلاصة

رغم عدم وجود علاقة تطابق كامل بين اللغة التي يتحدثها أي فرد وهويته الثقافية، فإن اللغة من أكثر الإشارات أهمية إلى العلاقة بين الفرد والجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها. فالتماثل أو عدمه بين الفرد ولغته إنما يتجلى في سلوكه وينعكس على حياته بشكل واضح؛ ذلك أن اللغة جزء من تركيبنا العضوي، وتهيمن على وجداننا وتفكيرنا ورؤيتنا لهذا العالم من حولنا. واللغة هي الميدان الذي تصطرع فيه الولاءات السياسية والثقافية، وتظهر فيه الانتماءات على حقيقتها، ويتصارع فيه الناس ذوداً عن ولاءاتهم ودفاعاً عن انتماءاتهم. على أن اللغة ليست هي كل شيء، وإذا كانت اللغة تدل على علاقتنا بالعالم فليست هي نفسها العلاقة بيننا وبين هذا العالم.

ولأن الإبهام من الخصائص الحتمية والضرورية للعلامات فإن الاستخدام الواحد للغة قد يدل على الشيء ونقيضه تارة، وقد يدل على التفريق والجمع تارة أخرى، وقد يدل على العبودية والانعتاق مرة، وقد يدل على العجز والقدرة مرة أخرى. ومن مفارقات القدر أن السبيل الأوحد للإبقاء على فسحة للمناورة الضرورية لأي تواصل إنساني لا يكون في التأكد من أن الجميع يتحدث لغة واحدة وإنما يكون في التأكد من أن رأسمال البشرية من العلامات اللغوية يظل متنوعاً وغنياً قدر الطاقة.

مراجع الفصل السادس

(1) GLORIA ANZALDUA: Borderland/La Frontera: The New Mestiza. Spinsters/Aunt Lute 1987.

(2) HOMI K. BAHBHA: The Location of Culture. Routledge 1994.

(3) MICHEL DE CERTEAU: The Practice of Everyday Life. University of California Press 1994.

(4) JAMES CLIFFORD AND GEORGE E. MARCUS (Eds.): Writing Culture. University of California Press 1986.

(5) BRAJ B. KACHRU (Ed.): The Other Tongue. English across Cultures (2nd edn.) University of Illinois Press 1922.

(6) ROBIN TOLMACH LAKOFF: Talking Power. Basic Books 1990.

(7) R.B. LE PAGE and ANDREE TABOURET – KELLER: Acts of Identity. Cambridge University Press 1995 (see Text 20).

(8) ALASTAIR PENNYCOOK: The Cultural of Politics of English as an International Language. Longman 1994 (see Text 22). (9)

الفصل السابع
قضـــايا متـــداولة

العلاقة بين اللغة والثقافة من أكثر القضايا جدلاً في الدراسات اللغوية في الوقت الراهن. فالعلاقة قائمة وطيدة بين اللغة والطريقة التي نفكر بها ونصرف بها شؤون حياتنا ونؤثر بها على الآخرين. ولهذا السبب نفهم إحساسنا بالواقع الاجتماعي على أنه بناء شيدته اللغة أو لنقل هو 'لعبة لغوية'. ولهذا السبب أيضاً جاء هذا المفهوم مشوشاً ومكتنفاً بالغموض. وقد كانت فكرة أن الهوية الاجتماعية والثقافية للفرد قد لا تكون ذلك الكيان الذي يستعصي على التغيير والتبديل، وينطوي على تناغم كلي ووحدة عضوية متراصة كما يقولون، وإنما هي كيان متغير لا يكف عن التبدل من خلال الرموز والصور التي تصور الذات من خلال اللغة، نقول إنها كانت فكرة مشوشة وهدفاً للشك بين اللغويين. وهذه الشكوك تفسر جزئياً ذلك الجدل المحتدم في الوقت الحاضر حول دور ابن اللغة ومفهوم الأصالة الثقافية، ومفاهيم أخرى مثل التواصل عبر الثقافي وبين الثقافي ومتعدد الثقافي، بالإضافة إلى ما أصبح يعرف اليوم بسياسات الاعتراف politics of recognition (انظر المسرد في آخر الكتاب).

من هو ابن اللغة؟

اعتمد علماء اللغة، في المعيار الذي وضعوه لقياس الأداء اللغوي عند غير الناطقين الأصليين باللغة، على البديهة الفطرية التي تتجلى في الدقة النحوية عند أبناء اللغة native speakers. وعلى إحساس أبناء اللغة الذي لا يخيب بالاستخدام الصحيح للغتهم. وقد نعم أبناء اللغة طويلاً باحترام كبير

في عملهم كمعلمين للغة، لأن الناس لا يتطلعون إليهم بوصفهم المرجع اللغوي الذي يثقون به فحسب، وإنما يتطلعون إليهم أيضاً بوصفهم تجسيداً حياً للسياق الثقافي الأصلي لتلك اللغة. على أن هوية أبناء اللغة ومصداقيتهم اللغوية أصبحتا في الأزمنة الأخيرة عرضة للشك وهدفاً للظن. فقد أصبح ابن اللغة، في مفهوم اللغويين ومعلمي اللغة، كياناً مجرداً يصدر عن ملامح متعسفة في طريقة النطق والأداء النحوي وحصيلة الكلمات، وعن صفات مكررة خاصة بالشكل وطريقة التصرف. فمثلاً الأطفال الذين يولدون لأبوين تركيين ويحملون أسماء أسرهم التركية، ونشأوا في ألمانيا وتعلموا بها، هؤلاء الأطفال يواجهون بعض المشقة في سعيهم للاعتراف بهم كأبناء اللغة الألمانية عندما يتقدمون للحصول على وظيفة مدرس للغة الألمانية في الخارج. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن ارتباط اللغة الواحدة بقالب قومي واحد قد رسخ في الذاكرة الجماعية رسوخاً قوياً كما رأينا في الفصل السابق. بالإضافة إلى ذلك نجد أن ابن اللغة إنما هو تجريد أحادي اللغة وأحادي الثقافة؛ فهو ذلك الذي ينطق بلسان قومه، ولا ينطق بغيره، ويعيش بثقافة قومية واحدة. والواقع غير ذلك؛ لأن كثيراً من الناس يتقاسمون لغات مختلفة و صيغ مختلفة من لغة واحدة ويعيشون بثقافات مختلفة وثقافات فرعية (انظر الفصل الأول).

ومن هنا نجد أنفسنا – مرة أخرى – نعود إلى الجدال القديم بين الطبيعة والثقافة. ولسنا نعرف هل يكون ابن اللغة بالمولد؟ أم بالتعليم؟ أم لأنه وجد من يعترف بموقفه ويقبل عضويته في جماعة تشترك في ثقافة واحدة وتصدر عن ضمير واحد؟ فإذا جرت الأمور على النحو الأخير؛ أي أنه وجد من يعترف به ويقبل عضويته في جماعة تتقاسم ثقافة واحدة وتصدر عن ضمير واحد، علينا حينئذ أن نتخلى عن فكرة السليقة المثالية، ونطرح مزاعم امتلاك اللغة امتلاكاً شخصياً، ونوطن النفس على القبول بجملة متنوعة من الاستخدامات

اللغوية، وقبول العضوية في أكثر من مجتمع خطاب واحد – مجتمعات خطاب تتخطى في عددها ما كان يزعم ابن اللغة الانتساب إليه.

الأصالة الثقافية

تتركز أغلب المناقشات الدائرة حول مفهوم ابن اللغة على فكرتين رئيستين وهما الأصالة authenticity والمناسبة appropriateness. وقياساً على إنشاء اللغات القياسية عمدت الدول ذات السيادة إلى إنشاء فكرة الأصالة الثقافية، وهي فكرة مجندة – إذا جاز التعبير – ساعدت على استقطاب الانتماء العاطفي في الداخل والخارج على السواء. ورأينا كيف كانت القوالب اللغوية المحفوظة مثل الشياكة الفرنسية French chic ومقولة الألمان عن العلم بالشيء know how والكاجوال الأمريكية casualness رموزاً يعرفها الناس وتختزل ثقافتهم ويقرونها حال سماعها؛ لأنها تتماهى مع واقعهم الثقافي، وتعينهم على رسم الحدود الثقافية بين (الـ) نحن والآخرين، حتى يصبح الوقوف على تفرد ثقافة كل طرف أمراً متاحاً. وهكذا نجد الذين يسعون للتماهي في ثقافة الآخرين وتقليدهم وتعلم لغاتهم يعلقون أهمية قصوى على الأصالة الفرنسية للخبز الفرنسي أو جداول القطارات الألمانية أو المناسبة الثقافية لأسلوب الحفاوة الياباني أو الاحتفالات الصينية التي تقام للترحيب. إن رغبتهم في تعلم لغة الآخر غير منبتة الصلة عن رغبتهم في الإقتداء بهم ورغبتهم في أن يقبلهم الآخر، ويعترف بهم، ويسمح لهم بالدخول في عالمه.

على أن هناك عاملين يضعان فكرة الأصالة وفكرة المناسبة في اللغة والتعلم موضع السؤال. العامل الأول هو التنوع في أنماط الأصالة داخل المجتمع القومي الواحد، تأسيساً على المتغيرات السياقية مثل السن والمكانة الاجتماعية والنوع والعرق والجنس أو السلالة. فما هو أصيل في سياق يفتقر إلى الأصالة في

سياق آخر. أما العامل الثاني فهو أن عدم الرغبة في حمل المتعلمين على تبني مفهوم للأصالة من شأنه التقليل من شأنهم، والإنقاص من قدرهم كمتعلمين. ومن ثم فقد نحتاج إلى الاستعاضة عن مفهوم المناسبة الثقافية cultural appropriateness بمفهوم الحيازة أو الاستيلاء appropriation الذي بموجبه يحق لدارسي اللغة الأجنبية أن يتملكوا هذه اللغة ويستولوا على ثقافتها، وذلك حين يتبنون هذه اللغة وتلك الثقافة ويخضعونهما لحاجاتهم واهتماماتهم. وهذه القدرة على اكتساب لغة الآخر وفهم ثقافته مع الاحتفاظ باللغة الأم والثقافة الأم ما هي إلا مظهر من مظاهر قدرة أشمل وأعم هي القدرة على التصالح مع اللغات والثقافات المتعددة، وهو ما نسميه بالتواصل عبر الثقافي وبين الثقافي ومتعدد الثقافي.

عبر الثقافي وبين الثقافي ومتعدد الثقافي

إن المصطلحات التي نستخدمها لندل بها على التواصل فيما بيننا وبين من لا يتقاسموننا القومية والأصول الاجتماعية والعرقية، ولا يشتركون معنا في النوع والسن والمهنة والتفضيل الجنسي. هي مصطلحات كثيرة ومتنوعة، وتعتمد على تعريفنا للثقافة، وإلى أي المناهج نميل. على أن المسميات تتطابق عند الاستخدام أحياناً، وتتشابك أحياناً أخرى.

مصطلح عبر الثقافي cross-cultural أو بين الثقافي intercultural مثلاً يشير عادة إلى التقاء ثقافتين أو لغتين عبر الحدود السياسية للدول المستقلة. ويدخل هذا المفهوم في إطار معادلة دولة واحدة – ثقافة واحدة – لغة واحدة، ويدخل أيضاً ضمن احتمالات وقوع الصدمة الثقافية التي يمكن أن تحدث عند عبور الحدود إلى دولة أخرى. ويسعى المنهج عبر الثقافي في تعليم اللغة الأجنبية إلى إيجاد الوسائل من أجل فهم الآخر على الجانب الثاني من الحدود

عن طريق تعلم لغة هذا الآخر القومية.

وقد يشير مصطلح بين الثقافي أيضاً إلى التواصل بين الناس على اختلاف مشاربهم العرقية والاجتماعية واختلاف مفهومهم الثقافي لقضايا النوع (من حيث الذكورة والأنوثة) في حدود اللغة القومية الواحدة. ويستخدم المصطلحان المذكوران لوصف التواصل مثلاً بين الأمريكيين المنحدرين من أصول صينية والأمريكيين الأفارقة، وبين أبناء الطبقة العاملة وأبناء الطبقة الغنية، وكذلك بين الشواذ جنسياً والغيريين وبين الرجال والنساء. ويحيلنا التواصل بين الثقافي أيضاً إلى الحوار بين ثقافات الأقليات والثقافات السائدة، كما يحيلنا إلى قضايا مثل ثنائية اللغة وثنائية الثقافة.

أما مصطلح متعدد الثقافي multicultural فهو أكثر استخداماً، وذلك بطريقتين: الأولى بالمعنى المجتمعي societal لأنه يشير إلى التعايش بين الناس على اختلاف مشاربهم وأعراقهم كالشأن في 'المجتمعات متعددة الثقافات'. والطريقة الثانية بالمعنى الفردي لأنه يصف الأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمعات خطاب متباينة، ومن ثم ينعمون بالموارد اللغوية والاستراتيجيات الاجتماعية للحاق والتماهي في ثقافات متعددة، وطرائق مختلفة في استخدام اللغة. ولا تكون الهوية الثقافية للأفراد متعددي الثقافة هي نفسها الهوية الثقافية لدى أبناء اللغة متعددي الألسن، ولكنها تتألف من عدد من الأدوار الاجتماعية أو ما نسميه 'أوضاع الفرد subject positions' التي يؤدونها في المجتمع تأسيساً على السياق التفاعلي الذي يجدون أنفسهم فيه.

سياسات الاعتراف

ننتقل الآن إلى القضية الصعبة والشائكة وهي ما يعرف بالتسامح 'tolerance' أو التعاطف 'empathy' أو - ومن وجهة النظر السياسية - الاعتراف 'recognition' بالثقافات الأخرى. فالأفراد يحتاجون إلى الاعتراف بهم كأفراد أولاً، وبهويتهم الاجتماعية في الجماعة التي ينتمون إليها ثانياً. ولكن وكما رأينا في تحسين الوجه facework (انظر الفصل الرابع) قد يتنافر المطلبان، ويستعصيان على التماثل. فهم يرون أنهم يستحقون كل الاحترام ويستحقون أن تضمن لهم الدولة الحقوق الإنسانية التي تضمنها لجميع أفرادها بموجب القوانين التي تحكم المجتمع الديمقراطي. ولكنهم يطالبون المجتمع في الوقت نفسه بأن يضمن لهم حقوقاً خاصة، ويمنحهم اعترافاً خاصاً لأنهم أعضاء في جماعة ثقافية مغايرة. وبعبارة أخرى 'أريد منك أن تعترف بأني مثلك تماماً في جميع الحقوق وفي الوقت نفسه أريد منك أن تقبل باختلافي عنك، ولنختصر القضية في سؤال:' هل نعترف بالتماثل أم بالاختلاف؟

ويبدو أن الكفاح من أجل الحصول على الاعتراف الذي يمكن أن نلخصه في عبارة 'نحن متساوون ولكننا مختلفون، إنما ينطلق من فرضية الاستحقاق المتعادل حيث تصبح الأنا أو الأنت نحن؛ لأننا نتقاسم هدفاً مشتركاً واضحاً، وفي وسعنا أن نعمل سوياً من أجل الصالح العام. على أن الهدف المشترك والتعريف المشترك للصالح العام إنما يحول دون أي تمايز في الأدوار ووجهات النظر بين بني البشر. فالمبادئ العالمية التي تتسم بها الظواهر اللغوية في جميع لغات العالم والخصائص اللغوية التي تتفرد بها لغة (أو مجموعة من اللغات) ما هي إلا أفكار مجردة لا تأخذ في الحسبان حقائق أساسية لها علاقة بالتوزيع غير العادل للقوة والسلطة ومحاولات إضفاء الشرعية على الأنظمة. ولهذا لا نحتاج إلى أحكام نهائية حاسمة بعيدة عن الواقع حول القيمة المتساوية أو الاستحقاق النسبي للثقافات المختلفة، وإنما نحتاج إلى

أن يكون لدينا الاستعداد لأن نقبل التخلي عن بعض وجهات نظرنا، ونمضي قليلاً بعيداً عن الحدود التي رسمناها لآفاقنا ونحن نسعى لفهم الآخر. وكما لا ينبغي لنا أن نخلط بين الهوية التي تمنحها النظم البيروقراطية والهوية التي ننسبها إلى أنفسنا لا ينبغي - أيضاً وبالمنطق نفسه - أن نزعم أن مقولاتنا الثقافية التي نستخدمها للحكم على استحقاق الثقافات الأخرى للقيمة هي مقولات عالمية.

ونظراً لموجات الهجرة التي تحدث كل يوم في جميع أرجاء المعمورة فإن قضية الاعتراف ما فتئت تؤرق الساسة في جميع الدول الصناعية قاطبة، وما زالت تشكل حاجزاً أمام صناع القرار في تلك الدول. وحتى في الدول التي تمكنت من تحقيق الانسجام رغم تعدد الثقافات والأعراق - كما حدث في سنغافورة أو الولايات المتحدة - نجد أن هذه الدول تذكي الاختلاف وتزيد الانفصام عندما تلح على لفت الانتباه إلى الهويات السلالية والعرقية: وهذا الاهتمام من شأنه أن يجد الدعم الكافي له عندما يتمسح في الدين. ففي سنغافورة مثلاً نجد المعتقدات والممارسات الدينية المختلفة عند الطاويين (35) الصينيين والبوذيين والهندوس الهنود والمسلمين والسيخ والإسلاميين الماياويين تؤكد كلها - بالدليل الساطع - وجود اختلاف ثقافي وعرقي رغم المزاعم التي تدعي وجود هوية سنغافورية قومية. ويساعد نظام التعليم على إذكاء هذا التمييز أيضاً. وهو ما يحدث في الولايات المتحدة أيضاً؛ حيث يضمن نظام التعليم اللامركزي والذي يتلقى معظم تمويله من مصلحة الضرائب على الممتلكات المحلية، استمرار البنية الاجتماعية المحلية في المدرسة، وهي بنية قائمة على التوزيع العرقي والسلالي المحلي.

ولا يستطيع الفرد في المجتمعات المدنية الصغيرة أن يستلهم هويته الثقافية من نصوص اجتماعية مكتوبة سلفاً، ولا من مبادئ أخلاقية عامة أو قومية؛ لأن الهويات الثقافية في هذه المجتمعات إنما تنشأ من خلال الحوار المفتوح مع

الآخرين. وتعكس الممارسات التواصلية في هذه المجتمعات شبكات من العلاقات المستقرة للتفاعل الاجتماعي حددتها الأسرة والمدرسة وأماكن العمل والمؤسسة المهنية والكنيسة، كل حسب نصيبه من القوة والسلطة، وحسب دوره ووضعه الشرعي، وحسب القيم والمعتقدات التي يؤمن بها، والمواقف والأيديولوجيات التي يعتنقها، ويستمر هذا الوضع مع استمرارنا في تعيين الحدود التي تقف عندها هوية المرء الثقافية. على أن الحراك الجغرافي والتغيير المهني وتقلبات الحياة قد تمنح المرء هويات اجتماعية متعددة يستلهمها كلها بالتناوب في المواقف المعقدة التي يواجهها في حياته اليومية.

وعلى كل فإن هذه الرؤية القائمة على التعدد الثقافي للعلاقة بين الهوية اللغوية من جهة، والهوية الثقافية من جهة أخرى، إنما تنطلق هي نفسها من تراث يضرب بجذوره في الثقافة المدنية للمجتمع الصناعي. و نجد اليوم أن الشقة آخذة في الاتساع، ليس بين الثقافات القومية ولكن بين من أصبح في مقدورهم القفز فوق القومية والدخول في العالمية - من خلال الدخول على شبكة المعلومات الدولية - الإنترنت - ومن خلال الترحال وإتقان أكثر من لغة واحدة إلى جانب الإنكليزية، بل ومن خلال قدرتهم على تبديل الشفرة بين جميع هذه اللغات والحرية التي ينعمون بها في ذلك، نقول اتسعت الشقة بين هؤلاء جميعاً وبين أولئك الذين استقرت بهم الأمور على ثقافة قومية ودينية واحدة. و قد لا يرضى عن هذا الوصف للتعدد الثقافي أولئك الذين ينتمون إلى تراث فكري مختلف ذلك أن مقولات الهوية في نظرهم ثابتة ومتفق عليها، ومن الصعب تغييرها أو المساس بها.

وبعد، فقد كان هذا المسح الموجز، وهذه المراجعة المختصرة للصلات المتعددة بين اللغة والثقافة حقيق بأن ينتقل بنا من دراسة العلامات ومعانيها إلى قضايا الهوية الثقافية والبقاء الثقافي. وما زال الجانب الرمزي للقضية يحتاج إلى الكثير من البحث والدراسة، وما زلنا في حاجة ماسة أيضاً إلى

التوسع في دراسة العلامات وعلاقتها بالثقافة في دراستنا للعلاقة بين اللغة والثقافة، وأن نقدر الاختلافات العظيمة والتنوع الكبير بين بني البشر بعضهم بعضاً وكذا الاختلافات عند الشخص الواحد.

مراجع الفصل السابع

(1) CLAIR KRAMSCH: Context and Culture in Language Teaching. Oxford University Press 1939.

(2) RON SCOLION and SUZANNE WONG SCOLLON: Intercultural Communication – A Discourse Approach. Blackwell 1995.

(3) CHARLES TAYLOR: Multiculturalism (Ed. and introduced by Amy Gutmann). Princeton University Press 1994 (see Text 24).

(4) DENNIS TEDLOCK and BRUCE MANNHEIM (Eds): The Dialogic Emergence of Culture. University of Illinois Press 1995.

الجــزء الثـــاني

قراءات

نصوص مختارة من بعض المراجع

الفصل الأول
علاقة اللغة بالثقافة

النص الأول

مرجع النص

Edward Sapir: Selected Writings of Edward Sapir in Language, Culture, and Personality. Edited by David G. Mandelbaum. University of California Press 1949, page 162.

مختارات من كتابات إدوارد سابير في اللغة والثقافة والشخصية، مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1949.

اقتبسنا هذا النص المعروف لعالم اللغة والأنثروبولوجيا إدوارد سابير من كتاباته التي كرسها لدراساته للغات الهندية الأمريكية. و في هذه الفقرة يضع سابير الأساس لقواعد نظريته في النسبية اللغوية.

اللغة هي الدليل على الواقع الاجتماعي. ورغم أن العلماء لا ينتبهون كثيراً للأهمية القصوى التي تشكلها اللغة لطلاب العلوم الاجتماعية فإن اللغة في الواقع هي المسؤولة عن تشكيل تفكيرنا كله حول القضايا والمتغيرات الاجتماعية. والإنسان لا يعيش في العالم المادي وحده، ولا يعيش في النشاط الاجتماعي وحده، كما جرى عليه الاعتقاد، ولكنه يعيش في كنف اللغة التي يعبر بها في المجتمع. ومن الوهم أن نتصور أن الإنسان قادر على التكيف مع

الواقع دون حاجة إلى اللغة أساساً، وأنها (أي اللغة) مجرد وسيلة عرضية للتفاهم وتوصيل الفكر. والحق أن 'عالم الواقع' قد انبنى - وإن يكن من دون قصد - على العادات اللغوية التي تبنتها الجماعة التي تتحدث تلك اللغة. وليس هناك لغتان تتشابهان تشابهاً تاماً إلى حد يعكسان فيه واقعاً اجتماعياً واحداً. فالعوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة، يختلف بعضها عن البعض الآخر، وليست عالماً واحداً لا يختلف إلا في الأسماء. ونحن نرى ونسمع ونختبر الأشياء على وجه بعينه دون غيره حسب اللغة التي تطرح أمامنا اختيارات محددة في التفسير.

النص الثاني

مرجع النص

BENJAMIN LEE WHORF: Language, Thought and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf. Edited by John B. Carroll. Massachusetts Institute of Technology Press 1956, pages 212, 221.

بنيامين لي وورف: اللغة والفكر والواقع: نصوص مختارة من كتابات بنيامين لي ورف (1956).

تعد الفقرات التالية أكثر كتابات ورف اقتباساً، وأكثرها إثارة للجدل، وتدور حول النسبية اللغوية. وسوف نتعرف هنا على بعض أفكاره الرئيسة، مثال: إن اللغة والفكر يعضد كل منهما الآخر، ولا تعكس اللغة الواقع وإنما تشكله، وليس النحو بعالمي بل هو خاص بكل لغة على حدة.

من غير العملي أن نعتبر النسق اللغوي الخلفي لأية لغة (وأعني بذلك النحو) مجرد أداة لإعادة إنتاج الأفكار، فهو أكثر من ذلك: إذ أنه المُشَكل للأفكار والخادم لها، وهو المنهج والمرشد الذي نصل به إلى النشاط الذهني عند الفرد، وإلى تحليلاته للأفكار الغامضة، وتأليفه لعناصر الكلام في ذهنه، واصطناعه للعبارات المختزنة لديه. فليست صياغة الأفكار بعملية مستقلة حرة، ولا هي موغلة في المنطق بالمعنى القديم للمنطق ولكنها جزء من نحو معين، يختلف من حيث القوة والضعف من نحو إلى نحو. فنحن نحلل الطبيعة ونحولها إلى سطور في لغاتنا التي منحتها لنا. وليست الأفكار والرموز التي نستمدها من عالم الظواهر موجودة هناك في الطبيعة منتظرة لكل مستكشف،

وجاهزة لكل مراقب تدعوه لأخذها، ولكن الأمور على النقيض من ذلك لأن العالم يقدم نفسه في صورة انطباعات دائمة التغير ولا تكف عن التلون. وعلينا أن نعمل في هذه الانطباعات عقولنا فنعيدها إلى نظام ونردها إلى نسق، ويتم ذلك من خلال المنظومات اللغوية التي تختزنها أذهاننا. فنحن نقطع الطبيعة إرباً إرباً، ونضم القطع إلى مفاهيم ونعزوها إلى معان؛ لأننا في الواقع أطراف في اتفاق ننظم بموجبه أفكارنا، وهو اتفاق يلتزم به أيضاً مجتمع الخطاب الذي ننتمي إليه، ويتحول إلى رموز في أنماط لغتنا. وهو اتفاق ضمني مضمر، شروطه وبنوده ملزمة إلى أقصى حدود الإلزام؛ لأننا لا نتحدث إلا عندما نتعهد بالاشتراك في تنظيم وتصنيف المعطيات التي يقضي بها الاتفاق...

من هذه الحقيقة أقدم ما أطلقت عليه 'مبدأ النسبية اللغوية' الذي يعني في عبارات بعيدة عن التنميق البلاغي أن مستخدمي الأنواع المختلفة من النحو إنما يضطرهم نحوهم إلى أنماط مختلفة من المشاهدة وإلى تقييمات مختلفة لمشاهدات متشابهة ظاهرياً، ومن ثم فهم ليسوا متساوين كمشاهدين، ولكنهم يصلون حتماً إلى وجهات نظر مختلفة إلى حد ما عن العالم.

النص الثالث

مرجع النص

STEVEN PINKER: The Language of Instinct. Harper 1995, pages 60 and 61.

ستيفن بنكر: لغة الغريزة (1995)

يسعى ستيفن بنكر – من خلال مهنته كواحد من علماء النفس المعرفي – إلى استخدام الأدلة النفسية للرد على مزاعم ورف حول العلاقة بين اللغة والفكر.

ما الذي دفع ورف إلى هذا الموقف المتطرف؟ فقد كتب يقول: إن الفكرة جالت بخاطره في البداية عندما كان يعمل مهندس إطفاء، وأخذته الدهشة حين لاحظ كيف تسببت اللغة في أن يسيء عمال الإطفاء فهم بعض المواقف الحرجة. وضرب مثلاً بالعامل الذي تسبب في انفجار خطير عندما ألقى بسيجارة مشتعلة في اسطوانة «فارغة» وكانت في الواقع مليئة ببخار الغاز، وعامل آخر أشعل موقد اللحام قريباً من «حوض ماء» كان في الحقيقة مخصصاً لتحليل عناصر نفايات المدابغ وكان يطلق غازات سريعة الاشتعال ولم يكن له علاقة بالماء. وكانت دراسات ورف في اللغات الأمريكية سنداً له عضَّد قناعاته. مثلاً: في اللغة الأباتشية(36) نجد أن جملة: «إنه نبع متقطر It is a dripping spring' لابد أن تكون 'مثل بياض ماء، أو بياض ينابيع، منحدرAs water, or springs, whiteness downwards..' ثم يهتف ورف قائلاً: 'يا له من اختلاف في التفكير بيننا وبينهم!'

ولكنك كلما أنعمت فكرك في حجة ورف كلما ازددت إيماناً بأنها خالية من المعنى. ولنأخذ مثالاً على ذلك قصة العامل والاسطوانة 'الفارغة.' يفترض

ورف أن بذور الكارثة كانت كامنة في دلالات كلمة 'فارغة empty' فهو يزعم أن معناها أن الاسطوانة كانت خالية من محتوياتها المعتادة، وأصبحت عديمة القيمة، أي مجرد تجويف فارغ خامل لا قيمة له. وأما العامل سيء الحظ، فقد انتهت به مسمياته اللغوية التي صاغت فهمه للواقع إلى أنه لم يفرق بين معنى خامل وجاف؛ ومن ثم ألقى سيجارته التي أشعلت بخار الغاز الذي لم يره العامل في الأسطوانة؛ لأن الغاز مادة لا مرئية. فالاسطوانة الخالية - إلا من بخار الغاز - تبدو للناظر خالية من أي شيء. من المؤكد أن عينيه خدعتاه عن كنه هذه الكارثة المتحركة دون أن يكون للغة ذنب يذكر.

ويفترض أن يكون مثال البياض Whiteness. وهو ينحدر dripping من الينبوع، أن يظهر أن العقل الأباتشي لا يميل إلى تجزئة الأحداث إلى أشياء وأفعال متمايزة. وقد دلل ورف على ذلك بأكثر من مثال واحد استوحاه من اللغات الأمريكية التي يتحدث بها المنحدرون من أصول شتى. فالمعادل اللغوي في اللغة الأباتشية لجملة " القارب يستقر على الشاطئ هو "القارب يقبع على الشاطئ مثل نقطة مستعداً للانطلاق." والمعادل اللغوي لجملة "إنه يدعو الناس إلى مأدبة" هو "إنه يدعو آكلي الطعام المطبوخ." وهذه بالتأكيد ليست طريقتنا في الكلام على الإطلاق، ولكن هل منا من يجزم بأنهم مختلفون عنا في طريقة تفكيرهم؟

وعندما نشر ورف مقالاته تكفل عالما اللغويات النفسية إرك لننبرج وروجر براون بالرد، ووجدا عنده استدلالين لم يستندا إلى منطق في مناقشته: الأول أنه لم يكلف نفسه دراسة أي من اللغات الأباتشية، وليس ثم دليل على أنه قابل أباتشياً واحداً في حياته كلها، ولذا جاءت تأكيداته حول سيكولوجية الأباتشيين خالية من الدليل؛ لأنه أوعزها كلها إلى النحو في اللغة الأباتشية ما أضفى الغموض على حججه. فالأباتشي في نظره يفكر بطريقة مختلفة عنا لا لشيء إلا لأنه يتحدث بطريقة مختلفة!! كيف عرفنا إذاً أنهم يفكرون

بطريقة مختلفة؟ ما عليك إلا أن تستمع إليهم وهم يتحدثون!

يتلخص الاستدلال الثاني في أن ورف حين عرض علينا نماذج من لغة الأباتشيين لم تكن الجمل التي أوردها موفقة في توضيح مقصده، فقد ترجمها ترجمة حرفية وهو يقصد أن تجيء تلك الترجمات غريبة ومعانيها شاذة ما وسعه ذلك. وبنظرة سريعة في الشروح والتعليقات التي أوردها ورف نكتشف أنه سعى إلى التلفيق في ترجمة هذه الجمل والعبارات. وفي وسعي مثلاً - وبدرجة لا تقل عنه من التبرير النحوي- أن أعيد كتابة الجملة الأولى بعبارة: "هذه المادة الصافية - الماء - تتحدر." وأستطيع أيضاً أن أعكس الطريق فأضع عوضاً عن جملة "إنه يمشي He walks" الإنكليزية جملة "ذكر وحيد يتقدم ببطء As solitary masculinity, leggedness proceeds” .

النص الرابع

مرجع النص

JOHN J. GUMPERZ AND STEPHEN C. LEVINSON: 'Introduction: Linguistic Relativity re-examined' in J.J. Gumperz and S. C. Levinson (Eds.): Rethinking Linguistic Relativity. Cambridge University Press 1996, page I.

جون جومبيرز وستيفن ليفنسون: "مقدمة: إعادة النظر في النسبية اللغوية" مطبعة جامعة كامبردج 1996.

في نهاية التسعينيات قام علماء اللغة والأنثروبولوجيا بمراجعة نظرية النسبية اللغوية على ضوء الإنجازات الجديدة في العلوم المعرفية والدراسات العرقية وعلم اجتماع اللغة. وهنا يطرح جومبيرز وليفنسون مفهوماً متوازناً يستند إلى المنظور الأنثروبولوجي والبراجماتي يقر بالمظاهر العالمية للغة بالإضافة إلى تجلياتها الخاصة عند الأفراد المتحدثين بها في سياقات متباينة في الاستخدام.

لقد أصبح من واجب دارسي اللغة والاجتماع اليوم أن يلموا إلماماً تاماً بالمبادئ الأساسية لنظرية النسبية اللغوية، وأن يعرفوا أن الثقافة تؤثر على طريقتنا في التفكير من خلال اللغة التي يستخدمها الناس في ثقافاتهم، وتؤثر كذلك في تصنيفنا للأشياء وتقسيمنا للعالم الذي نختبره. وليست خبراتنا في الحياة إلا دليلاً على ما نزعم، والدليل على ذلك أن السباق الصعب الذي نخوضه من أجل تعلم لغة ثانية ينتهي بنا دائماً إلى أفق مغاير. وهناك دليل آخر وهو الغياب الواضح للترجمة الحاسمة وحتى الدقيقة (ناهيك عن الفشل

المضحك في كتب التعبيرات) وتلك الجهود الدبلوماسية التي كثيراً ما تتحطم على صخور اللغة والبيان.

من ناحية أخرى هناك ذوق عام قوي يصر على أن الحجر حجر مهما كان عدد الأسماء التي سمي بها، ويصر كذلك على أن العالم واقع صلب لا يقبل الجدل، ويفرض بنيته الخاصة على تفكيرنا، وحديثنا، وأن حجاب الاختلاف اللغوي يمكن التخلص منه بسهولة نسبية. وفي وسعنا أن نحشد من الخبرات الذاتية والحقائق الموضوعية ما يدعم وجهة النظر هذه. مثال ذلك البهجة التي نجدها في صداقة الأجانب، وقدرتنا على اكتشاف خطط المنافسين الدخلاء العسكرية وتنظيماتهم الاقتصادية، ووجود العلوم المقارنة نفسها بين اللغة وعلم الاجتماع وعلم النفس.

الفصل الثاني
المعنى بوصفه علامة

النص الخامس

مرجع النص
EDWARD SPIR: Selected Writings of Eward Sapir in Language, Culture, and Personality. Edited by David G. Mandelbaum. University of California Press 1949, pages 157-159.

إدوارد سابير، نماذج مختارة من كتابات إدوارد سابير في اللغة والثقافة والشخصية، حرره دافيد ج. ماندلبوم (جامعة كاليفورنيا، 1949) 157–159.

وفقاً لمبدأ النسبية اللغوية نجد أن الثقافة عبارة عن رموز مطمورة في بطون المعاجم والتراكيب النحوية للغة ما كما توضحها الأمثلة التي سوف نوردها في هذا الكتاب. على اننا يجب أن نسأل أنفسنا: هل كان وصف الظواهر اللغوية (بالإنكليزية) التي يقوم بها الناطقون بلغات أخرى – كل في لغته – يتوافق مع خبراتهم الخاصة كل في لغته؟ النسبية اللغوية تنطبق أيضاً على وصف الظواهر اللغوية في اللغة الإنكليزية واللغات الأخرى.

عندما نرى حجراً يسقط من الفضاء متجهاً نحو الأرض فليس من بد من تحليل الظاهرة، وذلك بردها إلى فكرتين محددتين وهما: وجود الحجر، وفعل السقوط. ثم نربط هاتين الفكرتين برباط لغوي يوافق قواعد اللغة الإنكليزية فنقول في جملة خبرية: "الحجر يسقط". ثم ندعي – ببساطة

ساذجة – أن هذا التحليل يكفي، وأنه التحليل الوحيد المقبول. وإذا أنعمنا النظر أيضاً في طرق اللغات الأخرى للتعبير عن هذه الصورة الذهنية، لا نلبث أن ندرك مقدار ما نضيفه وما نحذفه وما نعيد ترتيبه في لغتنا عند التعبير، دون أن ينال ذلك من صحة تقريرنا الذي نصف فيه الأحداث الواقعية.

وفي اللغتين الألمانية والفرنسية نضطر إلى أن نعين للحجر جنساً gender. وفي لغة الشيبوا[37] Cheppewa لا نستطيع التعبير عما يجول في خواطرنا دون أن نستحضر حقيقة، ليست لها – في الظاهر – من علاقة بالموضوع، وهي أن الحجر من الجمادات. وإذا قلنا إن النوع له صلة بالموضوع فقد يتساءل الروس عن السبب في أننا اضطررنا لتعيين جنس الحجر في كل مرة نذكره فيها، ولماذا نعتقد بضرورة تحديد حال الحجر، أو أي جسم آخر من نوعه، نكرة كان أو معرفة؟ ولماذا يؤرقنا الفرق بين 'الـ حجر the stone' و 'حجر a stone'. فعبارة 'الحجر يسقط' حقيقة بالنسبة إلى لينين كما هي حقيقة بالنسبة إلى شيشرون. وقد يتساءل الهندي الكواكتلي[38] Kwakiutl في برِتش كولومبيا British Columbia: لماذا لا نذهب إلى أبعد من ذلك خطوة واحدة فنشير– بطريقة أو بأخرى – إلى الحجر: هل كان في مرمى بصر المتكلم لحظة الكلام أم لم يره؟ وهل كان أقرب منه إلى المتكلم أم إلى السامع أم إلى شخص آخر ثالث لا نعرفه؟ إننا نلح في التعبير بصيغة المفرد عن الشيء الذي يسقط ولا يلح في ذلك الكواكتلي، مخالفاً الشبواي، بل إنه يلجأ للتعميم ويخرج بجملة خبرية تنسحب على الحجر الـواحد كما تنسحب على العديد من الأحجار بالقدر نفسه. وأيضاً لا يكون الكواكتلي الهندي مضطراً إلى تعيين زمن السقوط. أما الصينيون فيمضون في استخدام الحد الأدنى من الجملة الخبرية، ويقنعون أنفسهم بالعبارة المقتضبة 'stone fall'. وفي اللغة النوتكية[39] يتم تحليل الصورة الذهنية لسقوط الحجر بطريقة مختلفة تماماً. فليست هناك حاجة عندهم لتعيين جنس الحجر، وللتعبير عن المعنى تكفي لـه كلمة واحدة أو صيغة فعلية كأن يقولوا: 'it stones down'.

النص السادس

مرجع النص

GEORGE LAKOFF and MARK JOHNSON: Metaphors we Live By. University of Chicago Press 1980, pages 3-5.

جورج لاكوف ومارك جونسون: **الاستعارات التي نعيش عليها**. مطبعة جامعة شيكاغو 1980.

إن الثقافة لا يرمز إليها في البنيات الدلالية للغة فقط، وإنما في ثنايا تعبيراتها الاصطلاحية التي تعكس طريقتنا في التفكير وتوجهها أيضاً. فاختلاف اللغات يفضي إلى وجهات نظر مختلفة حول الحقيقة من خلال استعارات مختلفة يستخدمها المتكلمون كل حسب لغته.

في أغلب الأشياء البسيطة التي نؤديها كل يوم نفكر، ونتصرف بطريقة آلية بمقدار قد يقل أو يكثر، وبطريقة محددة. ولكن ما هي هذه الطريقة المحددة؟ لسنا نعرف على وجه اليقين. ومن الوسائل التي نعرف بها هذه الطريقة المحددة هي أن ندرس اللغة ... فقد ظهر لنا عن طريق الدليل اللغوي – قبل غيره من الأدلة – أن جزءاً كبيراً في نسقنا المفاهيمي مجازي بطبيعته... ولكي نسلط بعض الضوء على ما قد يعنيه "أن يكون المفهوم مجازياً وأنه قد يفيد في بناء النشاط اليومي" نبدأ بمفهوم المجادلة أو المناقشة ARGUMENT والمفهوم المجازي لـ (المناقشة حرب ARGUMENT IS WAR.) ونجد هذه الاستعارة مبثوثة في لغتنا اليومية ضمن عدد كبير من التعبيرات:

الجدال حرب

لا يمكن الدفاع عن مزاعمك

لقد هاجم كل نقطة ضعف في كلامي
لم تصب انتقاداته هدفها.
هدمت حجته هدماً
لم أفز عليه بحجة قط
أنت لا توافق؟ حسناً، أطلق رصاصك!
إذا استعملت هذه الخطة، فسوف يمحوك محواً!
لقد أتى على حججي كلها.

نحن لا نتحدث هنا عن المناقشة، أو المجادلة، أو بسط الحجة على أنها حرب حقيقية. فنحن نكسب مناقشات ونخسر أخرى. ونسمي من نفوز عليه أو من نخسر أمامه خصماً. وكل ما نفعله أثناء المجادلة هو أننا نحمل على حجته ونداقع عن حجتنا... ولكن مفهوم الحرب هنا هو الإطار الذي يرسم حدود كل ما نفعله أثناء المجادلة أو المناظرة. وعلى الرغم من عدم وجود معركة حقيقية فإن هناك حرباً بالفعل ولكنها حرب كلامية أو لفظية... ومن ثم تصبح الخصومة حرباً، وهي ليست حرباً بالمفهوم الحرفي. ويصبح هذا المفهوم المجازي هو ما يعيننا على فهم طبيعة المناقشة في ثقافتنا، وعلى تشييد الأفعال التي نؤديها أثناء المناقشة.

ولنتصور ثقافة تجري فيها مناقشات دون أن تستخدم المصطلحات الحربية، ومناقشات لا تسفر عن فائز أو خاسر، ولا معنى فيها لهجوم أو دفاع، ولا معنى فيها لمكسب أو خسارة. ولنتصور ثقافة تجري فيها المناقشات على هيئة رقص ويشار فيها إلى المتناقشين على أنهم راقصون، وإلى الهدف على أنه الأداء الجميل الممتع الذي لا يفقد فيه الراقص توازنه، في ثقافة كهذه يكون للمناقشات طعم آخر، ويختبرها الناس على وجه آخر. وفي هذه الحالة ربما لا نعتبر المتناقشين أطرافاً في مناقشة، أو باختصار نقول إنهم يقومون بشيء مختلف. وقد يصبح من الغريب الشاذ أن نطلق على ما يفعلون اصطلاح المناقشة.

النص السابع

مرجع النص

ANNA WIERZBICKA: Semantics, Culture, and Cognition. Oxford University Press 1992, page 119.

آنا ورزبيكا: علم الدلالة و الثقافة والمعرفة (مطبعة جامعة أكسفورد 1992 ص 119.)

استطاع علماء اللغة في سعيهم الحثيث للتوصل إلى منطلق عام ينطلقون منه إلى عقد مقارنات بين التشفيرات اللغوية المختلفة عبر الثقافات (كمثال المفهوم العالمي لسقوط الحجر عند سابير). من أجل ذلك استغل علماء اللغة الانفعالات الإنسانية ظناً منهم أن الانفعالات لغة مشتركة عالمية. مؤخراً أصبحت هذه العالمية موضعاً للشك.

هل الانفعالات علامات عالمية أم مقيدة بالثقافة؟

يزعم أيزارد بخلر (1980: 168)، أن الانفعالات الإنسانية الأساسية عشرة وهي على التوالي:

1- الاهتمام interest 2- الابتهاج joy 3- الدهشة surprise
4- الحزن sadness 5- الغضب anger 6- الاشمئزاز disgust
7- الازدراء contempt 8- الخوف fear 9- الخجل أو الحياء /shame shyness 10- الشعور بالذنب guilt. ومن جانبي فإني أتناول مثل هذه الفرضيات بشيء من الحيطة والريبة. فإذا كانت هذه هي قائمة الانفعالات

الإنسانية العامة، فكيف يكون الحال عندما نعدد هذه الانفعالات في المفردات الإنكليزية؟ فاللغة البولندية، على سبيل المثال، لا تضمن وجود مفردة بين مفرداتها تتطابق تماماً مع مفردة disgust أي الاشمئزاز. وكيف يكون الحال إذا تصادف أن يكون علماء النفس العاملين في مجال 'الانفعالات الإنسانية الأساسية' من أبناء اللغة البولندية وليسوا من أبناء اللغة الإنكليزية؟ فهل يدرجون كلمة disgust عندئذ في قائمتهم؟ كذلك فإن اللغة الجنجالية – وهي لغة استرالية قديمة – لا تفرق معجمياً بين الخوف والحياء، وفي قاموسهم أن المشاعر المنسوبة إلى كلمتي fear الخوف و shame الحياء أو العار تقع تحت مسمى واحد. وإذا تصادف أن يكون الباحثون من أبناء اللغة الجنجالية وليس الإنكليزية، فهل سيزعمون أيضاً أن الخوف والحياء كليهما من الانفعالات البشرية الأساس المختلفة، وتكون مهمة الفصل بينهما سهلة يسيرة؟!

إن المفردات المخصصة – في اللغة الإنكليزية – للتعبير عن الانفعال تدخل في مجال التصنيف الفولكلوري، كما أنها تمثل بناءاً موضوعياً تحليلياً وثيق الصلة بالثقافة، ومن ثم لا يسعنا أن نزعم أن المفردات الإنكليزية مثل disgust و shame و fear هي مجرد إشارات لمفاهيم إنسانية عامة أو حقائق سيكولوجية أساسية. على أن هذه الكلمات ومثلها يتعامل معها الناس، في العادة، كما لو كانت دالة على أفكار موضوعية راسخة في الطبيعة وغير وثيقة الصلة بالثقافة.

الفصل الثالث
المعنى بوصفه فعل

النص الثامن

مرجع النص

BRONISLAW MALINOWSKI: 'The Problem of Meaning in Primitive Language' in C.K. Ogden and I.A. Richards (Eds): The Meaning of Meaning. Harcourt Brace 1923, 457-8.

برونسلو مالينوفسكي مشكلة المعنى في اللغة البدائية (بريس، 1923) 457-8.

في هذا النص نطالع العالم الأنثروبولوجي وهو يؤدي عمله، ويسعى للوصول إلى معنى العلامات التي تحيط به. فقد كانت دراسات العالم الأنثروبولوجي مالينوفسكي لأحوال سكان جزر التروبرياندر، من الناحية الأنثروبولوجية، مصدر إلهام لأجيال وأجيال من الأنثروبولوجيين مثل كليفورد جيرتز Clifford Geertz (انظر النص العاشر).

تخيل نفسك وقد انتقلت فجأة إلى جزر مرجانية في المحيط الهادي، وجلست بين سكانها واستمعت إلى لغتهم الحوارية، وقد أتيح لك مترجم متمكن يترجم كل ما يقولونه على قدر طاقته، كلمة بكلمة حتى تكون أنت كمستمع محيطاً بكل معطيات اللغة عندهم، فهل يجعلك هذا تفهم كلامهم أو حوارهم أو حتى جملة واحدة مما يقولون؟ بالتأكيد لا.

ولننظر في النص التالي الذي هو منطوق حقيقي في حوار بين أبناء جزر

التروبرياند في شمال شرق غينيا الجديدة.

Tasakaulo	kaymatana	yakida;	
We run	front-wood	ourselves;	
نحن نجري	أمام الغابة	أنفسنا	
Tawoulo	oranu؛	tasivila	tagine
We paddle	in place؛	we run	we see
نجدف	في المكان	نجري	نرى
soda؛	isakaulo	ka'u'uya	
companion ours؛	he runs	rear–wood	
رفقاء لنا	يجري	خلف الغابة	
oluvieki	similaveta	pilolu	
behind	their sea–arm	Pilolu	
خلف	لسان البحر عندهم	بايلولو	

تبدو الترجمة الحرفية إلى الإنكليزية لهذا الكلام في البداية كاللغز، أو تبدو مزيجاً من كلمات لا معنى لها؛ فهي لا تبدو كجملة خبرية ذات معنى واضح. فإذا أراد المستمع أن يلم ولو بطرف يسير من المعنى العام لهذه الجملة فعليه أن يعلم في البداية السياق الذي نشأت فيه هذه المحادثة أو ذلك الحوار أي عليه أولاً أن يضمن فهم السياق الثقافي لهذا الحوار حسب ثقافة أهل هذه الجزر. وفي هذه الحالة نجد الحوار يشير إلى رحلة استكشاف يقوم بها أهل هذه الجزر في أعالي البحار ويشترك فيها عدد كبير من القوارب وتسود بينهم روح المنافسة. ويبين هذا الملمح الأخير أيضاً الطبيعة العاطفية للحوار، فهو لا يعنى بذكر الحقيقة المجردة بل الهدف منه التفاخر وتمجيد الذات، وهي خصال موجودة في ثقافة أبناء جزر التريرياندر بصفة عامة، وتتضح بجلاء أثناء احتفالاتهم بصفة خاصة.

النص التاسع

مرجع النص

BRONISLAW MALINOWSKI: Coral Gardens and their Magic. Vol. II. Dover 1978, page 53.

برونسلو مالينوفسكي، حدائق المرجان وسحرها (1978 ص 53).

تعد الشعائر والطقوس الدينية من الأمثلة الصارخة على المعنى حين يتحول إلى فعل. ولا تكمن قوة الطقس الديني في الكلمات وحدها وإنما في البناء الاجتماعي الذي يمنح الفرد الناطق بالطقوس الدينية شرعية وصلاحية وسلطة لإنشاء حقيقة اجتماعية يفرضها على الآخرين.

لا توجد حدود فاصلة نفرق بها بين التوقيع على شيك، أو عقد مدني، أو عقد زواج، أو التلفظ بقسم مقدس، أو تغيير عنصر من عناصر القربان المقدس. ومن الشروط المساقية للسلطة المقدسة والشرعية التي تمارسها الكلمات وجود المعتقدات الأخلاقية والروادع الشرعية داخل ثقافة بعينها.

وحسبنا من هذا النوع من الخطاب أن هناك كلمات توجد في جميع المجتمعات الخطابية يأخذها الناس على أن لها قدرة كامنة على إحداث الأفعال. فأنت تنطق بقسم ما أو تزور توقيعك على وثيقة ما ثم تجد نفسك وقد لازمت ديراً بقية حياتك، أو وهبت حياتك كلها لامرأة، أو دخلت السجن لتقضي فيه بقية عمرك.

وقد تكون الكلمة الواحدة – التي ينطق بها المرء– مصدر سعادة للملايين

من البشر مثلما يبارك الآب في النصرانية المخلصين من عباده. وقد يترك الناس كل شيء، ويخاطرون بحياتهم، وينفقون أموالهم، ويخوضون الحروب، ويرحلون في رحلات خطرة من أجل العلم والاستكشاف، لأن واحداً منهم نطق ببعض الكلمات. هذه الكلمات قد ترد في خطاب سخيف لأحد الساسة، أو في كلمة لرئيس وزراء، أو في صيغة ثابتة في خطاب مقدس، أو تعليق أحمق يجرح الكرامة الوطنية، أو إنذار نهائي. وفي جميع الأحوال تتحول الكلمات إلى قوة ضاربة، وتغدو من الأسباب الحاسمة للفعل.

النص العاشر

مرجع النص

CLIFFORD GREETZ: The Interpretation of Cultures. Basic Books. 1973, pages, 12, 13, 14.

كليفورد جريتز: تفسير الثقافة. 1973. ص: 12، 13، 14.

في هذا الفصل الذي يسميه كاتبه 'الوصف المغني: نحو نظرية تفسيرية للثقافة' يضع جريتز الأساس لنظرية أنثروبولوجية موضوعية على صعيد الواقع، وذاتية على صعيد التفسير.

فلكي تتعلم العزف على الكمان عليك أن تكتسب بعض العادات والمهارات والمعارف والقدرات حتى تصبح مؤهلاً للعزف وتقتني كماناً. ولكن العزف على الكمان ليس هو العادات التي اكتسبتها، والمهارات التي أتقنتها، والمعارف التي جمعتها، وليس هو المزاج الذي يعينك عليه، وليس هو الكمان نفسه (كما يظن بعضهم في الثقافات المادية)... إذ تخضع الثقافة لمعايير المجتمع كالشأن في المعنى. فأنت لا يسعك أن تغمز بعينيك (أو حتى تحاكي الغمز) – دون أن تعرف طبيعة الغمز- وكيف تعقد جفنيك، وليس في استطاعتك أن تهاجم قطيعاً من الغنم لتسرق نعجة مثلاً (أو حتى تمثل القيام بذلك) دون أن تكون عارفاً بالعواقب، وكيف تنفذ ما عقدت العزم عليه. ولكنك حين تفهم من هذه الحقائق أن معرفة الغمز هو الغمز بعينه، ومعرفة سرقة نعجة هو السرقة نفسها، فقد وقعت في الحيرة، وخضت في الارتباك وخلطت الحق بالباطل، ورادفت الغمز بعقد الجفون، وساويت بين الغارة على قطيع من الغنم والطراد.

ليس ما يحول بيننا وبين فهم أفعال الآخرين هو الجهل بالكيفية التي تعمل بها عناصر المعرفة (الفهم والوعي والإدراك والذكاء والحدس)، و لكن ما يحول بيننا وبين فهم أحوال الآخرين إنما هو جهلنا النسبي بعالم البشر، والعلامات التي يستخدمونها للدلالة على تلك الأحوال وهي كثيرة ومتباينة.

وعلى هذا يصبح هدف الأنثروبولوجيا هو التوسع في فهم عالم الخطاب البشري، على أن ذلك ليس هو الهدف الأوحد بطبيعة الحال؛ لأن للأنثروبولوجيا أهدافاً أخرى مثل التعليم وتقديم النصيحة العملية والرقي بالأخلاق والسعي لتفسير النظام الطبيعي[40] في السلوك الإنساني.. الخ. وليست الأنثروبولجيا هي المنهج الأوحد الذي يسعى لتحقيق هذا الهدف. إنه الهدف الذي يسعى المفهوم السيميائي للثقافة بنوع خاص إلى تحقيقه. ولأن الثقافة أنظمة (أنساق) متواشجة ومتساندة من العلامات القابلة للتفسير (أحب أن أسميها الرموز بصرف النظر عن الاستخدامات الخاصة) فإنها - أي الثقافة - ليست سلطة[41] أو شيء قد تذعن له الأحداث والسلوكات والمؤسسات والعمليات الاجتماعية،[42] و إنما هي سياق أو شيء تقع في نطاقه هذه المسميات جميعها على نحو يفهمه الناس ويألفونه.

الفصل الرابع
اللغة المنطوقة والثقافة الشفاهية

النص الحادي عشر

مرجع النص

R. BROWN and A. GILMAN: The Pronouns of power and solidarity, in Pier Paolo Giglioli (Ed.): Language and Social Context, Penguin 1972, pages 266, 269-70.

آر. براون و أ. جلمان، ضمائر السلطة والتضامن (1972)

من أهم وسائل الإشارة الاجتماعية الاستخدام المتبادل للضمائر الشخصية وأشكال أخرى من التخاطب؛ فاستخدام ضمير المخاطب 'tu' في اللغة الفرنسية أو 'du' ('vous') أو 'Sie' في الألمانية و 'tu' أو 'usted' في الأسبانية) إنما يشير إلى انسجام في علاقات القوة بين المتخاطبين. وأما الاستخدام غير المتبادل بالضمائر الشخصية في التخاطب كأن يهم أحدهم بمخاطبة آخر بضمير المخاطب 'tu' فيخاطبه عوضاً عن ذلك بضمير المخاطب 'vous' إنما يشير إلى اختلاف في القوة والمكانة الاجتماعية بين المتخاطبين. يتفاوت استخدام مثل هذه الأشكال من وسائل التخاطب تاريخياً وثقافياً.

تكشف الدراسة التاريخية لضمائر المخاطب عن جملة من أوجه الشبه الدلالية والاجتماعية والنفسية. من الناحية الدلالية يكشف عدم الانسجام في

علاقة القوة بين المتخاطبين عن مجتمع ثابت عاطل من النشاط نسبياً، تتوزع فيه أدوار القوة من حيث المولد ولا تتسع لتوزيع جديد. وقد تجلى ذلك - في أكثر صوره وضوحاً - في عصور الإقطاع، وسيطرة ملاك الأرض على مصائر الناس ... وقد كانت البنية الاجتماعية الساكنة مشفوعة بتعاليم الكنيسة التي قضت بأن كل شخص قد تبوأ مكانه الصحيح الذي عينته له الأقدار، ولا ينبغي أن يرنو إلى أفضل منه. ومن الناحية الاجتماعية كان التضامن المتبادل مصحوباً بظهور الحراك الاجتماعي وعقيدة المساواة... وكان التوزيع غير العادل لعلاقات القوة هو السائد في فرنسا حتى اندلعت الثورة ومنعت لجنة الأمن العام استخدام 'V' (أي vous) لأنها من بقايا العصر الاقطاعي البائد، وأمرت بالاستخدام الشامل لـ) Tأي Tu). وفي انجلترا، قبل الغزو النورماندي، كانت 'ye' تدل على جمع المخاطب بينما كانت 'thou' تشير إلى المخاطب المفرد. وكانت 'you' في الأصل صيغة اتهام لـ 'ye' ، وأصبحت فيما بعد هي جمع المخاطب وحلت بذلك محل 'thou' لأنها كانت صيغة المفرد العادي ...

وما من شك في أن تعاظم قوة المجتمعات المفتوحة التي تؤمن بالمساواة قد ساعد على اندحار المجتمعات التي كانت تؤمن بالتوزيع غير العادل للقوة، كما عمل على تعزيز التضامن الاجتماعي. وقد قلنا في غير هذا الموضع. إن التغييرات الاجتماعية العميقة كانت سبباً في رفض التعبيرات اللغوية التي كانت تعبر- وجهاً لوجه - عن تفاوت القوة. فالطالب الذي يحصل على درجة الدكتوراه يصبح زميلاً في القسم .. وفي الوسط الأكاديمي في الولايات المتحدة نجد أن الاسم الأول هو المستخدم في التخاطب بين الأساتذة والطلاب على السواء. وقد يجد الأكاديمي المبتدئ صعوبة في مخاطبة الذين كانوا أساتذته في السابق بأسمائهم الأولى. وبالرغم من صغر سن هؤلاء الأساتذة وحسن أخلاقهم فإن لهم عليه سلطاناً روحياً كبيراً يمارسونه عليه منذ سنين عديدة. وقد يشعر أنه من قلة الذوق أن ينكر عليهم سلطانهم مرة واحدة. غير أن نفوذ

العادات الديمقراطية على الناس تأبى إلا أن تضطره إلى النزول عن الألقاب حين يخاطب من هم أرفع منه منزلة. فهو لا يحب أن يُتهم بالإفراط في الوعي بمكانة الآخرين الاجتماعية، ويبدو في نظرهم غير أهل لما هو مقدم عليه من منصب في الجامعة، أو أنه مريض بالرهاب الاجتماعي social phobia، ومن حسن حظه أن اللغة الإنكليزية لا تخذله. في وسعه أن يتجنب أي من ضمائر المخاطب، وأن يلزم الضمير 'You' الذي لا يلزمه بشيء حتى يعتاد هو ومن يخاطبهم على الوضع الجديد. وفي طقوس تغيير المركز (وهو طقس فرنسي معناه rite de passage) توجد فرصة سانحة للناطقين بالإنكليزية لاستعادة شجاعتهم وتدريب أنفسهم على رباطة الجأش.

النص الثاني عشر

مرجع النص

ERVIGN GOFFMAN: 'Footing' in Froms of Talk. University of Pennsylvania Press 1981, pages 124-125.

إرفنج جوفمان، حماية الوجه في أشكل الحديث، مطبعة جامعة بنسلفانيا (1981)، 124-125.

لا تسعفنا الإشارات الاجتماعية وحدها في التعبير عن علاقات القوة الذي يتم من خلال التغييرات المدروسة للعلاقة بين المتكلم والمخاطب ودرجة التفاهم فيما بينهما كما يبين المثال التالي الذي يسوقه جوفمان حول حادثة بالبيت الأبيض وقعت أثناء فترة دردشة كانت تطرح فيها بعض الموضوعات الجادة للمناقشة، وكانت تنطوي في العموم على تغيير في نغمة الحديث وشيء من التغيير في علاقة القوة المعتادة بين الرئيس وممثلي الصحافة.

واشنطن: (UPI) – علق الرئيس نكسن أمس – وهو من نبلاء المدرسة القديمة – على الملابس الفضفاضة التي كانت ترتديها إحدى الصحفيات في البيت الأبيض موضحاً رأيه بأنه يفضل أن ترتدي السيدات ملابس رسمية. وبعد الحفل الموسيقي في المكتب البيضاوي نهض الرئيس من فوق مقعده ووجه حديثه للصحفية التابعة لوكالة UPI في صوت مشوب بالتحدي: "هيلن: ألا زلت ترتدين هذه الملابس الفضفاضة؟ هل فعلاً تفضلينها على غيرها؟ كلما رأيت فتاة تلبس هذه الملابس فإنها تذكرني بالصينيين." وردت السيدة

هيلن توماس وقد احمر وجهها ببعض الخجل قائلة إن الصينيات اليوم يفضلن الملابس الغربية.

عندئذ قال الرئيس نكسن: "لم أقصد الحط من قدرك يا سيدة هيلن. ولكن الملابس الفضفاضة قد تساعد بعض الناس وتحبط آخرين." ثم أسرع يقول: "ولكن استديري."

وبينما علت الابتسامات وجوه الحاضرين: الرئيس نكسن والمدعي العام إليوت لـ. ريشاردسن ومدير مكتب التحقيقات الفدرالي كليرنس كللي وآخرين من أصحاب المناصب الرفيعة في وزارة العدل، استدارت السيدة هيلن دورة على قدم واحدة نزولاً على رغبة الرئيس. كانت ترتدي بنطلوناً أبيضاً وقميصاً أزرقاً غامقاً من نسيج الجرسي وعقداً أبيضاً طويلاً وحذاءً أزرقاً غامقاً من الجلد اللامع تزينه حاشية حمراء.

وسألها الرئيس نكسن عن زوجها السيد دوجلاس كورنيل هل تعجبه هذه الملابس. وقالت السيدة هيلن:

"إنه لا يهتم."
"وهل تكلفك أكثر من ثمن الملابس النسائية الرسمية؟"
وأجابت السيدة توماس بالنفي.
"إذن عليك بتغيير هذه الملابس."

أصدر الرئيس نكسن تعليماته وقد علت وجهه ابتسامة عريضة بينما راح الصحفيون الآخرون والمصورون في نوبة من الضحك الصاخب (جريدة المساء) (فيلادلفيا 1973).

تشير هذه القصة إلى سلطة الرئيس التي تجلت في حمل أحد الناس – امرأة – على الخروج بها من صفتها المهنية والتعامل معها بصفة مختلفة

متصلة بجنسها كامرأة، في مناسبة كانت تتطلع خلالها إلى ممارسة مهنتها والاعتراف بها كصحفية لا غير. ووراء هذه الواقعة أيضاً أشياء أخرى أكثر أهمية يمكن فهمها من بين طياتها: منها أن المجتمع الحديث يتصور أن النساء مستعدات في جميع الأوقات لاستقبال عبارات الإطراء حول مظهرهن، شريطة أن تكون هذه العبارات الإطرائية صادرة من شخص له صلة ما بمن يخاطبه بحيث لا يفهمه الناس على وجه التهكم. كما تكشف هذه الواقعة أيضاً عن طبيعة المرأة التي تسمح بتغيير موضوع المناقشة لأنها تحولت من مجرد مشارك في المناقشة إلى هدف للإطراء.

النص الثالث عشر

مرجع النص

PENELOPE BROWN and STEPHEN C. LEVINSON. Politeness. Cambridge University Press 1978, page 13.

بنيلوبي براون و ستيفنسون سي. ليفنسون. الخلق المهذب (1978)، 13.

تبين القصة التي أوردناها في النص الثاني عشر حول تحسين الوجه العام public workface الذي قد يضطر إلي القيام به رئيس الجمهورية نفسه لكي يحد من زهو إحدى الصحفيات التي تتمتع بحصانة في مجتمع ديمقراطي ينهض أساساً على المساواة. ويعد تحسين الوجه جزءاً من نسق محكم يقوم عليه المجتمع الراقي ويظفر باتفاق شامل بين مجتمعات العالم كله، ولكن تتفاوت طرق تحقيقه من ثقافة إلى ثقافة أخرى.

في القلب من النموذج الذي نتبناه نظرية مغرقة في التجريد تقوم على رغبتين (حاجات الوجه) ويعزوها المتفاعلون كل إلى الآخر: أولاً الرغبة في ألا نكون مسيرين في أفعالنا (وجه سلبي)، وثانياً الرغبة في أن نكون مقبولين لدى الآخرين (وجه إيجابي). على أن هذه مجرد أسس تقوم عليها نظرية الوجه التي نزعم أنها عالمية، ونزعم في الوقت نفسه أن كل مجتمع يعمل جاهداً على تنميتها وإخضاعها لخصوصياته. من ناحية نجد أن هذه الفكرة الأم هدف لتحديدات ثقافية من ألوان شتى حسب كنه الأعمال التي تهدد الوجه والأشخاص الذين يحق لهم دون غيرهم حماية الوجه، وحسب أسلوب كل شخص في الوصول إلى ذلك (من ناحية التهذيب وسهولة العلاقات الاجتماعية الخ...)، ومن ناحية أخرى نجد أن نظريات الوجه شديدة المساس – في الواقع – بجملة من أهم الأفكار الثقافية الخاصة بطبيعة الشخصية الاجتماعية والشرف والفضيلة والخجل والافتداء ومن ثم بالمفاهيم الدينية.

النص الرابع عشر

مرجع النص

SHIRLY BRICE HEATH: Ways with Words. Cambridge University Press 1983, pages 186-187.

شيرلي برايس هيث: طرق في التعبير بالكلمات. مطبعة جامعة كامبردج (1983) 186-187

تقارن شيرلي هيث في دراستها القيمة حول اللغة والحياة والعمل في ثلاثة مجتمعات مختلفة في الولايات المتحدة (مجتمع البيض والسود ومجتمع الطبقة العاملة ومجتمع الطبقة المتوسطة)، بين أسلوبين في التعامل مع الكلمات عند البالغين من سكان جماعتين اجتماعيتين مختلفتين تقعان على بعد أميال قليلة من بدمونت كارولينا: الأولى في رودفيل وهو مجتمع من الطبقة العاملة من البيض ويتألف من أسر لها خبرة تمتد لأربعة أجيال في العمل في مصانع النسيج، والثانية في تراكتون وهو مجتمع من السود من الطبقة العاملة كان الآباء هناك يعملون في الزراعة بينما تعمل الأجيال الحالية في مصانع النسيج. وفي هذا الكتاب تقوم هيث بتحليل أساليب السرد عند البالغين في كلا المجتمعين.

وجدنا أن القصص التي يسردها الناس في كلا المجتمعين إنما يسردونها طلباً للتسلية ورغبة في الحصول على البهجة والإضحاك من ناحية، وتعمل هذه القصص كذلك كإطارات تدخل في نطاقها الحوادث الكلامية الأخرى التي تكشف بدورها وبطريقة بارعة عن المهارات اللفظية التي يتمتع بها كل

متحدث. ولاحظنا في رودفيل أن الناس يدرجون الأمثال والحكم والاقتباسات الدينية في ثنايا قصصهم، مما يزيد في قدر المتعة التي تجلبها القصة، ويعضد انتظام الكلام كما تزيد معرفة الجماعة بالأمثال والحكم واستحسانها للاقتباسات الدينية من الخبرة المشتركة بين أعضاء هذه الجماعة وهو ما تعتمد عليه قصص سكان رودفيل بشكل أساسي. أما في تراكتون فقد لاحظنا أشكالاً كثيرة من التعامل مع اللغة كتقليد عادات مجتمع آخر في الحديث، أو تقليد شخصيات تليفزيونية أو القيام بإيماءات مفاجئة وانتقالات نوعية في درجة الصوت، وطرح أسئلة وتعبيرات بلاغية لإطلاق أحكام قيمة عاطفية، تضفي بهجة وتشعل التفاعل بين السارد والجمهور على السواء. ورغم أن كلا المجتمعين يستعملان حكاياتهما للتسلية فإن البالغين في ردوفيل يسَّخِرّون قصصهم للأغراض التعليمية. فالهدف من القصة هو التعليم، والسعي لدعم الأعراف السلوكية التي تتكئ عليها حياة الجماعة. وترتبط الصلة بين الجمهور والسارد برباط مشترك واحد هو الاتفاق على الفوائد المشتركة التي تحققها القصة للطرفين. أما في تراكتون فلا نجد للقصص التي يسردونها هدفاً محدداً إلا التسرية عن الجمهور الذي ينصت باهتمام إلى السارد. ومن ثم فإن السارد – الذي كان ينوي سرد قصة واحدة – أول الأمر– يجد نفسه مندفعاً بسبب حماس الجمهور إلى قصة ثانية وثالثة؛ ذلك أن جمهور تراكتون تهمه القصة في ذاتها. فهم يقدرون قيمة التسلية في ذاتها كهدف مهم، ويستحسنون القصص التي تفرط في تقريظ فضائل الفرد ومزاياه. ولا يشغل الساردون أنفسهم بإعطاء الدروس في السلوك القويم؛ لأنهم يكتفون بسرد الأخبار عن الأفراد الذين تتفوق حكمتهم ومعارفهم على ما استقرت عليه الجماعة من أعراف السلوك.

الفصل الخامس
اللغة المنطوقة والثقافة الكتابية

النص الخامس عشر

مرجع النص

WALTER J. ONG: Orality and Literacy. Methuen 1982, pages 175, 178, 179.

والتر ج. أونج: الشفاهية والكتابية (مثوين، 1982)

في وسعنا الزعم أن اللغة الشفاهية لغة أولية غير مشتقة، بمعنى انها تتطور مع تطور حياة الفرد (ككائن بشري) كما تتطور في تاريخ البشرية (من الناحية النفسية). بيد أنه في وسعنا كذلك أن نزعم أن الكتابة قد غيرت - وإلى غير رجعة - طريقة الناس في التفكير والتصرف في هذا العالم . حتى هؤلاء الذين لا يجيدون القراءة والكتابة يتأثرون بطرق التفكير التي أحدثتها تقانة الكتابة.

يمس التفاعل بين الشفاهية التي ينشأ الناس عليها منذ لحظة الميلاد وتقانة الكلمة التي يكتسبونها من خبرة الحياة أعمق أعماق النفس البشرية. فمن الناحيتين الأنتوجينية (الوجود الجيني) والسيكولوجية (النفسية) فإن الكلمة الشفاهية هي التي تكشف منذ البداية عن الوعي باللغة المنطوقة، وهي التي تفصل المسند والمسند إليه ثم تصل بينهما، وهذا ما يربط البشر بعضهم ببعض في مجتمع واحد. الكتابة تفرق وتُغَرِّب ولكنها تسفر في النهاية عن انسجام أكثر عمقاً أيضاً لأن الكتابة تزيد الوعي....

عندما نقول بوجود تغييرات كثيرة جداً نفسية وثقافية يمكننا رد أغلبها إلى الانتقال من الشفاهية إلى الكتابة فليس معنى هذا أن الكتابة (وربيبتها الطباعة) السبب الأوحد وراء كل التغييرات. فليست الصلة هنا صلة اختزال ولكنها صلة علاقة. فالانتقال من الشفاهية إلى الكتابة أمر شديد المساس بتطورات نفسية واجتماعية أكثر مما لاحظنا بالفعل: تطورات في إنتاج الغذاء، وفي مجال التجارة والسياسة، وفي وضع المؤسسات الدينية، وفي المهارات التكنولوجية، وفي مجالات أخرى في الحياة الإنسانية... وقد لعبت هذه التطورات أدوارها المتميزة في تشكيل الحياة المعاصرة. بيد أن أغلب هذه التطورات - أو كل تطور من هذه التطورات - تأثر تأثراً عميقاً بالانتقال من الشفاهية إلى الكتابية وما وراءها، كما كان لكل منها دوره في التأثير على هذا الانتقال.

النص السادس عشر

مرجع النص

H. G. WIDDOWSON: 'The realization of rules in written discourse' in Explorations in Applied Linguistics. Oxford University Press 1984, Page 39.

هـ. ج. وديسن: "فهم قواعد الخطاب المكتوب" في "بحوث في اللغويات التطبيقية". مطبعة جامعة أكسفورد، 1984.

في وسع الكتابية أن تعزز الإحساس بالذات لدى القارئ إذا كانت النصوص المكتوبة موصولة السبب بوجدان القارئ ووعيه، أي إذا كان القراء يقرؤون هذه النصوص لا على أنها قطع من اللغة فحسب وإنما على أساس أنها خطاب.

لم تكن القراءة في الماضي إلا تدريباً على التحليل اللغوي، أو نشاطاً تُستَخْرَج به المعلومات من النص المكتوب الذي كان يُعتَقَد أنه يحتفظ بها بين سطوره، وعلى القارئ استردادها والاستفادة منها. وإذا أخفق القارئ في استرداد هذه المعلومات من النص فقد يكون السبب هو افتقاره إلى المقدرة اللغوية. وتقدم وجهة النظر هذه اللغة على أنها من تجليات القواعد التركيبية والدلالية، وتُقْصِر مهمة القارئ على الإقرار بها. على أنني أسعى هنا إلى تقديم وجهة نظر بديلة مختلفة، وجهة نظر تقدم النص المكتوب على أنه مجموعة من التوجيهات والإرشادات التي تساعد على التفاعل الصحيح. ومن خلال هذا التفاعل الذي يُحَوِّل النص إلى خطاب فإن القارئ يستنبط المعلومات التي يريدها، أو المعلومات التي تمليها عليه حالته المعرفية الآنية. إن المعاني

– حسب وجهة النظر هذه – لا تكون كامنة في النص، ولكنها مستنبطة من الخطاب الذي ينشئه القارئ من خلال النص. ولما كان ذلك لا يتم إلى بشروط مثل حدود المعرفة، والغرض من القراءة، فإن هذه المعاني لا يمكن بحال أن تكون كاملة أو مستوفاة. فهي تقديرات تقريبية. ما أريد أن أطرحه هنا هو مقاربة تتكئ على الإجراءات التي يستخدمها مستخدم اللغة للوصول إلى المعنى من خلال الاتصال المكتوب.

النص السابع عشر

مرجع النص

JAMES GEE: Social Linguistics: Ideologies in Discourse. The Falmer Press 1990, pages 142-143.

يقول جيمس جي إن الكتابية literacy أكثر بكثير من كونها المقدرة على القراءة والكتابة. إنها المقدرة على الإشارة إلى عضويتك في مجتمع خطاب له دلالة اجتماعية.

عندما نستخدم اللغة فإننا يجب أن نقول - أو نعتقد أننا نقول (أو نكتب) - الشيء الصحيح بالطريقة الصحيحة ونحن نمارس الدور الاجتماعي الصحيح، ونعتنق أو يبدو أننا نعتنق القيم الصحيحة والمعتقدات الصحيحة والمواقف الصحيحة. والواقع أن المهم ليس اللغة وليس النحو بطبيعة الحال، ولكن المهم هو القول (أو الكتابة) والفعل والتواجد وتقييم الأمور والاعتقاد في أمور بذاتها، وكل هذه الأشياء مجتمعة، أو قل كل هذه مركبات سوف أشير إليها من الآن بكلمة خطاب Discourse مع تكبير الحرف الأول D (وسوف أحتفظ بكلمة discourse بتصغير الحرف الأول 'd' لكي أستخدمها للإشارة إلى اللغة التي نصنع بها المعنى مثل المحادثات والقصص والتقارير والمناقشات والمقالات. فالخطاب (لغة المعنى) هنا discourse جزء من الخطاب Discourse - الذي يعني في الواقع أشياء أكثر من اللغة. فالخطابات Discourses هي وسائل وجود في هذا العالم، أو قل أشكال حياة تجمع بين الكلمات والأفعال والقيم والمواقف والهويات الاجتماعية، وكذلك الإيماءات والنظرات وأوضاع الجسد والملابس.

وفي وسعنا القول إن الخطاب Discourse هو بمثابة 'طقم هوية' يأتي كاملاً مع الزي المناسب، والتعليمات التي تدل على طريقة الاستخدام والتصرف والكلام والكتابة مما يعين الناس على القيام بدور اجتماعي معين يقر به الآخرون ويعترفون به. ومن جهة أخرى يمكننا النظر إلى الخطابات Discourses بوصفها ميادين لإظهار العضوية (من خلال الكلمات والأفعال والقيم والمعتقدات) في جماعة اجتماعية معينة أو رابطة اجتماعية معينة (مجموعة من الأفراد تتشابك علاقاتهم من خلال جملة من الاهتمامات والأهداف والأنشطة). فأنا مثلاً تدربت لأصبح عالم لغة، وهذا معناه أنني تعلمت أن أتحدث وأفكر وأتصرف بوصفي عالم لغة، وأن أنظر إلى الآخرين على أنهم يفعلون نفس ما أفعله (وهذا ليس لأني عرفت بعض الحقائق عن اللغة). ومن ثم فإن معنى أني أصبحت عالم لغة هو أنني أنتسب إلى خطاب Discourse أتقنه وأعرفه.

واختصاراً أقول الآتي في تعريف الخطاب Discourse :

الخطاب DISCOURSE هو رابطة مقبولة اجتماعياً، تجمع بين بعض طرق استخدام اللغة وبعض طرق في التفكير والشعور والاعتقاد والتقييم والعمل، وهذه الطرق يستعملها الفرد في تحديد هويته بوصفه عضو في جماعة اجتماعية لها هدف مشترك أو قل 'شبكة اجتماعية' أو يستعملها للإشارة إلى دور مقبول اجتماعياً يلعبه هذا الفرد.

النص الثامن عشر

مرجع النص

BILL COPE and MARY KALANTZIS (Eds.): The Powers of Literacy. A Genre

Approach to Teaching Writing. University of Pittsburgh Press 1993, page 7.

بل كوب وماري كالانتزس سلطات الكتابية: منهج نوعي لتدريس الكتابة (مطبعة جامعة بتسبرج 1993)

حتى نفهم كيف تؤدي الخطابات Discourses عملها في مجتمع ما لا بد من فهم نظرية 'النوع؛ فمن خلال الأنواع ترتبط النصوص بسياقات إنتاجها واستقبالها، أي بالثقافة.

النوع 'Genre' مصطلح معروف في طرق تدريس الكتابة يربط بين الأشكال المتباينة التي ينتحلها النص على أساس الأهداف الاجتماعية المختلفة. فالنصوص تتفاوت؛ لأنها تؤدي أغراضاً مختلفة. ومن ثم لا ترتبط طرق تدريس الكتابة كعلم بشكليات عمل النصوص فحسب وإنما ترتبط أيضاً بالواقع الاجتماعي الحي للنصوص في حالة الاستعمال.

وما الأنواع Genres إلا معالجات اجتماعية. وتجري النصوص على منوال أنماط قابلة للتنبؤ بها تأسيساً على أنماط في التفاعل الاجتماعي في ثقافة معينة. وتؤول أنماط المجتمع وأنماط النص إلى النوع ... ويتبع ذلك أن الأنواع لا يحدثها الأفراد ببساطة في لحظة النطق بها، بل تكتسب معناها من سياقها الاجتماعي. ويعمل المتكلمون والكتاب الأفراد في إطار سياق ثقافي ومن خلال معرفتهم بالنتائج الاجتماعية المختلفة التي تحدثها الأنماط المختلفة للنصوص الشفاهية والكتابية. وفوق ذلك تتيح الأنواع لمستخدميها الدخول إلى عوالم محددة في الفعل والتفاعل الاجتماعي، وكذا الدخول إلى عوالم محددة من النفوذ والسلطة الاجتماعية.

النص التاسع عشر

مرجع النص

BENEDICT ANDERSON: Imagined Communities. Verso 1983, pages 80, 81.

بيندكت آندرسون المجتمعات المتخيلة (1983)

لعبت تقانة الطباعة دوراً مهماً في تعزيز الهوية الثقافية للدول؛ لأنها عملت على تدوين الأحداث الماضية في تاريخ هذه الدول بطريقة تجعل هذه الأحداث سهلة الفهم وسهلة التذكر. ويمكن لأجيال المستقبل استخدام هذه الأحداث من أجل فهم أحداث أخرى في تاريخ بلادهم.

يلاحظ هوبزباوم 'أن الثورة الفرنسية لم تندلع لأن حزباً سياسياً أو حركة من الحركات السياسية بالمعنى الحديث دعت إليها أو قادت مسيرتها. ولم تندلع أيضاً لأن رجالاً معينين سعوا إلى تنفيذ برنامج سياسي تنظيمي محدد. ومن الصعب أن نقول إن الثورة الفرنسية تمخضت عن ظهور قادة من النوع الذي عودتنا عليه ثورات القرن العشرين حتى ظهور نابليون وهو ينتمي إلى حقبة ما بعد الثورة. ولكن الثورة الفرنسية حين اندلعت دخلت إلى ذاكرة الأمة ولم تبرحها بفضل الطباعة. وكان تلاحق أحداثها المذهل والمربك – الذي فوجئ به صناعها وضحاياها – قد أصبح شيئاً ملموساً انتحل الاسم نفسه: الثورة الفرنسية. وكصخرة هائلة يعوزها الشكل فارقت جلموداً ضخماً كاملاً بفعل عدد لا حصر له من قطرات الماء، تشكلت التجربة عبر ملايين من الكلمات المطبوعة وأصبحت 'فكرة' أو 'مفهوماً' على الصفحة المطبوعة، حتى جاء الوقت المناسب فأضحت نموذجاً. لماذا اندلعت؟ ما الذي كانت تهدف إليه؟ ولماذا نجحت أو لماذا أخفقت؟ أصبحت كل هذه الأسئلة موضوعات لآلاف الصفحات يدبجها الأصدقاء والأعداء على السواء: ولكنها حدثت وهي كائنة في الذاكرة وفي الكتب وبين الناس وليس بوسع أحد الشك في ذلك.

النص العشرون

مرجع النص

R. B. LEPAGE and ANDREE TABOURET-KELER: Acts of Identity. Cambridge

University Press 1985, pages 13, 14.

آر. بي. ليبيج و أندريه تابوريه كلر **افعال الهوية** (1985) 13-14

كل فعل لغوي - مكتوب كان أو منطوق - فيه خبر عن موقع مؤلفه وموقفه ومركزه في إطار بنيته الاجتماعية في ثقافة ما. ومن خلال تبديل الشفرة code-switching وعبور اللغة language crossing بجميع حالاته، يشير المتكلمون إلى كينونتهم والصورة التي يريدون أن يراهم الآخرون بها لحظة النطق بالكلام.

وبصرف النظر عن الآراء ووجهات النظر التي نراها ونعتقدها في طبيعة الأنساق اللغوية والقواعد التي تجسدها هذه الأنساق، وبصرف النظر كذلك عن الصواب والخطأ في النطق، والنحو ومعاني الألفاظ وغير ذلك - وكثير من المتعلمين يعتنقون آراءً تكون أحياناً راسخة في أذهانهم حول هذه الأمور - فإننا في سلوكنا الفعلي والعملي نكون عرضة للشك، وهدفاً للريب وصناعاً للمفاجآت... لقد كان سلوك العجوز التي حكت الحكاية في بليز مثالاً حياً على ذلك. بدأت حكايتها بلغتها الإنكليزية في فصاحة متناهية، وذلك لأنها كانت تتحدث وجها لوجه مع زائرَين كانت تعرف أنهما لم يكونا من الكريوليين، وخمنت أن يكونا من الإنكليز. بدأت تحكي قصتها بلغة بين الإنكليزية والكريولية عندما وصلت إلى نقطة معينة كانت تنقل عندها حواراً مهماً، تحولت إلى الأسبانية، ثم

عادت آخر الأمر إلى الكريولية، حتى انتهت القصة. وكانت بعض الشخصيات في قصتها - مثل النجار الذي كان من كبار التجار - يتحدثون إنكليزية أكثر فصاحة من شخصيات أخرى ... وهنا نقدم فكرتنا التي هي موضوع هذا الكتاب وهي فكرة السلوك اللغوي بوصفه سلسلة من أفعال الهوية يكشف فيه الناس عن هويتهم الشخصية وبحثهم عن أدوار اجتماعية.

النص الحادي والعشرون

مرجع النص

BEN RAMPTON: CROSSING: Language and Ethnicity among Adolescents. Longman 1995, pages 280, 313.

بن رامبتون، تبديل اللغة: اللغة والعرقية بين المراهقين (1995)

بينما نرى أن تبديل الشفرة code-switching في العادة هو أداة يؤكد بها المتكلم زعمه التضامن مع أعضاء ينتمون إلى جماعتين لغويتين مختلفتين فإننا ننظر إلى تبديل اللغة على أنه استعارة للغة ليست لغتنا. وهنا يصف رامبتون ممارسات تبديل اللغة عند الشباب المنحدرين من أصول عرقية متعددة في المدارس البريطانية كالبنجابية الكاريبية والكريولية والإنكليزية الأسيوية SAE (Stylized Asian English) ويسميها تنويعات لغوية.

يركز عبور اللغة crossing على تناوب الشفرة الذي يقوم به أناس ليسوا أعضاء مقبولين في الجماعة التي تتكلم اللغة الثانية التي يستخدمونها. بل هي مرتبطة بتبديل اللغات الأخرى التي هي ليست لغاتنا. وهذا النوع من التبديل الذي ينطوي على لون واضح من الحركة عبر الحدود الاجتماعية والعرقية يثير قضايا تمس الشرعية الاجتماعية التي يحتاج المشاركون إلى التفاوض حولها والتي يستطيع المحللون دراستها ....

يتم تبديل الشفرة بين طلاب مدارس وكليات أشميد[43] من خلال تضامنات وولاءات معتمدة على سلسلة من هويات لاعرقية... هويات جوار أو طبقة أو نوع أو سن أو توجه جنسي أو دور أو اهتمام استجمامي أو غير ذلك - وهذه الأمور- من بين أمور كثيرة - هي التي تسببت في بروز العامية المحلية متعددة

الأجناس والتي كانت أساساً للتواصل، مما أتاح لهؤلاء المراهقين استكشاف دلالات العرقية والجنس من خلال تبديل اللغة. والحق أن التبديل لم يظهِر من تعددية في علاقات الهوية فحسب وإنما كان يغازل سلسلة من المعاني تنطوي عليها العرقية...

وفي اللغة البنجابية نجد أن التبديل أكثر استقلالاً عن الطرق التي كان يتم تمثيل الأقليات العرقية بها بصفة عامة في الكريولية أو الإنكليزية الآسيويةالمفبركة (SAE). وفي أوقات تزجية الفراغ غير الرسمية اتخذ التبديل شكلاً محدداً في إطار تقاليد ثقافة الملعب غير المعلنة، وفي سياق موسيقى النانجرا النبجابية[44]... وكان التبديل في اللغة الكريولية يميل إلى إعادة إنتاج مفاهيم عامة وقبول دلالاتها المقولبة واعتناقها في العامية الحية في مقابل قيم الاحترام البرجوازية... وفي الإنكليزية الآسيوية المفبركة (SAE) أخذ إعادة التفسير العملي للأيديولوجيا الراسخة شكله الأكثر تعقيداً. واستدعى التبديل إلى الإنكليزية الآسيوية المفبركة (SAE) عند المراهقين البيض صوراً عنصرية للإذعان الآسيوي بطريقة كان من شأنها أن تفسد جهد المتحدث معهم وهو الذي كان يسعى إلى تسليتهم. وكان الأمر يبدأ بالمزاح في البداية، ولكن يختلف الأمر في لحظة الأداء، كان هذا النوع من التبديل ينطوي على فعل فيه هامش مقاومة للتدفق الهادئ للتفاعل الذي يقوم به المراهقون.

النص الثاني والعشرون

مرجع النص

ALASTAIR PENNYCOOK: The Cultural Politics of English as an International

Language. Longman 1994, pages 12, 13.

ألاستير بنيكوك، الأنشطة الثقافية للغة الإنكليزية كلغة عالمية (لونجمان 1994) 12-13

زعموا أن انتشار اللغة الإنكليزية في أقطار العالم قاطبة كان طبيعياً وتلقائياً ومفيداً. وهنا يقوم بنيكوك بتحليل هذه الفرضيات الثلاث، ويجادل بأنه ينبغي علينا أن ننظر إلى اللغة الإنكليزية من منظور الهويات الثقافية التي تمنحها للمتحدثين بها.

من المعروف أن الجدل المحتدم اليوم حول اللغة الإنكليزية كلغة عالمية في حاجة ماسة إلى الوعي بسلسلة طويلة من الروابط الاجتماعية والتاريخية والثقافية والسياسية. فمن جهة نلمس أخفاقاً في الوعي بمسألة الاختيار مما أدي إلى ظهور افتراض مفاده أن للأفراد والدول الحرية في اختيار اللغة الإنكليزية للحديث، وأنهم في منأى عن كل ما يحول بينهم وبين ذلك من العوامل الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية. وكان من نتيجة هذا الإخفاق في النظر بعين النقد إلى العلاقات الكونية أن نشأ اعتقاد بأن اللغة الإنكليزية تنتشر انتشاراً طبيعياً. أضف إلى ذلك وجود نظرية وضعية براجماتية بنائية تقول

إنه بمقدورجميع اللغات أن تنتشر بمنأى عن المؤثرات الثقافية والسياسية. وهناك اعتقاد آخر مفاده أن اللغة الإنكليزية تتميز بحيادها نظراً لوضعها العالمي. وفي النهاية نلمس فهماً للعلاقات الدولية يوحي بأن الشعوب والأمم أحرار في التعامل كل مع الآخر على أساس من المساواة، وبذلك يكون التخاطب بالإنكليزية مفيداً نظراً لانتشارها الواسع.

وقد أشار عدد من الكتاب إلى سلسلة أطول من التأثيرات الثقافية والسياسية لانتشار اللغة الإنكليزية: منها أن استخدامها على نطاق واسع يشكل تهديداً للغات الأخرى بعد أن أصبحت لغة القوة والوجاهة في الكثير من دول العالم، ثم أصبحت الحارس الأمين على بوابات التقدم الاجتماعي والاقتصادي. فضلاً عن أن استخدامها في ميادين متخصصة خاصة المهنية منها، ومن شأن هذا أن يفاقم من علاقات القوى المختلفة، وقد يحول دون وصول هذه الميادين إلى الكثير من الناس. أضف إلى ذلك أن وضعها في العالم يمنحها دور الحارس الدولي الذي ينظم حركة البشر في أرجاء العالم مما يربط بين أشكال الثقافة والمعرفة الوطنية وغير الوطنية الغالبة في هذا الكون وهي موصولة الأسباب أيضاً بمظاهر العلاقات الكونية مثل انتشار الرأسمالية ووسائل التنمية وسيادة وسائل الإعلام في أمريكا الشمالية بصفة خاصة.

الفصل السابع
قضـــايا متـــداولة

النص الثالث والعشرون

مرجع النص

BRAJ B. KACHRU: 'The alchemy of English, Social and Functional power of non-native varieties' in Cheris Kramarae, Muriel Schulz, and William M. O'Barr (Eds.): Language and Power. Sage 1984, pages 190, 191.

براج بي. كاشرو: كيمياء الإنكليزية: السلطة الاجتماعية والوظيفية للتنويعات اللغوية لغير أبناء اللغة (1984)

أدت موجات الهجرة الكثيفة في العقود الأخيرة وانتشار اللغة الإنكليزية في العالم كله بعلماء اللغة إلى أن يبحثوا في قضية "ابن اللغة" ومعيار ابن اللغة أحادي اللسان.

أخذ الجدل حول اللغة الإنكليزية أشكالاً جديدة منذ استقلال الهند عن إنجلترا. كما تراجعت حكاية أن للغة الإنكليزية مصدر قوة أجنبي يقف وراءها، وتراجعت كذلك قضية فصاحتها كما ينطق بها الإنكليز أو الأمريكيون بالمعنى الثقافي. ولم يعد يُنظر إلى اللغة الإنكليزية على أنها بالضرورة أداة ناقلة للعادات الغربية فحسب. وأصبحت اللغة الإنكليزية اليوم وسيلة لتأدية وظائف وطنية محلية وعالمية شاملة في كثير من البلاد الآسيوية والأفريقية، وهي وظائف تتمايز ويكمل بعضها بعضاً في الوقت نفسه. وقد اكتسبت اللغة

الإنكليزية بذلك مصدر قوة جديد، ونخبة جديدة تنطق بها وتدير شئونها من خلالها. كما أعيد بناء ميادينها ومناطق نفوذها. وكان من نتيجة ذلك كله أن تسمع من يتساءل: هل صحيح أن اللغة الإنكليزية غريبة عن الهنود أو الأفارقة أو أهل جنوب شرق آسيا، وأنها ليست لغتهم الأصلية؟

أما المعاني المتضمنة وراء التغيير في بيئة اللغة الإنكليزية في أنحاء العالم المختلفة فلها دلالات مهمة؛ إذ أخذت التنويعات الجديدة الموطنة (غير الأصلية) حالة وجودية جديدة وظهرت بذلك معايير ومقاييس جديدة. ووجد الصفائيون[45] purists أن الموقف يفلت من أيديهم. فهم لا يطمئنون إلى أن معايير أبناء اللغة لم تعد مقبولة. وهناك آخرون يرون أن المنهج البراجماتي هو الأنسب في هذه الحالات، وأن المنهج الأحادي النظرة لم يعد قابلاً للتطبيق كما لم يعد منسجماً مع الواقع.

النص الرابع والعشرون

مرجع النص

CHARLES TAYLOR: Multiculturalism. Edited by Amy Guttmann, Princeton University Press 1994, pages 37 and 38, 72 and 73.

تشارلز تيلور: التعددية الثقافية 1994.

لم يكن الناس يتحدثون عن الهوية أو الاعتراف في العصور التي سبقت العصر الحديث؛ لأن هذه الأمور لم تكن قد تعقدت وتداخلت؛ ولأنها كانت مقصورة على مكانة المرء في مجتمعه الذي كان يتألف من طبقات معروفة ومراتب ثابتة. وأصبح من الصعب على المجتمعات الحديثة التي تؤمن بالمساواة وتكفل الحفاظ على الكرامة للجميع، أن تقر بهوية الفرد الثقافية؛ لأن الهويات في المجتمعات الحديثة إنما تتشكل – حسب الظن – من خلال الحوار المفتوح، ولا تفيدها في ذلك السيناريوهات الاجتماعية سابقة التجهيز. ومن ثم كان الصدام بين نظريات الشمول الديمقراطية أو الهوية الكونية وبين نظريات الاختلاف الثقافي.

ومع الانتقال من فكرة الشرف إلى فكرة الكرامة ظهرت نظريات الشمولية التي يركز على تحقيق الكرامة لكل مواطن، وتكمن غاية هذا المبدأ في المساواة في الحقوق والواجبات... ومع ظهور سياسات الكرامة العامة أصبح الهدف من وراء كل ما يتحقق هو العموم: جملة متسقة من الحقوق والمميزات. ومع

ظهور سياسات الاختلاف أصبحنا مطالبين بالاعتراف بالهوية المتفردة لهذا الفرد أو تلك الجماعة، وتميزها عن أي فرد آخر أو جماعة أخرى. والغريب أن هذا التميز هو الذي أهملناه، وتجاوزناه إلى غيره، وخلطنا بينه وبين هوية الفئة الغالبة... وينبغي أن يكون هناك حلاً وسطاً بين مطلب الاعتراف الزائف بالقيمة المتساوية من جهة وبين حبس الذات داخل المعايير العرقية من جهة أخرى؛ ففي العالم ثقافات أخرى، وعلينا أن نتعلم كيف نعيش معا في هذا الكون الواسع، وكيف يعيش كل منا في مجتمعه.

ويعد افتراض وجود القيمة المتساوية موقفاً عقلياً نتخذه ونحن عاكفون على دراسة الآخر. وربما لا نحتاج إلى أن نسأل أنفسنا إذا كان الآخر يريد منا أن نتبنى هذا الموقف أم لا، وهل هذه هي الطريقة التي ينبغي أن نقترب بها من الآخرين؟

هل هي الطريقة المناسبة بالفعل؟ وعلى أي أساس نشأ هذا الافتراض؟ يقول البعض إنه نشا على أساس من الدين. وكان هردر Herder – على سبيل المثال – يقول إن عناية السماء هي التي جعلت ذلك التنوع الثقافي لا يجيء وليد المصادفة، بل قصد به إلى أن يكون سبباً في انسجام كوني أجل وأعظم. ولعلنا هنا نضع أيدينا على قضية أخلاقية، فما نحن بحاجة إليه هنا هو الإحساس بدورنا المحدود في هذا الكون الفسيح، وفي القصة البشرية كلها؛ حتى نستعد لقبول الافتراض سالف الذكر. وليس ثمة ما يحول بيننا وبين ذلك القبول غير العزة بالإثم أو ما شابه ذلك من سوء الطبع وفساد الطوية. لا نحتاج – لكي نقبل بالافتراض – إلى أحكام القيمة المتساوية النهائية التي تفتقر إلى المصداقية الكافية، ولكننا نحتاج إلى رغبة في الانفتاح على الدراسات الثقافية المقارنة من ذلك النوع الذي يحل محل آمالنا في الاندماج الكامل.

الجــــزء الثـــالث

مسرد المصطلحات

الجزء الثالث

مسرد تعريف بأهم المصطلحات[46]

التثاقف، التبادل الثقافي، الامتزاج الثقافي، المثاقفة acculturation

- العملية التي يتم بمقتضاها قبول ثقافة جماعة خطاب ما.
- العملية التي تنتقل بها الثقافة خلال اتصالات مستمرة مباشرة بين جماعات ذات ثقافات مختلفة. (المسرد)

ويلقى التثاقف استجابات مختلفة تبعاً للظروف ومن ذلك: (1) القبول ويقصد به استعارة الجانب الأكبر من الثقافة الجديدة وتمثل كل من أنماط السلوك والقيم الداخلية لهذه الثقافة. (2) التكيف وهو إحكام العنصر الثقافي الذي تم قبوله لكي يتواءم مع نظائره في ثقافة المستعير المتوازنة. وقد تكون النتيجة النهائية هي التمثل (تكيف من جانب واحد) أو الانصهار الثقافي (التكيف المتبادل). (3) رد الفعل وهي الحركات الشعبية التي تقوم ضد التثاقف من الخارج ويؤكد الشعب من خلالها القيم التي تحتويها أساليب حياته الأصلية. (الدكتور أحمد زكي بدوي، معجم العلوم الاجتماعية، ص 6). (المترجم)

فعل هوية act of identity

طريقة يستعرض بها المتحدثون موقفهم الثقافي تجاه عضويتهم في ثقافة معينة وتجاه ثقافة الآخرين من خلال استخدامهم للغة. (المسرد)

المواءمة، المناسبة appropriateness

هي صفات الممارسة اللغوية والاجتماعية التي تطابق توقعات أبناء اللغة داخل ثقافتهم. (المسرد)

أو هي موافقة الاستعمال اللغوي لسياق الحال الوارد فيه، فاستعمال he does not مناسب للنص الأدبي أو المحاضرة العلمية، غير أن استعمال "he don't " – التي يجعلها أصحاب المذهب التقنيني في عداد الخطأ – قد يكون مناسباً في حديث غير متكلف يدور بين شخصين من طبقة اجتماعية دنيا. وقد حلت فكرة المناسبة محل "الصحة correctness " في المناهج الحديثة، ولا سيما في دراسة "شروط الاستخدام". انظر رمزي منير البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، ص. 54 (المترجم)

الاستيلاء أو الحيازة appropriation

العملية التي يتم بمقتضاها استيلاء أعضاء جماعة خطاب معين على لغة وثقافة جماعة أخرى. (المسرد)

التعسفية arbitrariness

الطبيعة العشوائية للتطابق بين العلامة اللغوية والموضوع الذي يشير إليه. مثلاً: كلمة 'rose' لا يبدو أن شكلها يحاكي الوردة. (المسرد)

سِمة تميز اللغة عن كثير من الأنظمة السيميائية الأخرى، وتحديداً: فإن الرموز المستخدمة فيها لا تمليها الحقيقة المُعَبَّر عنها، خلافاً لحركات النحل، مثلاً، حيث تُعَبِر الحركة مباشرة عن المسافة بين الرحيق والقفير. (انظر معجم المصطلحات اللغوية، ص 55) (المترجم)

اللاتماثل asymmetricality

نقص التطابق الكامل بين علامة لغوية والموضوع الذي تدل عليه؛ فالعلامة 'rose' مثلاً تعني أكثر من دلالتها على الزهرة ذات الخواص المحددة والرائحة المعينة. (المسرد)

البربرية Barbarism

انتهاك اللغة الفصحى حين يستعملها من لا يجيدونها حق الإجادة. (المسرد)

الشفرة code

نظام شكلي للتوصيل. (المسرد)

اصطلاح، رمز، شفرة اتصال؛ نظام رمزي، نمط:

مجموعة من القواعد الاصطلاحية التي يتم بها نقل الرسالة (message) من نظام للرموز إلى نظام آخر فالكلام بهذا المعنى يعد شفرة لنقل الأفكار، والكتابة شفرة لنقل الكلام. وللشفرة وجهان: التشفير encoding. وحل الشفرة decoding (معجم المصطلحات اللغوية، ص، 96) (المترجم).

تبديل الشفرة code-switching

استراتيجية لفظية يعمد إليها ثنائيو اللغة أو ثنائيو اللهجة حين يبدلون الشفرة اللغوية في خطابهم كعلامة على التضامن الثقافي cultural solidarity

أو المسافة الثقافية cultural distance ، وكذلك بوصفها فعل هوية ثقافية (المسرد).

تحول الكلام من "شفرة"، بالمعنى الذي يستعمل في علم اللغة الاجتماعي، إلى أخرى خلال الكلام أو المحاورة. وقد يشمل هذا التحول الانتقال من لهجة إلى أخرى (كالتحول من العامية إلى اللغة الفصحى وبالعكس في بعض الخطب)، أو من لغة إلى أخرى (كالتحول إلى الفرنسية أو الإنكليزية من العربية، أو بالعكس في كلام فئات معينة في بعض البلدان العربية؛ أو كتحول ثنائيي اللغة من لغة إلى أخرى). انظر معجم المصطلحات اللغوية، ص. 96). (المترجم)

تلاحم ، تناسق coherence

هو المعنى الحاصل في عقول المتحدثين أو القراء عن طريق الاستدلالات السياقية التي يصنعونها والمعتمدة على الكلمات التي يسمعونها أو يقرؤونها (المسرد).

مدى كون النص المكتوب أو المنطوق (بما في ذلك التحاور) متصل الأجزاء، كما تظهر دراسة بنيته من الناحية الوظيفية (معجم المصطلحات اللغوية، 97). (المترجم)

تماسك، ارتباط cohesion

الروابط الدلالية بين وحدات اللغة في نص ما (المسرد).

مدى الترابط بين عنصرين لغويين (مورفيمين أو كلمتين إلخ) أو أكثر. ويكون هذا الارتباط في أقوى درجاته بين المورفيم الحر والمورفيم المقيد الذي

يتصل به، نحو "أخذت" (أخذ + ت). ومن المواضع التي تظهر فيها قوة الترابط ما ذكر النحاة العرب أنه لا يجوز فصله بالأجنبي، ولا سيما المضاف والمضاف إليه. (معجم المصطلحات اللغوية، 67). (المترجم)

أداة ترابط cohesive device

عنصر لغوي مثل الضمير أو اسم الإشارة أو الرابط، يعمل على تشفير التواصل الدلالي على امتداد النص.

دلالة المعني/ ظل المعنى connotation

إيحاءات المعاني التي تستدعيها كلمة ما في عقل القارئ أو السامع. (المسرد)

إيحاء أو تضمين، ظلال دلالية، ظلال المعنى، مفهوم مقترن

ما يثيره استعمال العناصر اللغوية - ولاسيما الكلمات - من العواطف والأفكار في ذهن الفرد أو المجموعة. فاستعمال كلمة fascist - مثلاً - يثير في بعض المجتمعات الأوربية - بالعواطف والأفكار - إيحاءً فردياً أو جماعياً متصلاً بالتاريخ السياسي الحضاري لشعوب تلك المنطقة. (معجم المصطلحات اللغوية، ص 115). (المترجم)

القرينة الثقافية، السياق الثقافي context of culture

المعرفة التاريخية أو المعتقدات أو المواقف أو القيم التي يتشارك فيها أعضاء جماعة خطاب ما والتي تضيف إلى معاني تبادلاتهم اللفظية. (المسرد)

مصطلح يستخدم أحياناً للإشارة إلى مجموع العناصر الثقافية والاجتماعية التي يجري الكلام في إطارها. (معجم المصطلحات اللغوية، ص 132). (المترجم)

سياق الموقف، سياق الحال context of situation

البيئة المكانية والفضائية والزمنية والاجتماعية المباشرة التي تتم فيها المبادلات اللفظية. (المسرد)

سياق لفظي، سياق الموقف، مقتضى الحال (أ) الخلفية غير اللغوية للكلام (أو النص)، أي مجموع العناصر غير اللغوية التي يكتسب الكلام (أو النص) من خلالها تمام معناه في الاستعمال. ومن هذه العناصر (وهي تصح في النص أيضاً) الكلام السابق، والإطار الاجتماعي الذي يتم فيه الكلام، ومستوى العلاقة بين طرفي الكلام اجتماعياً وثقافياً. (ب) في مصطلح عالم اللغة البريطاني Firth هو الخلفية غير اللغوية للكلام من حيث كونها عنصراً أساسياً في المعنى يوازي في أهميته العوامل اللغوية نفسها كالأصوات والتراكيب إلخ. (انظر معجم المصطلحات اللغوية، ص 119). (المترجم)

مقيد بالسياق context- dependent

صفة المبادلات الشفاهية التي تعتمد كثيراً في معانيها على سياق الموقف والسياق الثقافي للمشاركين في العملية.

محذوف السياق context-reduced

حين تكون المسافة الزمنية والفضائية كبيرة بين المؤلف والقراء، فإن النص

نفسه يجب أن يكون قادراً على إنتاج المعنى دون الدخول في سياقه الأصلي عند إنتاجه. (المسرد)

إشارات المساق contextualization cues

مصطلح وضعه عالم الأنثروبولوجيا جون جومبيرزJohn Gumperz للإشارة إلى العلامات اللفظية وشبه اللفظية وغير اللفظية التي تساعد المتحدثين على فهم المعنى الكامل لما ينطق به محاوروهم في السياق. (المسرد)

أسلوب التحاور conversational style

طريقة المرء في الكلام أثناء المحادثة.

مبدأ التعاون co-operative principle

مصطلح وضعه الفيلسوف بول جريس Paul Grice للإشارة إلى التوقع الأساس بأن المتشاركين في المبادلات المعلوماتية سوف يتعاونون فيما بينهم على الإسهام الإيجابي وفي الوقت المناسب في المحادثة. (المسرد)

مبدأ مسلم به في الحوار الثنائي أو الجماعي، وهو التزام كل طرف بالاصطلاح المتعارف عليه ويكون كلامه مفيداً وصادقاً (وإن يكن الكذب والتعمية مقصودين أحياناً). (معجم المصطلحات اللغوية، ص 126) . (المترجم)

سياق النص co-text

البيئة اللغوية التي تُسْتَخْدَم فيها الكلمة داخل النص. (المسرد)

الهوية الثقافية cultural identity

هي العضوية في ثقافة ما. (المسرد)

المعرفة الثقافية cultural literacy

مصطلح وضعه الناقد الأدبي إي. دي . هرش E.D. Hirsch للإشارة إلى مجموع المعارف التي يفترض أن يتشارك فيها جميع الأعضاء في ثقافة ما. (المسرد)

الثقافة culture

1- العضوية في مجتمع خطاب يشترك في فضاء اجتماعي وتاريخي واحد ونسق مشترك من المعـايير في الفهـم والاعتقـاد والتقييم والتصرف. 2- مجتمع الخطاب نفسه. 3- نسق المعايير ذاته. (المسرد)

يحدد رايموند وليامز Raymond Williams ثلاث معان حديثة تستخدم فيها الكلمة حالياً، وهي وثيقة الصلة بعضها بالبعض: (1) "عملية تنمية عامة، فكرية وروحية وجمالية." (2) أسلوب حياة معين، لشعب أو لحقبة أو لجماعة بشرية. (3) أعمال وممارسات النشاط الفكري لا سيما النشاط الفني. (1976- ص. 80 keywords ، أي كلمات أساسية). وقد لجأ إلى هذا المصطلح بعض المحدثين الذين يريدون دراسة الأدب في سياقه الاجتماعي التاريخي دون استخدام مصطلحات توحي بالماركسية في المنهج أو إطار التحليل. كما تمكن أصحاب النقد النسائي من استخدام المصطلح في تفسير الفروق القائمة بين الجنسين، بدلاً من الأسس البيولوجية. أما مصطلح الثقافة الشعبية popular فيشير إلى ثقافة في المرتبة الثانية من حيث

هيمنة الممارسين لها في مجتمع معين، أما إنها ثقافة من الشعب فلا خلاف عليه (وفي هذا المعنى يتفق المصطلح مع دلالة الفولكلور folk culture. وإما إنها موجهة إلى الشعب فهي مسألة خلافية. (انظر الدكتور محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم إنكليزي-عربي ، لونجمان ، ص: 14) (المترجم)

إشاري Deictic

الصفة من Deixis وهي آلية تحدد بها اللغة مكان وزمان الحدث وموقع المتحدث لحظة النطق بالكلام. (المسرد)

المعنى الأساسي المفاهيمي للكلمة/ المعنى المعجمي (المسرد). Denotation

حواري، جدلي، تفاعلي dialogic

كل ما هو مؤسس على الحوار (المسرد).

هذا المصطلح يدين بإشاعته – هو ومشتقاته (dialogic حوارى، dialogism مذهب الحوار / الحواري / الحوارية، و dialogical حواري / جدلي) – إلى كتابات ميخائيل باختين التي ترجمت إلى لغات أوربا الغربية في السبعينيات والثمانينيات. والجدير بالذكر أن باختين كان لا يزال يكتب عندما وافته المنية عام 1975، وقيل أنه نشر بعض كتاباته بأسماء أصدقائه مثل فولوشينوف Volosinov ومدفيديف Medvedev.

على أي حال، يقول فولوشينوف في كتابه "الماركسية وفلسفة اللغة" (1986) إن التفاعل اللفظي verbal interaction هو الحقيقة الأساسية للغة،

ويؤدي هذا العامل إلى توليد توترات داخلية ومظاهر تعاون وتفاوض حتى في الحديث الذي لا ينتمي شكلاً إلى الحوار أو المحادثة. وعلى الرغم من أن تطور الذرائعية pragmatics في اللغة والأدب قد أثبت ذلك دون أدنى شك، فإن ما كان يقول به باختين يؤكد نظرياً هذه الحقيقة الواقعية – فعلى مستوى الألفاظ يقول باختين إن الألفاظ ليست محايدة، وكلها مستعمل من قبل، وإن من يستخدمها يستعيرها بما علق بها من آثار أصحابها السابقين. وهكذا فهو يتحاور مع صاحبه ومع آثاره، ويحاور الكلمات نفسها ليخرج معناه الجديد، وكل ذلك له علاقة بالتناص. وعلى عكس الحوار يوجد الحديث المنفرد monologue أما تعبير polyglosia فيعني به باختين تعدد اللغات القومية في ثقافة واحدة، وعكسها monoglosia أي اقتصار الثقافة على لغة قومية واحدة. (الدكتور محمد عناني ص: 17) المترجم

الانتشار diffusion

مفهوم أنثروبولوجي يشير إلى العملية التي تتشكل بموجبها القوالب من خلال انسحاب صفة شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص على الجميع، كأن نقول مثلاً أن جميع الأمريكان فرديون وجميع الصينيين جمعيون. (المسرد).

الخطاب Discourse

هذا المصطلح الذي يبدأ بحرف كبير في أوله وضعه عالم اللغة جيمس جي James Gee ولا يشير به فقط إلى طرائق الحديث أو القراءة والكتابة، وإنما يشير به أيضاً إلى طرائق التصرف والتفاعل والتفكير والتقييم التي هي من خصائص خطاب معين. (المسرد)

خطاب discourse

عملية استخدام اللغة حديثاً أو كتابة أو طباعة ويشمل ذلك الكتاب والنصوص والقراء في إطار إنتاج واستقبال ثقافي اجتماعي للمعنى.

وزيادة في الفائدة نورد تعريف الدكتور محمد عناني لـ discourse في معجمه حيث يقول:

discourse الخطاب، الكلام ، الحديث

الترجمة الشائعة هي الخطاب – ومعناه اللغة المستخدمة (أو استخدام اللغة) language in use لا اللغة باعتبارها نظاماً مجرداً. ولكن ثمة ضروباً منوعة من الدلالات لهذا المصطلح حتى في نطاق علوم اللغة. فيقول مايكل ستابز Stubbs في كتابه "تحليل الخطاب" (1983) تعليقاً على استخدام مصطلحي النص والخطاب text and discourse إن ذلك كثيراً ما يتسم بالغموض ويبعث على البلبلة. وهو يقول إن الخطاب كثيراً ما يوحي بأنه أطول وبأنه قد يتضمن أو لا يتضمن التفاعل (ص 9).

وهكذا فبعض اللغويين يعتبرون أن الكلام الذي يقال في حلقة دراسية seminar يمثل كله خطاباً، بمعنى عملية تبادل للأفكار تكتسي ثوباً لفظياً، على حين يعتبر آخرون أن بياناً واحداً في الحلقة يعتبر خطاباً، طال أو قصر. كما يختلف اللغويون في إمكان "جمع" الخطاب، فبعضهم يقول إنه يجمع "خطابات" البعض الآخر يقول إنه لا يجمع وغير قابل للعد والإحصاء، ويذهب فريق ثالث إلى إمكانية جمعه في أحوال معينة. فإذا كان الخطاب "يجمع" فسوف تكون المشكلة التالية هي البت فيما يشكل حدود تعريف الخطاب الواحد، فيقول ستابز إن وحدة خطاب محدد يمكن تعريفها من حيث البناء أو الدلالة أو الوظيفة (ص 5).

أما جيرالد برنس Gerald Prince فيقول في كتابه "معجم علم السرد" (1988) إن للخطاب معنيين منفصلين في إطار نظرية السرد: الأول هو المستوى التعبيري للرواية لا مستوى المضمون، أي عملية السرد لا موضوعه، والثاني يتضمن التمييز بين الخطاب والقصة story (بنفنيست Benveniste يستخدم الخطاب و histoire في كتابه بالفرنسية) ، لأن الخطاب كما يقول ستابز يوحي بعلاقة بين "حالة أو حادثة وبين الموقف situation الذي يوحي فيه لغوياً بهذه الحالة state أو الحادثة event" (ص 21). أي أن التعريف هنا يستند إلى التفرقة بين الخبر والإخبار به، أو بين الواقعة والإبلاغ عنها، مما يماثل الفرق بين énonciation و énoncé .

ويفضل بعض كتاب الإنكليزية الاحتفاظ بالصورة الفرنسية للكلمة (أي دون حرف الـ e الأخير) عند استخدام الخطاب بالمعنى الذي استخدمه فيه بنفنيست.

وأما فوكوه فيقول إن الخطاب يمثل "مجموعة كبيرة من الأقوال أو العبارات " ("أثرية المعرفة" – 1972، ص 37) – ويعني بها "مساحات لغوية تحكمها قواعد"، وهي القواعد التي تخضع لما يسميه فوكوه "بالاحتمالات الاستراتيجية". ومن ثم فإن فوكوه يقول إنه في لحظة معينة من تاريخ فرنسا مثلاً سيكون هناك خطاب معين (أي لغة ميتة) للطب – ويعني به هنا مجموعة من القواعد والأعراف والنظم (نظم التوسط mediation) التي تحكم أسلوب الحديث عن المرض والعلاج ، ومتى يكون ذلك وأين وعلى أيدي من. ولكن المشكلة، لا تزال قائمة وهي كيف نضع حدود خطاب معين؟

ويرجع أحد جوانب المشكلة على استخدام فوكوه لتعبير discursive function بطريقة توحي بأنه يمكن أن يعني تقريباً ما يعنيه "الخطاب"؛ إذ إن كلمة discursive هنا تستعمل صفة من discourse لا بمعناها المألوف أي

باعتبارها صفة من "اللف والدوران" – مما جعل ناقداً آخر هو جون فراو John Frow في كتابه "الماركسية والتاريخ الأدبي" 1986) يقترح استخدام تعبير بديل عنه وهو "عالم الخطاب" universe of discourse ويقدم نماذج له من أنواع الخطاب الديني والعلمي والبراجماتي والتقني اليومي والأدبي والقانوني والفلسفي والسحري، وما أشبه، ويفرق بين ذلك كله وبين أنواع الخطاب genres of discourse التي يعرفها، استناداً إلى فولوشينوف بأنها "مجموعات من الملامح الشكلية والسياقية والموضوعية ، ذات أبنية معيارية، أو "طرائق الحديث " في موقف من المواقف." (ص 67)

ويقول فوكوه، إن لكل مجتمع وسائله في "ضبط" أنواع الخطاب فيه، واختيار بعضها وتنظيمه وإعادة توزيعه، وأن الهدف من هذا "الضبط" هو تفادي "الأخطار والقوى" (-1981 ص 52).

وهذه الوسائل تتحكم فيما يطلق عليه فوكوه تعبير discursive practices (ممارسات الخطاب) و discursive strategies (استراتيجيات الخطاب) و discursive objects (أهداف الخطاب) بحيث تتضح الملامح المنظمة للخطاب discursive regularities في كل حالة. وتعلق ليندا نيد Lynda Nead على استخدام فوكوه لهذا المصطلح قائلة إنه يتسم بعدم الاتساق ومن ثم فإن المرء لا يثق فيما يعنيه المصطلح على وجه الدقة حتى داخل كتاب واحد أو مقال واحد من مقالات فوكوه، وهي تدلل على ذلك بتحليل استخدامات فوكوه للمصطلح في كتاب "تاريخ النزعة الجنسية" -1988) History of Sexuality ص 4).

وإذا نظرنا إلى المعجم الصغير الملحق بكتابات باختين "الخيال الحواري" (1981) وجدنا أن كلمة الخطاب تستخدم ترجمة للكلمة الروسية slovo ، التي قد تعني كلمة واحدة، أو طريقة في استخدام الكلمات توحي بدرجة ما من السلطة (ص 427) والمعنى هنا ليس بعيداً عن معاني فوكوه، فخطاب

الثقة أو حديث الثقات authoritative discourse هو اللغة ذات المزايا التي "تأتينا من خارجنا، وتصلنا عنها مسافة، وهي محرمة، ولا تسمح بالمساس بسياق إطارها " (ص 424). أما خطاب الإقناع الداخلي internal persuasive discourse فهو الخطاب الذي يستخدم نفس ألفاظنا ولا يقدم نفسه في صورة "الآخر" أي باعتباره ممثلاً لقوة أجنبية، أي غريبة عنا. وأما الخطاب السامي ennobled discourse فهو الذي أضفى عليه الطابع "الأدبي" وأصبح رفيعاً وليس في متناول أيدي الجميع. ويورد Todorov في كتابه عن باختين (1984) مقتطفات من كتابه تدل على الاختلافات القائمة بين شتى معاني الكلمة لديه (أو ما يقابلها بالروسية) – منها "الخطاب، أي اللغة في مجموعها المجسد الحي" ، و "الخطاب، أي اللغة باعتبارها ظاهرة مجسدة كلية"، و "الخطاب، أي النطق" (بالروسية) vyskazyvanie. ويصر باختين على أن الخطاب يعني اللغة المجسدة الحية ذات الشمول والاكتمال في كتابه عن دستويفسكي (1984 – ص 181)، وينكر أنها اللغة "باعتبارها موضوع دراسة علماء اللغة والتي يعرفونها من خلال عملية تجريد ضرورية ومشروعة من شتى جوانب الحياة العملية للكلمة" (نفس الصفحة).

والواضح، كما يقول هوثورن (1994)، أن الأيديولوجيا بشتى تعريفاتها، من "الجيران الأقربين" للخطاب طبقاً لمفهوم فوكوه. ولم ينس تودوروف أن يأتي بمصطلحين جديدين هو الآخر للحاق بأسرة الخطاب، هما الخطاب الأحادي التكافؤ monovalent discourse والخطاب المتعدد التكافؤ polyvalent discourse (انظر: register). (انظر معجم المصطلحات الأدبية، ص 19- 22). (المترجم)

لُكْنة الخطاب discourse accent

أسلوب في الحديث والكتابة يتسم بسمات مجتمع الخطاب في استعمال اللغة.

مجتمع الخطاب discourse community

جماعة اجتماعية تمتلك جملة من الأهداف والأغراض العامة المشتركة يتفقون عليها جميعاً وخاصة باستخدام اللغة في الحديث والكتابة. (المسرد)

التشفير encoding

ترجمة الخبرة إلى علامة أو شفرة. (المسرد)

وجه face

حاجة المرء الاجتماعية إلى الانتماء إلى جماعة وميله إلى الاستقلال عن هذه الجماعة.

يقول بي. كريستوفر إيرلي في كتابه " Face, Harmony, and Social Structure: An Analysis of Organizational Behavior across Cultures. (مطبعة جامعة أكسفورد، 1997) ما نصه: "الوجه هو القيمة الاجتماعية الإيجابية التي يزعمها الفرد لنفسه من خلال السلوك الاجتماعي الذي ارتضاه أثناء الاتصال الاجتماعي. وللوجه جانبان: الجانب الداخلي وهو الصورة التي يرضاها الفرد لنفسه أمام ضميره، والجانب الخارجي وهو الصورة التي يرضاها الفرد لنفسه أمام الآخرين. فحين يسرق العامل أشياء من الشركة

التي يعمل بها فإنه يضع نفسه أمام صورتين: داخلية وخارجية، أمام ضميره وأمام الآخرين الذين قد يشاهدونه. ثم يمضي الكاتب في القول: "الوجه لا يقبل النقل والتحديد ولا يُشترى بالمال، ولا يُرى بالعين المجردة، ولكن الناس مع ذلك يتقاتلون من أجله، والنساء، خاصة، مستعدات للموت في سبيله. إنه مكانة المرء الاجتماعية وصورته الأخلاقية (42-45). (المترجم)

تحسين الوجه facework

الاستراتيجيات الاجتماعية المطلوبة لحماية أسماء الناس. (المسرد)

التركيز focusing

مفهوم أنثروبولوجي يشير إلى العملية التي يتم بمقتضاها تشكيل القوالب عن طريق التركيز على مفاهيم قابلة للتصنيف سائدة بين أعضاء جماعة خطاب معينة مثل الفردية في مواجهة الجماعية. (المسرد)

الوضع، الموضع، الموطئ footing

مصطلح وضعه عالم الاجتماع إرفنج جوفمان Erving Goffman للدلالة على الوضع الذي نتخذه أمام الآخرين من خلال الطريقة التي ندير بها إنتاج الكلام أو استقباله. (المسرد)

إطار frame

نموذج أعلى في السلوك تحدده الثقافة يمكننا من تفسير كل منا لحالات الآخر من ناحية السلوك اللفظي وغير اللفظي. (المسرد)

النـــوع genre

نوع من الحوادث التوصيلية مُجاز اجتماعياً إما منطوقاً مثل المقابلات الصحفية أو مطبوعاً مثل الرواية. (المسرد)

الفاصل العظيم Great Divide

نظرية وضعها عالم الإنسانيات إريك هافلوك Eric Havelock تفيد أن اختراع الكتابة كان السبب في وجود اختلاف لا يمكن تجاهله أو تخفيفه بين الثقافات الشفاهية والثقافات الكتابية وطريقة كل منها في التفكير. (المسرد)

الهيمنة hegemony

مصطلح وضعه أنتونيو جرامشي Antonio Gramsci للإشارة إلى هيمنة شكل من أشكال السيادة المنظمة لقوة ما وسيطرتها على المقدرات الاقتصادية والسياسية والثقافية والإيديولوجية لمجتمع واحد أو أكثر من مجتمع واحد. (المسرد)

يستخدم الماركسيون هذا المصطلح للإشارة إلى استخدام السلطة دون اللجوء إلى القوة المادية، وعادة ما يكون ذلك من جانب طبقة تمثل أقلية في المجتمع، وتتناقض مصالحها مع مصالح الخاضعين للهيمنة. وتعزي إشاعة هذا المصطلح إلى الشيوعي الإيطالي أنتونيو جرامشي Antonio Gramsci الذي كتب أهم أعماله أثناء حبسه أيام الحكم الفاشي لموسوليني. (قاموس المصطلحات الأدبية للدكتور، محمد عناني، ص 38). (المترجم)

أيقوني iconic

معنى الكلمات الذي يتأسس على التشابه بينها وبين الواقع مثل المحاكاة الصوتية في ('bash' و 'mash' و 'smash' و 'crash' و 'dash'). (المسرد)

المؤشر index

1- المؤشر يعني تلك العلامة التي تشير إلى وجود كيان ما في الموقف الراهن وتشير إليه. 2- المؤشر صيغة لغوية تؤدي هذه الوظيفة. (المسرد)

index يعني علامة مؤشرة أو قرينة أو رقم يحدد مدى شيوع ظاهرة ما في اللغة، وبالأخص ما يساعد على تصنيف تلك اللغة بين اللغات مثلاً : مؤشر الالتصاق (agglutinative index) هو الذي يحدد مدى شيوع هذه الظاهرة في لغة ما ، والذي يستخدم في تصنيفها بالنسبة إلى سائر اللغات. (رمزي البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، ص: 242). (المترجم)

عبر ثقافي intercultural

1- يشير هذا المصطلح إلى تقابل الناس من ثقافات مختلفة ولغات مختلفة عبر الحدود السياسية للدول. 2- يشير إلى التواصل بين أناس من ثقافات مختلفة من الناحية العرقية والاجتماعية والجنسية داخل حدود الأمة الواحدة. (المسرد)

عبور اللغة / تبديل اللغة language crossing

الانتقال من شفرة لغوية أو تنويع لغوي إلى شفرة لغوية أو تنويع لغوي

آخر أو تقليد تنويع لغوي أو خلق هجين من التنويعات اللغوية لنفس الشفرة، بوصفها فعل هوية أو فعل مقاومة. (المسرد)

اللنغوية Linguicism

مصطلح وضعه روبرت فيلبسون Robert Phillipson للإشارة إلى التمييز والتحيز على أساس اللغة يشبه التمييز على أساس العنصر والجنس. (المسرد).

الإمبريالية اللغوية linguistic imperialism

الانتشار الواسع للغة ما على حساب اللغات جميعاً. (المسرد)

القومية اللغوية linguistic nationism

ارتباط صيغة لغوية واحدة (فصحى أو لغة قومية) بالعضوية في جماعة قومية واحدة. (المسرد)

مبدأ النسبية اللغوية linguistic relativity principle

فرضية وضعها عالما اللغة إدوارد سابير Edward Sapir وبنجامين ورف Benjamin Whorf تعمل بمقتضاها اللغات المختلفة على تقديم طرق مختلفة للفهم والتعبير عن العالم من حولنا ومن ثم إرشاد المتكلمين بتلك اللغات لفهم العالم بطرق مختلفة. (المسرد)

وترجع جذور النسبية اللغوية إلى آراء عالم الأعراق الألماني W. von Humboldt (توفى 1835) وتتمثل مكتملة بآراء عالمي أنثروبولوجيا اللغة سابير (توفى 1939)

وورف (توفى 1941). وتتلخص النظرية في أن لغة المرء بأقسام كلامها ونظامها وتراكيبها - هي التي تحدد - كلياً أو جزئياً - إدراكه للعالم الخارجي "وتنظيمه" لهذا العالم في ذهنه. (رمزي البعلبكي، قاموس المصطلحات اللغوية، ص 282) (المترجم)

الحقوق اللغوية linguistic rights

مفهوم أذاعته الأمم المتحدة وهيئات دولية أخرى للدفاع عن حق الشعوب في تنمية وتطوير لغاتها الخاصة بها وخاصة حق الأطفال في الحصول على التعليم بلغاتهم. (المسرد)

الإلمام بالقراءة والكتابة، الكتابية literacy

القدرة المعرفية والسوسيوثقافية (الاجتماعية - الثقافية) على استخدام الوسيلة المكتوبة أو المطبوعة حسب معايير التفاعل والتفسير لمجتمع خطاب ما. (المسرد)

القدرة على القراءة والكتابة أو الاتصال عن طريق الكتابة ويقال: ملم بالقراءة والكتابة literate وأمي illiterate ، كما يقال : "المرحلة السابقة لاختراع الكتابة pre-literacy وهو اصطلاح يستخدم في الأنثروبولوجيا لوصف الجماعات التي لم ينم فيها بعد فن القراءة والكتابة. (د/ أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص: 248) (المترجم)

الحادثة الكتابية literacy event

تفاعل قارئ أو مجتمع قراء مع نص مكتوب. (المسرد)

صفة استخدام اللغة المكتوبة. **literate**

الاستعارة metaphor

ليست فقط وسيلة من وسائل الخيال الشعري والبلاغة وإنما هي كذلك من خواص نظامنا المفاهيمي، فهي طريقة في استخدام اللغة التي نبني بها طريقة فهمنا للأشياء وطريقة تفكيرنا وتصرفنا. (المسرد)

متعدد الثقافة multicultural

مصطلح سياسي يستخدم لوصف مجتمع يتألف من أفراد من مشارب ثقافية مختلفة أو فرد ينتمي إلى ثقافات متعددة. (المسرد)

الأسلوب السردي narrative style

طريقة المرء في إخبار القصص يعكس استخدام لغة مجتمع الخطاب الذي ينتمي إليه. (المسرد)

ابن اللغة native speaker

شخص يُعرف من قبل أعضاء مجتمع خطاب ما بوصفه واحداً منهم من الناحية اللغوية والثقافية. (المسرد)

الشفاهية orality

ملامح الخطاب المتصلة باستخدام اللغة المنطوقة. (المسرد)

خاصية من خواص اللغة المنطوقة أو المكتوبة تحمل آثار الشفهية. orate

الاستشراق orientalism

مصطلح وضعه إدوارد سعيد Edward Said ليشير به إلى المنظور الاستعماري الذي تبناه الكتاب الأوربيين عن الشرق واستخدم بعد ذلك ليدل على النظرة للاستعمارية لأية ثقافة أجنبية. (المسرد)

التمحور حول الناس people-centered

خاصية من خواص المبادلات اللفظية فيها يضطر المشاركون إلى أن يشاركوا مستمعيهم في الحديث وليس في نقل المعلومات فحسب. (المسرد)

تبادل المجاملة، اتصال انتباهي ، تبادل المشاعر phatic communion

مصطلح وضعه عالم الأنثروبولوجيا برونسلو مالينوسكي Bronislaw Malinowski لوصف العبارات الجاهزة من الكلام مثل 'Hi, how are you? ' التي يستخدمها الناس للحفاظ على التواصل الاجتماعي أكثر منه لنقل المعلومات. (المسرد)

تبادل عبارات السلام والتحية بين المتكلمين. ولهذه العبارات في العادة – فضلاً عن دلالتها الاجتماعية وعن طرق تبادلها بين المتكلم والمخاطب في عملية الحوار – خصائص نحوية تميزها عن غيرها فهي غالباً ما تكون مختصرة أو أقل من جملة (مثلاً: أهلاً وسهلاً، و Good day!) وغير متصرفة مثلما نقول (في الفرنسية: comment ca-va?). وتعرف هذه العبارات بالتحيات المأثورة salutations idiot لأنها ثابتة لا تتغير. (معجم المصطلحات اللغوية ص: 370-371) (المترجم)

سياسات الاعتراف politics of recognition

المناظرات السياسية التي تدور حول حق الأقليات في أن يعترف بهم المجتمع ويقبلهم بوصفهم أعضاء في ثقافة مختلفة عن الثقافة السائدة. (المسرد)

الذرائعية Pragmatics

دراسة ما يعنيه المتكلمون بالألفاظ تمييزاً له عما تعنيه الشفرة. (المسرد)

الثقافة المطبوعة print culture

الأعمال الفنية وطرائق التفكير والممارسات الاجتماعية المرتبطة بإنتاج واستقبال اللغة المطبوعة. (المسرد)

النص القبلي prior text

نص واحد أو عدة نصوص يستشهد بها نص ما بوضوح أو يشير إليها أو يبني عليها أو يرجع صداها أو يستدعيها أو في أحسن الحالات يندمج معها. (المسرد)

المدلول ، المحال إليه ، المشار إليه referent

الشيء الذي يشير إليه الدال (صوتاً كان أو كلمة) مثل: "زهرة ذات شكل معين ورائحة معينة" وهو مدلول كلمة "وردة". (المسرد)

محال إليه، مدلول، مرجع، مرجع إليه، مشار إليه، مقصود

الشيء الحسي أو الفكرة المجردة التي يعبر عنها الرمز الكلامي أو الكتابي؛

مثل: الآلة الجارحة المستدقة .. الخ التي تسمى رمحاً. وحدث الوقوع الذي يعبر عنه الفعل "وقع". والمسمى هو المدلول في مصطلح فردیناند دو سوسير F. de Saussure ، إلا أن لهذا الأخير صنواً هو الدال (signifiant) ضمن ثنائية التحليل السوسيري. (رمزي البعلبكي، ص 422). (المترجم)

التمثيل representation

هو الطريقة التي تعبر بها ثقافة ما عن نفسها أو يُعبَّر عنها من قبل الآخرين من خلال وسائل لغوية أو مرئية أو فنية أو غير فنية. (المسرد)

نظرية ورف وسابير Sapir-Whorf hypothesis

فرضية النسبية اللغوية التي وضعها عالما اللغة إدوارد سابير وبنجامين ورف. (المسرد)

بنية كبرى schema

الجمع منها schemata وهي التمثيل الذهني للحالات النمطية المستخدمة في معالجة الخطاب وذلك للتنبؤ والخروج بمعنى لحالة معينة يصفها الخطاب. (المسرد)

الشبكات الدلالية semantic networks

شبكة من المعاني المتصلة تستدعيها الكلمة. (المسرد)

علم الدلالة semantics

دراسة طريقة تشفير المعنى في اللغة تمييزاً له عما يعنيه المتكلمون عندما يستخدمون اللغة. (المسرد)

العلامة sign

العلاقة بين الدال (كلمة أو صوت) والمدلول (صورة أو مفهوم). (المسرد)

استدلالات سياقية situated inferences

روابط ذهنية يصنعها المشاركون في المبادلات اللفظية بين الكلمات المنطوقة وسياق الموقف وسياق الثقافة المتصلين بها. (المسرد)

الإشارية السياقية situated deixis

عملية تشير من خلالها اللغة لا إلى الموقع الفيزيقي والزمني للمتكلم لحظة الكلام فحسب، وإنما إلى وضعيته أيضاً في المجتمع والوضع status الذي منحه له المخاطب. (المسرد)

التنشئة الاجتماعية socialization

الطريقة التي يستبطن بها الفرد أعراف السلوك التي يفرضها المجتمع أو الجماعة الاجتماعية. (المسرد)

هي العملية التي يتم بها انتقال الثقافة من جيل إلى جيل، والطريقة التي يتم بها تشكيل الأفراد منذ طفولتهم حتى يمكنهم المعيشة في مجتمع ذي ثقافة معينة، ويدخل في هذا ما يلقنه الآباء والمدرسة والمجتمع للأفراد من لغة ودين وتقاليد وقيم ومعلومات ومهارات الخ (الدكتور أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص 400)

السياق الاجتماعي الثقافي (السوسيوثقافي) sociocultural context

السياق الاجتماعي الآني والسياق التاريخي في استخدام اللغة ويقال له أيضاً السياق السوسيوتاريخي (الاجتماعي التاريخي).

مجتمع خطاب speech community

جماعة اجتماعية تشترك في المعرفة بشفرة لغوية واحدة كما تشترك في المعرفة أيضاً بأنماط استخداماتها. (المسرد)

اللغة القياسية standard language

شفرة لغوية مصطنعة تستمد قوتها من العرف، تتألف من عدد كبير من اللهجات التي يستخدمها مجتمع قومي في الحديث ومفروضة بوصفها الشفرة القومية. (المسرد)

قالب stereotype

طريقة الكلام والتفكير العرفية (التي تستمد قوتها من العرف) في مخاطبة الآخرين والثقافات الأخرى. (المسرد)

بنية التوقع structure of expectation

بنية ذهنية للمعرفة تمكننا من فهم الحوادث الآنية ونتوقع الحوادث المستقبلية. (المسرد)

الرمز symbol

رمز محدد عرفياً يمنحه أعضاء ثقافة ما معنى خاصاً. (المسرد)

تقانة الكلمة technology of the word

عبارة وضعها المفكر الإنساني والتر أونج Walter Ong وتشير إلى الوسيلة المكتوبة أو المطبوعة. (المسرد)

النص text

محصلة استخدام اللغة في تبادل حواري أو على شكل قطعة من النثر المكتوب مرتبطة بعضها ببعض من خلال الأدوات التماسكية. (المسرد)

يظل النص مقصوراً على اللغة وحدها من ألفه إلى يائه. فهو ليس سوى لغة، ولا يمكن أن يوجد إلا في لغة غير نفسه. وبعبارة أخرى فنحن لا نستطيع أن نشعر بوجود النص إلا في الإنتاج. (محمد عناني، معجم المصطلحات الأدبية ص، 115).

التمحور حول الموضوع topic-centered

صفة من صفات كتابة المقال يصبح نقل الرسالة فيه أهم من الكتابة. (المسرد)

الهوامش

1- التنشئة الاجتماعية socialization هي العملية التي يتم بها انتقال الثقافة من جيل إلى جيل، والطريقة التي يتم بها تشكيل الأفراد منذ طفولتهم حتى يمكنهم المعيشة في مجتمع ذي ثقافة معينة، ويدخل في ذلك ما يلقنه الآباء والمدرسة والمجتمع للأفراد من لغة ودين وتقاليد وقيم ومعلومات ومهارات الخ ... (انظر: الدكتور أحمد زكي بدوي، معجم المصطلحات الاجتماعية، مكتبة لبنان 1982) ص، 400.)

2- synchronic معناها: آني ، استقراري ، سكوني ، متزامن فنقول مثلاً " synchronic description وصف متزامن أو synchronic grammar أي علم النحو التزامني أو synchronic linguistics أي علم اللغة التزامني أو الوصفي ، وهو فرع من علم اللغة يعني بدراسة لغة ما في إحدى مراحل تطورها ، ماضياً أو حاضراً دون النظر لمسألة التطور اللغوي. ويشمل هذا العلم أقساماً كثيرة بحسب موضوعه، فدراسة الفونولوجيا من هذا المنطلق تدعى فونولوجيا تزامنية synchronic phonology ودراسة الدلالة تدعى علم الدلالة التزامني synchronic semantics ودراسة النظم تدعى علم النظم التزامني synchronic syntax . (انظر معجم المصطلحات اللغوية للدكتور رمزي منير بعلبكي ص. 489) أما diachronic فتعني الزماني أو التاريخي أو التعاقبي فنقول مثلاً diachronic linguistics أي دراسة تغير المعنى وهو فرع من علم اللغة يعني بدراسة تطور لغة ما أو مجموعة لغات ، من منطلق تاريخي. وهو يسمى أيضاً علم اللغة التاريخي (historical linguistics) . (انظر محمد عناني: معجم المصطلحات اللغوية ص. 146)

3- شاعر فرنسي عاش بين عامي 1524 - 1858 .

4 - نظرية ترجع جذورها إلى آراء عالم الأعراق الألماني W. Von Humodlt (ت 1853) وتتمثل مكتملة في آراء عالمي اللغة الأنثروبولوجيين E. Sapir (ت 1939) و L. Whorf (ت 1941) . وملخص النظرية إن لغة المرء بأقسام كلامها ونظامها وتراكيبها – هي التي تحدد، كلياً أو جزئياً، إدراكه للعالم الخارجي وتنظيمه لهذا العالم في ذهنه. أنظر رمزي منير بعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية. دار العلم للملايين. ص: 287. ويترجمها الدكتور محمد عناني "افتراض (فرضية) سابير – ورف ثم يقول: "يعني المصطلح الاعتقاد بأن اللغة تتحكم بصورة أساسية وحتمية في طريقة رؤية أبنائها للمجتمع والعالم المادي. وهو الافتراض الذي بني عليه بينكر Steven Pinker كتابه الذي اكتسب شعبية فائقة (1994) بعنوان "غريزة اللغة: كيف يخلق الذهن اللغة"

5- قبائل من الهنود الأمريكيين يقطنون في الشمال الأمريكي – في شمال شرق ولاية أريزونا بنوع خاص.

6- النفهو Navajo عضو في قبيلة تسمى الأزاباسكان تعيش في أريزونا وفي ولايتي يوتاوا ونيومكسيكو الأمريكيتين. وتطلق الكلمة أحياناً على لغة هؤلاء السكان.

7- الشفرة هي مجموع السنن أو الأعراف التي تخضع لها عملية إنتاج الرسالة أو توصيلها، فالشفرة نسق من العلامات التي تتحكم في إنتاج رسائل يتحدد مدلولها بالرجوع إلى النسق نفسه. وإذا كان إنتاج الرسالة هو نوع من "التشفير" فإن تلقي هذه الرسالة وتحويلها إلى مدلول هو نوع من "فك الشفرة" عن طريق العودة بالرسالة إلى إطارها المرجعي في النسق الأساس؛ ولذلك يتحدث بعض دارسي العلامة عن نوع من التطابق بين "الشفرة" و "اللغة" وبين "الرسائل" "والكلام". (انظر كتاب عصر البنيوية لإديث كروزويل ترجمة جابر عصفور ، دار سعاد الصباح، 1993، 374.

8- يقول الدكتور محمد عناني في معجمه: وأول مصطلح نواجهه عند بيرس (1839 - 1914) هو عملية الرمز أو التمثيل semiosis ، وهي عملية process بمعنى أنها حركة تشترك فيها ثلاثة عناصر متحركة ، أي غير ثابتة أو نهائية أو قاطعة ؛ إذ إن بيرس عندما يعرف العلامة بأنها "تمثيل" representation لشيء ما ، بحيث يكون قادراً على توصيل بعض جوانبه أو طاقته إلى شخص ما – فإنه يقول في الحقيقة إن لدينا ثلاثة مكونات components مترابطة تتفق على

صلتها بعضها ببعض ، أي اتصالها أو تعادلها correlation - وهي العلامة sign ، والشيء object الذي تمثله تلك العلامة ، والعامل المفسر لها interpretant . ومعنى الحاجة إلى هذا العامل المفسر أن العلاقة بين العلامة والشيء الذي تشير إليه علاقة ناقصة، أي أن العلامة لا ترمز إلى الشيء كله، أي إلى جميع جوانبه وطاقاته ، بل ترمز إلى جزء من ذلك فحسب ، كبيراً كان أو صغيراً . ومعنى ذلك في الواقع أن العلامة تقبل الاختلاف والتعديل طبقاً للعامل المفسر ، ولذلك قلنا إنها متحركة dynamic .

9- التشفير هو تحويل الرسالة (message) إلى رموز ولا سيما عندما يحول المتكلم (أي الطرف المرسل) أفكاره إلى كلام يوجهه إلى المخاطب (أي الطرف المرسل إليه). والأمر نفسه يصح في تحويل الرموز الصوتية إلى كتابة مقروءة. ويستخدم المصطلح أيضاً للتحويل المقصود منه سريته أو يستخدم، لهذا المعنى، مصطلح cryptography أو enciphering . (انظر معجم المصطلحات اللغوية لرمزي البعلبكي، ص. 171.)

10- هي المعاني الترابطية أو الاقترانية وهي المعاني التي تثيرها الكلمات في ذهن السامع دون أن يكون من المعاني الأساسية لتلك الكلمات؛ مثلاً: معنى "السفر" أو "الإجازة" الذي قد تحدثه كلمة "طائرة". انظر المرجع السابق ص. 60 .

11- Cultural literacy المعرفة الثقافية مصطلح وضعه الناقد الأدبي المعروف إي . دي . هرش يشير به إلى مجموعة المعارف التي يفترض أن يشترك في معرفتها جميع أعضاء ثقافة معينة.

12- معنى ترابطي Associative Meaning، معنى اقتراني ، معنى تثيره الكلمة في ذهن السامع دون أن يكون من المعاني الأساسية لتلك الكلمة ؛ مثلاً معنى "السفر" أو "الإجازة" الذي قد تحدثه كلمة طائرة. (معجم المصطلحات اللغوية ، رمزي البعلبكي ، ص 60)

13- رومان جاكوبسون عالم لغة (1896-1982) ولد في روسيا وهاجر إلى الولايات المتحدة في عام 1941 و من عام 1949 إلى عام 1967 عمل أستاذاً للغات السلافية والأدب واللغويات العامة في جامعة هارفارد.

14- في مايو 1968 اندلعت شرارة عصيان مدني في جميع أنحاء فرنسا اقترب من حدود الثورة بتحريض من الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يعتنق آراء ستالين في ذلك الوقت. تدخلت الحكومة الفرنسية لقمع التمرد، واتهمت الشيوعيين بالتآمر ضد نظام الجمهورية الفرنسية. بدأت الثورة في بداية الأمر بإضرابات شاملة قام بها الطلاب في العديد من الجامعات الفرنسية والمدارس الثانوية في باريس. قامت الشرطة وموظفو هذه الجامعات والمدارس بقمع الطلبة، وأدت محاولات ديجول لقمع التمرد، بمزيد من الاعتقالات، إلى زيادة الثورة مما أدى إلى المزيد من المعارك الطاحنة بين الطلاب ورجال الشرطة في الحي اللاتيني في باريس. أعقب ذلك إضراب شامل قام به الطلاب وعشرة ملايين عامل بتحريض من اتحاد النقابات العمالية. تطورت الاحتجاجات وأعمال الشغب حتى قام ديجول بإقامة غرفة عمليات للإشراف على القضاء على الثورة، وقام أيضاً بحل المجلس الوطني والدعوة لإجراء انتخابات برلمانية عامة في الثالث والعشرين من يونيو 1968. كانت الحكومة على وشك الانهيار وأعد ديجول لنفسه منفى اختيارياً في أحد القواعد الجوية في ألمانيا. ولكن سرعان ما هدأت الأمور بفضل جهود الحزب الشيوعي الفرنسي أيضاً، ورجال اتحاد النقابات العمالية. يرى بعض الفلاسفة والمفكرون أن هذه الأحداث أهم أحداث مرت بها فرنسا في القرن العشرين.

15- الاستباق Anticipation من الناحية الفونولجية هو تأثر توقعي، تقديم، توقع، أن يتغير صوت ما بسبب تهيؤ أعضاء النطق لنطق الصوت الذي يليه ، الأمر الذي قد يؤدي إلى المماثلة الاستباقية أي الرجعية. ومن ناحية علم النفس هو مصطلح يشير في علم اللغة النفسي، إلى سبق اللسان (slip of the tongue) الناشئ عن توقع عنصر لغوي لاحق والتهيؤ لنطقه؛ مثلاً His bed was broken بدلاً من His head was broken (بأثر من كلمة broken) رمزي البعلبكي ، معجم المصطلحات اللغوية ، ص. 48.

16- Social Power السلطة الاجتماعية هي أية طاقة أو قوة تستمد من العلاقات الاجتماعية ومن خواص وظائف البنيان الاجتماعي. وتظهر هذه السلطة في شكل الجماعات الضاغطة والجيش والنفوذ والمراكز والجزاء الاجتماعي إلخ .. ويستطيع القادة إظهار السلطة الاجتماعية ورقابتها عن طريق الدعاية والمؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية الموجودة. (معجم

مصطلحات العلوم الاجتماعية للدكتور أحمد زكي بدوي ، مكتبة لبنان ، ص. 393) .

17- الذرائعية أو التداولية أو السياقية أو المواقفية هي دراسة استخدام اللغة في شتى السياقات والمواقف الواقعية، أي تداولها عملياً ، وعلاقة ذلك بمن يستخدمها، تفريقاً لها عن مذهب العلاقات الداخلية بين الألفاظ syntactics وعلاقة الألفاظ بالعالم الخارجي أو دلالتها semantics . ويستند هذا التفريق إلى دراسات بيرس Peirce وتشارلز موريس Morris ، مما أتى بثمار ناضجة في علوم اللغة حيث مكن سوسير ومن اتبعه من التمييز بين النظم المختلفة للقواعد الشكلية، (في علمي التراكيب syntactics والدلالات semantics) عن اللغة في استعمالاتها الفعلية اليومية (أي وجودها التداولي) .
انظر معجم المصطلحات الأدبية الحديثة للدكتور محمد عناني ، لونجمان ، ص ص: 76-78.

18- Trobriand Islands مجموعة من الجزر الصغيرة في جنوب غرب المحيط الهادي في بابيوا في غينيا الجديدة.

19- قد لا يفيد كثيراً ترجمة الحوار إلى العربية لأن القارئ يريد أن يطلع على تحليل الكاتبة للنص الإنكليزي.

20- القواعد الأربعة التي ذكرها هي بإيجاز: 1- الكلام فيما يفي بالغرض فسحب 2- نقل المعلومات الضرورية فحسب 3- الحديث فيما يمس الموضوع فحسب 4- عدم البعد عن الواقع والحقيقة.

21- register نوعية اللغة، نطاق الأعراف، نطاق الخيارات العرفية، النوع

المصطلح جديد ويعني، في نهاية المطاف، ما يعنيه النقد القديم بالنوع الأدبي أو النوع وحسب genre – وهو مستقى في الأصل من الغناء والموسيقى حيث يدل على مدى أو نطاق الصوت البشري أو الآلة الموسيقية (في العود أوكتافان، أي 14 نغمة في العادة مثلاً مما يناسب نطاق صوت المغني الشرقي) ومن ثم استعير التعبير، في علوم اللغة للدلالة على الخصائص اللغوية التي تعتمد على السياق ، وهي تتضمن أي مجموعة من الخيارات المتاحة وفقاً لما يظنه المتكلم أو المتحدث أو الكاتب ملائماً للسياق (سواء كان ذلك خاصاً بالألفاظ أو بالتركيب أو بالنحو أو الصوت أو التنغيم وما إلى ذلك). فالإعلان التليفزيوني له نطاق أعراف محددة يصعب أن يخلط المرء بينها وبين غيرها ، وقس على ذلك نطاق أعراف خطبة الجمعة ، والخطب السياسية ، ومحاضرات الجامعة وما إلى ذلك. (انظر معجم المصطلحات الأدبية للدكتور محمد عناني، ص: 90)

نوعية اللغة، لهجة خاصة وهي ضرب من الاستعمال اللغوي يؤدي غرضاً محدداً (كالغرض العلمي أو الخطابي أو الحقوقي) ويحدده مجال الحديث وطريقته وشكله. (معجم المصطلحات اللغوية ص: 423).

22- نوعية اللغة ونطاق الخيارات العرفية الذي أشرنا إليه آنفاً في الهامش.

23- frame

1- تعريف الإطار، وفقا لمفهوم ميك بال هو: "الحيز الذي توضع فيه الشخصية، أو الذي لا توضع فيه أو تستبعد منه." (1985 - ص 94)

2- وتعريفه وفقاً لماري آن كارز ، في كتابها "قراءة الأطر في الفن القصصي الحديث Reading Frames in Modern Fiction (1985) هو إبراز بعض الفقرات في بعض الروايات الحديثة ، بحيث ينطبق عليها التعبير الشائع "البروزة" أي وضع في برواز (أي إطار).

3- ونضيف تعريفاً سابقاً للإطار أتى به إرفنج جوفمان Irving Goffman في كتابه "تحليل الأطر" المادي للعمل الفني في نظر الجمهور (أو من وجهة نظر المستهلك).

وتعبير "القصة ذات الإطار" a framed narrative يعني القصة داخل القصة ، ويطلق تعبير frame narrator أي "الراوي الإطاري" على الراوي الخارجي للقصة (أي المؤلف) ويشار إليه ايضاً بمصطلح outer narrator – والقصص المؤطرة أو الداخلية، هي القصة داخل القصة embedded .

4- يميز أمبرتو إيكو بين الأطر العادية أو العامة أو المشتركة common frames، وهي قواعد الحياة العملية التي يعرفها ويطبقها الأفراد العاديون ، وبين أطر التناص وهي نظم أدبية أو قصصية قائمة (1981 - ص 21). وإيكو يقتبس هذا التمييز من بوجين شارنيك ومايكل ريفاتير.

وفي كتاب "تأملات في كلمة "الصورة" "Reflections on the Word "Image" يقول ب. ن. فربانك: إن الاتجاه الحديث هو إلغاء الإطار، وهو اتجاه يعزوه إلى الثورة على فكرة المعايير المرجعية وإلى الرغبة في معارضة عزل الفن أو تقسيمه إلى أطر ونظم مستقلة (1970 - ص 128 - 129). (محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة ص 32-33)

24- فيلم قصير من ست دقائق من إخراج وليام تشيف، عرض بجامعة كاليفورنيا فرع بركلي عام 1975 على مجموعة من المتحدثين بلغات مختلفة، وطلب منهم بعد ذلك أن يقصوا ما حدث كل بطريقته في السرد. انظر:

Wallace Chafe (ed.) The Pear Stories: Cognitive, Cultural, and Linguistic Aspects of (Narrative Production. Norwood, New Jersey: (1980

ويتأسس هذا الفيلم على فكرة أن طريقتنا في السرد تعكس الاختلافات الثقافية الهامة الكائنة بين الجماعات الثقافية المختلفة. فالأحداث المتشابهة تبدو مختلفة بشكل واضح عندما يعاد سردها من وجهة نظر جماعات ثقافية مختلفة ذوي مشارب ثقافية متعددة.

25- الكبالانية Cabbalism فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط، مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً. (نقلاً عن المورد) المترجم.

26- لم يكن سلمان رشدي يكتب خيالاً فقط وإنما ربط الخيال (القصة) بواقع مبني علي معلومات تاريخية موثقة وكاذبة. والكاتبة هنا تضرب المثل بسلمان رشدي ولم تضرب المثل بما يحدث في ثقافتها حين هاجمت الجماهير المسيحية دور السينما وأحرقوها عند عرض فيلم يصور حياة المسيح، وكذلك هي لم تتعرض إلى اليهود ومصادرتهم للحريات والكتب والمؤلفات التي تكشف تاريخهم وممارساتهم الممقوتة. وهنا لا يخفى على القارئ أيديولوجية الكاتبة التي تنطلق منها وتناقضها أيضاً مع نفسها حين تضرب المثل بالثقافة الإسلامية التي يجب أن تكون عالمة بأنها مختلفة، وهي بذلك تناقض إقرارها بأن الاختلافات الثقافية أمر واقع وتناقشها في كتابها، ثم تأتي بنقد لها وتعترض عليها من طرف خفي.

27- قرر إدماند لافورست (1876 - 1915) الناقد والصحفي الهاييتي المشهور الانتحار بالقفز في مياه النهر بعد عن علق قاموس لاروز الكبير حول رقبته ليتأكد من أنه سوف يغرق حتماً وكي يكون موته رسالة مفادها أن اللغة الفرنسية التي فرضها الاستعمار على شعبه كانت قيداً مضروباً حول عنقه تسبب في موته ثقافياً قبل الموت الجسدي. وكي يقول أيضاً إن الهيمنة اللغوية تؤدي حتماً إلى استعمار ثقافي تفرضه الجماعة الغالبة.

28- Trobriander Islands مجموعة من الجزر شمال غرب المحيط الهادي في بابوا بغينيا الجديدة.

29- Belize بلد على الساحل الكاريبي في وسط القارة الأمريكية، عدد سكانها حوالي 191000 نسمة، وتتحدث الإنكليزية والكريولية والأسبانية. كانت مستعمرة بريطانية في القرن السابع عشر وكانت تعرف باسم هندوراس البريطانية. وينسب اسم بليز لنهر هناك ومعناه باللغة الماياوية "المياه الموحلة". استقلت عن بريطانيا في عام 1973 لتصبح عضو بالكومنولث. طالبت بها جواتيمالا التي تحدها من ناحية الغرب والجنوب حسب المعاهدة الإسبانية القديمة ولكنها اعترفت بوجودها كدولة مستقلة في نهاية المطاف عام 1992.

30- اللغة اليدشية هي اللهجة الرئيسة في لغة اليهود الأشكيناز القادمين من شرق ووسط أوربا. وهي إحدى اللغات الجرمانية تكتب بحروف عبرية. ونشأت اليدشية (ومعناها اليهودي) بين القرنين التاسع والثاني عشر في جنوب غرب ألمانيا عن اللهجات الألمانية؛ وذلك كي يستغلها اليهود في أغراضهم الخاصة.

31- Jacobins اليعاقبة: جماعة سياسية متطرفة عرفت بنشاطها الإرهابي خلال الثورة الفرنسية. تأسست هذه الجماعة عام 1789 باسم جمعية أصدقاء الدستور، وأخذت اسمها من المكان الذي كان الأعضاء الأوائل – ومنهم الكونت دي ميرابو ومكسيمليان روبسبيير –يجتمعون فيه – وهو دير في باريس. كان روبسبيير هو القوة المحركة وراء جميع أنشطة هذه الجماعة وتوجهاتها وذلك لما له من قدرة كبيرة على الخطابة واستمالة الجماهير. لقد كان روبسبيير هو الذي أصر على موت الملك وارسال الكثير أعضاء الحرس القديم إلى المقصلة. وبرحيل روبسبيير انفرط عقد أعضاء الجمعية واختفت بعد ذلك.

32- المواطنة العالمية cosmopolitanism هي نزعة ترمي إلى التحرر من الأحقاد القومية واعتبار الإنسانية أسرة واحدة وطنها العالم وأعضاؤها أفراد البشر جميعاً، دون اعتبار لاختلافهم في اللغة أو في الجنس أو في الوطن. ويقابله المحلية localism أي الانطواء التام لمن يعيشون في مجتمع محلي في مجتمعهم هذا. (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ص88).

33- يترجم مصطلح Standard Language عادة باللغة الفصحى ونفضل أن نترجمه اللغة القياسية لأن مفهوم الفصحى في العربية مختلف عن مفهوم الفصحى في اللغة الإنكليزية، فالإفصاح في اللغة العربية يعني الظهور والوضوح – يقول الشاعر: وتحت الرغوة اللبن الفصيح، أي الواضح أو الظاهر، والفصاحة في اللغة تكون في اللفظة والنص والمتكلم، ووتتسم اللفظة بالفصاحة إذا انطبقت عليها معايير معينة منها السهولة والسلامة في النطق والأذن، قال أبو تمام:

وأحمق ممن يلعق الماء قال لي　　　　دع الخمر واشرب من نقاخ مبرد

وتستنكف الأذن من كلمة نقاخ (الماء العذب) ومن ثم فلا يعتبرها العرب العرب كلمة فصيحة، وهكذا كل الفصحى. ونظراً لغياب هذا المفهوم في اللغة الإنكليزية فلا يصح إطلاق لفظة الفصحى على ما يعرف باللغة القياسية التي يمكن أن تشتمل على كلمات فصيحة وغير فصيحة في سياق العربية نفسها. (المترجم)

والطوطم حيوان أو نبات أو جسم محسوس ينظر إليه الرجل البدائي في احترام وخضوع دون أن يكون هناك سبب معقول يدفعه إلى ذلك. ويعتقد الناس في القبائل الطوطمية أنهم ينحدرون عن ذلك الطوطم كما تسمى القبيلة باسمه أي أن الطوطم عندهم هو رمز للأب أو الجد وبديل عنه. الطوطمية هي مجموعة من المعتقدات المعقدة بشأن الطوطم والعلاقة الخفية بين أفراد القبيلة. والطوطمية لها شأن كبير في التعليم الاجتماعي للجماعة. ويعتقد دوركايم أن الطوطمية شكل بدائي للدين وكانت عاملاً هاماً في تنمية التماسك الاجتماعي للمجتمعات الأولى. (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ص427).

34- الترست، الاتحاد الاحتكاري Trust هو اتفاق عدد من المشروعات على الانضمام تحت إدارة جديدة بحيث تذوب شخصية كل منها، والهدف الرئيس من مثل هذا التنظيم هو السيطرة على فرع معين من فروع النشاط الاقتصادي في مجالات الصناعة والتجارة والخدمات. (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ص 431)

35- الطاوية فلسفة دينية صينية نشأت عن كتابات لاوتسي (BC 530-605) كان يدعو فيها إلى إيجاد الانسجام مع الطبيعة. وتعتبر الطاوية بالإضافة إلى البوذية والكونفوشيوسية من أديان الصين الثلاثة.

36- الأباتشي هم هنود أمريكيون يتحدثون عدة لغات قريبة الشبه بعضها بالبعض الآخر.

37- اللغة التي يتحدث بها أهل الكونجوين وهم الهنود الأمريكيين في أمريكيا الشمالية بصفة خاصة.

38- من الهنود الأمريكيين على الساحل الشمالي الغربي من الولايات المتحدة.

39- لغة خاصة بأهل جزيرة فانكوفر الكندية وهم من أصل هندي.

40- يقصد به نسق من القواعد والمبادئ التي يسير بمقتضاها السلوك البشري مستقلاً عن أي قانون وضعي، أو السلوك الاجتماعي المقرر على أساس العرف والدين لا على أساس القانون الموضوع.

41- السلطة هي القدرة أو القوة التي تمكن من السيطرة على الناس ومن الضغط عليهم ورقابتهم للحصول على طاعتهم والتدخل في حريتهم وتوجيه جهودهم في اتجاهات معينة. وقد تستمد السلطة من شخصية الحائز عليها أو من التقاليد أو كنتيجة لاحتكار الثروة أو من القوة العسكرية. وكل نظام اجتماعي عبارة عن نسق من علاقات السلطة من السادة والمسودين وبين المنافسة والتعاون. ويقال سلطة تشريعية legislative power وسلطة تنفيذية executive power وسلطة اجتماعية social power لأي شكل من أشكال الطاقة أو القوة الصادرة من العلاقات الاجتماعية والخواص الوظيفية للبنيان الاجتماعي.

42- العمليات الاجتماعية social processes هي أي نمط متكرر للتفاعل يمكن تحديده. ويرتبط الأفراد في المجتمع بعلاقات وروابط لا حصر لها تنشأ من: طبيعة اجتماعهم ومن تفاعل رغباتهم ومن احتكاك بعضهم بالبعض الآخر. (انظر معجم

مصطلحات العلوم الاجتماعية للدكتور أحمد زكي بدوي،، ص: 322-323.).

43- مدارس وكليات أشميد المنتشرة في أنحاء الولايات المتحدة سميت باسم ألس أشميد بارتلد (1881-1931) والذي كان مراسلاً حربياً في الحرب العالمية الأولى واستطاع فضح ممارسات الجيش البريطاني في هذه الحرب.

44- موسيقى شعبية خاصة بأهل البنجاب وهي مزيج من الروك آند رول والدسكو ممزوجاً بالرقص الشعبي البنجابي.

45- نزعة لدى كل من يهتم بالكتابة والكلام نحو التزام الدقة والصحة في التعبير حسبما تقرره قواعد الكلام المتواضع عليها في لغة ما. وقد يعني هذا المصطلح أيضاً مقاومة المؤثرات الأجنبية أو المحلية في لغة ما بحيث تترفع عن الرطانات والعجمة. (انظر معجم المصطلحات العربية في الأدب واللغة، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، ص 225).

46- قمنا بترجمة المسرد وزدنا عليه بجولة في المعاجم والمصادر الأخرى إمعاناً في حصول الفائدة.

إصدارات قسم الترجمة، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة

	العنوان	المترجم/المراجع	الزوج اللغوي	الطباعة والسنة
1	**سمك القرش والنورس البحري** دومينيك دو فيلبان	هاشم صالح ومحمد مخلوف، مراجعة د. حسام الخطيب	فرنسي - عربي	شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت 2005
2	**مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام** طارق رمضان	د. إبراهيم الشهابي، مراجعة د. حسام الخطيب	إنكليزي - عربي	شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت 2005
3	**تاريخ اللغات ومستقبلها، عالم بابلي** هارالد هارمان	سامي شمعون، مراجعة محمد فرززات	الماني- عربي	شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت 2006
4	**فلسطين في الشعر الهسباني المعاصر** محمد الجعدي	محمد الجعدي، مراجعة د. حسام الخطيب	إسباني - عربي	شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت 2006
5	**شجرة الغاف** مجموعة باحثين، جامعة قطر	مجموعة باحثين، جامعة قطر	عربي	مطابع الدوحة الحديثة، 2007
6	**شجرة الغاف** مجموعة باحثين، جامعة قطر	مجموعة باحثين، جامعة قطر	إنكليزي	مطابع الدوحة الحديثة، 2007
7	**هل كنّا مثل أيّ عاشقين؟** نفتاج سارنا	د. منذر محمد	إنكليزي - عربي	شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت 2006
8	**القضية المشتركة** فيليب آغران	عبدالودود العمراني، مراجعة د. حسام الخطيب	فرنسي - عربي	دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، 2007
9	**عصر النفط** ليوناردو ماوجري	د. إبراهيم الشهابي	إنكليزي - عربي	مطابع الدوحة الحديثة، 2008
10	**حكايات من الأدب الشعبي الفارسي** مقتطفات من شهنامه الفردوسي	د. مصطفى باكور	فارسي - عربي	دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، 2008
11	**بنت عرب** إفلين شاكر	أمل منصور، مراجعة د. فائقة صديقي	إنكليزي - عربي	دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، 2008
12	**عناق الأسرة** نوبو كوجيما	د. منذر محمد	إنكليزي - عربي	دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، 2009
13	**عروق القدس النازفة** مجموعة باحثين	د. منير العكش	إنكليزي - عربي	الشركة الحديثة للطباعة، الدوحة، 2009

NEW PRINTING CO.
الشركة الحديثة للطباعة
تليفون : ٤٤٢٤٥٧٥/٦ - ص.ب : ٢٢٥٩
الدوحـــة - قطـــر